نخب الملح

جمعها الاب يوحنا بلو والاب اغوستينوس
من الرهبنة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثالث

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى فُصُولٍ جُغْرَافِيَّةٍ وَتَوَارِيخَ

طبع رابعة في مطبعة المرسلين اليسوعيين
في بيروت ١٨٨٤

www.marefa.org

marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع المحتوى العربي والإضافة إليه، لإنشاء موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من مصادر مرخصة بالنقل. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,587 مقال و 2,409,583 صفحة مخطوط فيها.

خلافاً للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. **ادع أصدقاءك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم.**

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام الأبجدية العربية، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر حيدر أباد وتنبكتو وزنجبار وسمرقند ملأى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات الضوئية والإنترنت بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات الممسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات باللغة العربية التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة بروكلمان لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات بالفارسية والتركية (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في الصين وتنبكتو (مالي).

هذه قائمة جزئية للمخطوطات التي لدينا. إذا كنت تريد أن نعجل بنشر أي منها فأخبرنا بالضغط هنا.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات, أي تحويل الصورة إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع معرفة المخطوطات الذي يضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً ندعو القراء للمشاركة فيه (بالتسجيل هنا).
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع گوتنبرگ Gutenberg Project لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة **لمشروع گوتنبرگ** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي

کتب خانہ آصفیہ سرکار عالی حیدرآباد دکن

نمبر داخلہ ۲۵۲۹

تاریخ داخلہ

نام کتاب نخب الملح قسم ثالث

فن کتاب محاضرات

نمبر کتاب در فن مذکور ۱۰۴

www.marefa.org

www.marefa.org

www.marefa.org

نخب الملح

جمعها الاب يوحنا بلو والاب اغوستينوس
من الرهبنة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثالث

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى فُصُولٍ جُغْرَافِيَّةٍ وَتَوَارِيخَ

طبع رابعة في مطبعة المرسلين اليسوعيين
في بيروت ١٨٨٤

www.marefa.org

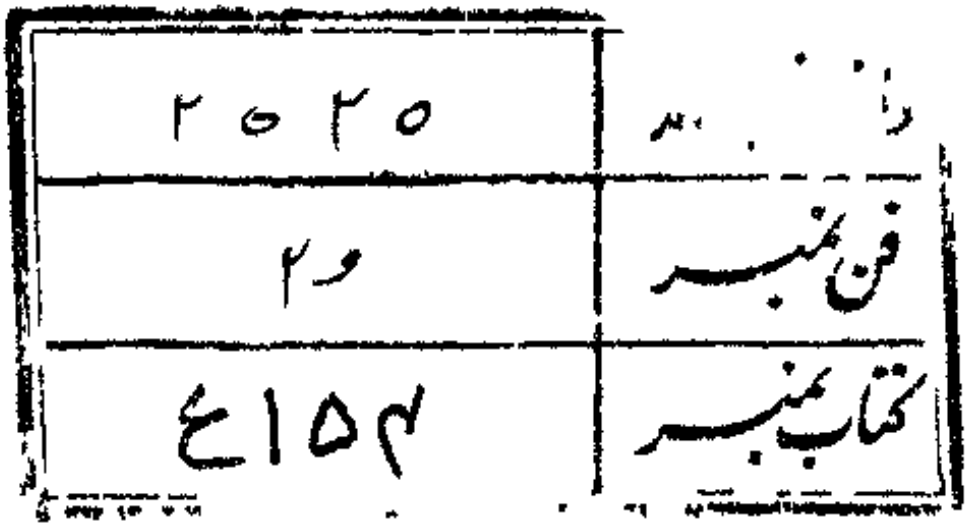

www.marefa.org

نخبة

من كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر
لعبد الرحمن بن خلدون الحضرمي

من المقدمة في فضل علم التاريخ
وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض للمؤرخين
من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة شريف العائدة إذ هو أن يقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في حكايات الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا

www.marefa.org

سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ الْحِكْمَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ الْأَعْدَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ الْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ الْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ

وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَإِنَّمَا نَكَبَ الْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَانِ أَمْوَالِ الْجِبَايَةِ حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يَطْلُبُ الْيَسِيرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَغَلَبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ وَشَرِكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَبَعُدَ صِيتُهُمْ وَعَمَّرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخِطَطَهَا بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وُلْدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَاحْتَازُوهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنْ وِزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ بِدَارِ الرَّشِيدِ مِنْ وُلْدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَئِيسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ زَاحَمُوا فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَاكِبِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِالرَّاحِ لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَحْيَى مِنْ كَفَالَةِ هَرُونَ وَلِيِّ عَهْدِهِ وَخَلِيفَةً حَتَّى شَبَّ فِي حُجْرِهِ وَدَرَجَ مِنْ عُشِّهِ وَغَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ. فَتَوَجَّهَ الْإِيثَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَعَظُمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَانْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَانْصَرَفَتْ نَحْوَهُمُ الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُمُ الرِّقَابُ وَقُصِرَتْ عَلَيْهِمِ الْآمَالُ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى الْبُحُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ وَتُحَفُ الْأُمَرَاءِ وَتَسَرَّبَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ

www.marefa.org

التَّرَفُّقِ وَالْإِسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ الْجِبَايَةِ وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشِّيعَةِ وَعُظَمَاءِ
الْقَرَابَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمُ الْمِنَنَ وَكَسَبُوا مِنْ بُيُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعْدِمَ
وَفَكُّوا الْعَانِيَ وَمَدَحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسْنَوْا لِعُفَاتِهِمِ الْجَوَائِزَ
وَالصِّلَاتِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الضَّوَاحِي وَالْأَمْصَارِ فِي
سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى آسَفُوا الْبِطَانَةَ وَأَحْقَدُوا الْخَاصَّةَ وَأَغَصُّوا أَهْلَ الْوِلَايَةِ
فَكُشِفَتْ لَهُمْ وُجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَدَبَّتْ إِلَى مَهَادِهِمِ الْوَثِيرِ مِنَ
الدَّوْلَةِ عَقَارِبُ السِّعَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قَحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ
السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَعْطِفْهُمْ لِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحِمِ
وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقَرَابَةِ وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِئُ الْغِيرَةِ
وَالِاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجْرِ وَالْأَنَفَةُ وَكَامِنُ الْحُقُودِ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ
الدَّالَّةِ وَانْتَهَى بِهَا الْإِصْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كَبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ كَقَصْدِهِمْ فِي يَحْيَى
بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي الْمَهْدِيِّ
الْمُلَقَّبِ بِالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي
اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَذَلَ
لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبَرِيُّ وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ
وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ. فَحَبَسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ
سَبِيلِهِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِمَحَلِّ اعْتِقَالِهِ حَرَمًا لِدِمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَالَّةً عَلَى
السُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ فَفَطَنَ وَقَالَ
أَطْلَقْتُهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ الِاسْتِحْسَانِ وَأَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ

فَأَوْجَدَ السَّبِيلَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ حَتَّى ثُلَّ عَرْشُهُمْ وَأُكِبَّتْ عَلَيْهِمْ

www.marefa.org

مَسَاوِئُهُمْ وَخُسِفَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ وَبِدَارِهِمْ وَذَهَبَتْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ أَيَّامُهُمْ. وَمَنْ تَأَمَّلَ أَخْبَارَهُمْ وَاسْتَقْصَى سِيَرَ الدَّوْلَةِ وَسِيَرَهُمْ وَجَدَ ذٰلِكَ مُحَقَّقَ الْأَثَرِ مُمَهَّدَ الْأَسْبَابِ. وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي مُفَاوَضَةِ الرَّشِيدِ عَمَّ جَدِّهِ دَاوُدَ بْنَ عَلِيٍّ فِي شَأْنِ نَكْبَتِهِمْ مَا ذَكَرَهُ فِي بَابِ الشُّعَرَاءِ مِنْ كِتَابِ الْعِقْدِ فِي مُحَاوَرَةِ الْأَصْمَعِيِّ لِلرَّشِيدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فِي سَمَرِهِمْ تَفْهَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الْغَيْرَةُ وَالْمُنَافَسَةُ فِي الِاسْتِبْدَادِ مِنَ الْخَلِيفَةِ فَمَنْ دُونَهُ وَكَذٰلِكَ مَا تَحَيَّلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمْ مِنَ الْبِطَانَةِ فِيمَا دَسُّوهُ لِلْمُغَنِّينَ مِنَ الشِّعْرِ أَحْيَانًا عَلَى إِسْمَاعِهِ لِلْخَلِيفَةِ وَتَحْرِيكِ حَفَائِظِهِ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ شِعْرٌ

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنَا مَا تَعِدْ ... وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدْ

وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً ... إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدْ

وَإِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ إِي وَاللّٰهِ عَاجِزٌ حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْثَالِ هٰذِهِ كَامِنَةً غَيْرَتَهُ وَسَلَّطُوا عَلَيْهِمْ بَأْسَ انْتِقَامِهِ نَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ غَلَبَةِ الرِّجَالِ وَسُوءِ الْحَالِ

وَأَمَّا مَا تُمَوِّهُ بِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مُعَاقَرَةِ الرَّشِيدِ الْخَمْرَ وَاقْتِرَانِ سُكْرِهِ بِسُكْرِ النُّدْمَانِ فَحَاشَا اللّٰهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَأَيْنَ هٰذَا مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ بِمَنْصِبِ الْخِلَافَةِ مِنَ الدِّينِ وَالْعَدَالَةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صُحْبَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَمُحَاوَرَتِهِ لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَابْنِ السَّمَّاكِ وَالْعُمَرِيِّ وَمُكَاتَبَتِهِ سُفْيَانَ وَبُكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَدُعَائِهِ بِمَكَّةَ فِي طَوَافِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَشُهُودِ الصُّبْحِ الْأَوَّلِ فِي وَقْتِهَا

حَكَى الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةً وَكَانَ

www.marefa.org

يَغْزُو عَامًا وَيَحُجُّ عَامًا. وَلَقَدْ زَجَرَ ٱبْنَ أَبِي مَرْيَمَ مُضْحِكَهُ وَسَمِيرَهُ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّلَاةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي. قَالَ وَٱللّٰهِ لَا أَدْرِي لِمَ. فَمَا تَمَالَكَ ٱلرَّشِيدُ أَنْ ضَحِكَ. ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ مُغْضَبًا وَقَالَ يَا ٱبْنَ أَبِي مَرْيَمَ فِي ٱلصَّلٰوةِ أَيْضًا إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَٱلْقُرْآنَ وَٱلدِّينَ وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا

وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلسَّدَاجَةِ بِمَكَانٍ لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ ٱلْمُتَحَلِّينَ لِذٰلِكَ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدُ زَمَنٍ إِنَّمَا خَلَّفَهُ غُلَامًا. وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ قَبْلَ ٱلْخِلَافَةِ وَبَعْدَهَا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ ٱلْمُوَطَّإِ يَا أَبَا عَبْدِ ٱللّٰهِ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلَتْنِي ٱلْخِلَافَةُ فَضَعْ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبْ فِيهِ رُخَصَ ٱبْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ٱبْنِ عُمَرَ. وَوَطِّئْهُ لِلنَّاسِ تَوْطِئَةً: قَالَ مَالِكٌ فَوَٱللّٰهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي ٱلتَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ٱبْنُهُ ٱلْمَهْدِيُّ أَبُو ٱلرَّشِيدِ هٰذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كِسْوَةِ ٱلْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ ٱلْخَيَّاطِينَ فِي إِرْقَاعِ ٱلْخُلْقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ. فَٱسْتَنْكَفَ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كِسْوَةُ هٰذِهِ ٱلْعِيَالِ عَامَنَا هٰذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَكَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِٱلْإِنْفَاقِ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ

فَكَيْفَ يَلِيقُ بِٱلرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ ٱلْعَهْدِ مِنْ هٰذَا ٱلْخَلِيفَةِ وَأُبُوَّتِهِ وَمَا رَبَّى عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلسِّيَرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَافِرَ فِي ٱلْخَمْرِ أَوْ

www.marefa.org

يُجَاهِرَ بِهَا، وَقَدْ كَانَتْ حَالُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ تَكُنِ ٱلْكَرْمُ شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذَمَّةً عِنْدَ ٱلْكَبِيرِ مِنْهُمْ وَٱلصَّغِيرِ. وَٱلرَّشِيدُ وَآبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى نَهْجٍ مِنِ ٱجْتِنَابِ ٱلْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَٱلتَّخَلُّقِ بِٱلْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ ٱلْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ ٱلْعَرَبِ. وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جِبْرَئِيلَ بْنِ بَخْتِيشُوعَ ٱلطَّبِيبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ ٱلسَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَنَحَّاهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ ٱلْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطِنَ ٱلرَّشِيدُ وَٱرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمَهُ حَتَّى عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ. فَأَعَدَّ ٱبْنُ بَخْتِيشُوعَ لِلِٱعْتِذَارِ ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنَ ٱلسَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ إِحْدَاهَا بِٱللَّحْمِ ٱلْمُعَالَجِ بِٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْبَوَارِدِ وَٱلْحُلْوَاءِ. وَصَبَّ عَلَى ٱلثَّانِيَةِ مَاءً مُثَلَّجًا. وَعَلَى ٱلثَّالِثَةِ خَمْرًا صِرْفًا. وَقَالَ فِي ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةِ: هٰذَا طَعَامُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ خُلِطَ ٱلسَّمَكُ بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يُخْلَطْ: وَقَالَ فِي ٱلثَّالِثَةِ هٰذَا طَعَامُ ٱبْنِ بَخْتِيشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ ٱلْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا ٱنْتَبَهَ ٱلرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ أَحْضَرَ ٱلْأَقْدَاحَ فَوَجَدَ صَاحِبَ ٱلْخَمْرِ قَدِ ٱخْتَلَطَ وَٱمَّاعَ وَتَفَتَّتَ وَوَجَدَ ٱلْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا

فَكَانَتْ لَهُ فِي ذٰلِكَ مَعْذِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ حَالَ ٱلرَّشِيدِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بِطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ. وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهِدَ بِحَبْسِ أَبِي نُوَاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنْ أَنَّهُ هَاكَهُ فِي ٱلْمُعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ. وَإِنَّمَا كَانَ ٱلرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ ٱلتَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ. وَأَمَّا ٱلْخَمْرُ ٱلصِّرْفُ مِنَ ٱلْعِنَبِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدِ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْوَاهِيَةِ فِيهَا. فَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مُحَرَّمًا مِنْ أَكْبَرِ ٱلْكَبَائِرِ

www.marefa.org

عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ. وَلَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنْ حِنْثِ السَّرَفِ وَالتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَنَاوَلَاتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْبَدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ. فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِبَاحَةِ إِلَى الْحَظْرِ وَعَنِ الْحِلِّيَّةِ إِلَى الْحُرْمَةِ. وَلَقَدِ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ الطَّبَرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِالْحِلْيَةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللُّجُمِ وَالسُّرُوجِ وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحْدَثَ الرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَزُّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ. فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ بِأَتَمَّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبَدَاوَةِ وَالْفَظَاظَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى

وَيُنَاسِبُ هَذَا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنْ كَانَ يُعَاقِرُ الْمَأْمُونُ الْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرْبِهِ فَدُفِنَ فِي الرَّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمِ ... قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي

إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي ... كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالدِّينِ

وَحَالُ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَابِهِمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيذَ وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ. وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَ خُلَّةً فِي الدِّينِ. وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَنُقِلَ مِنْ فَضَائِلِ الْمَأْمُونِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ

www.marefa.org

فَقَامَ يَتَجَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوقِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا. فَأَيْنَ هٰذَا مِنَ الْمُعَاقَرَةِ. وَأَيْضًا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ. وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْقَاضِي إِسْمَعِيلُ وَخَرَّجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِهِ الْجَامِعِ. وَذَكَرَ الْحَافِظُ الْمِزِّيُّ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ فَالْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِي جَمِيعِهِمْ

وَكَذٰلِكَ نَبَزَهُ الْمُجَّانُ بِالْمَيْلِ إِلَى الْغِلْمَانِ بُهْتَانًا عَلَى اللّٰهِ وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنِدُونَ فِي ذٰلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنِ افْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ. فَإِنَّهُ كَانَ مُحَسَّدًا فِي كَمَالِهِ وَخُلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مُنَزَّهًا عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ. وَقَدْ ذُكِرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللّٰهِ سُبْحَانَ اللّٰهِ وَمَنْ يَقُولُ هٰذَا وَأَنْكَرَ ذٰلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَثْنَى عَلَيْهِ. وَقِيلَ لِإِسْمَعِيلَ مِمَّا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَتُهُ مِثْلِهِ بِتَكَذُّبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ كَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأَ إِلَى اللّٰهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغِلْمَانِ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ لِلّٰهِ لٰكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خُلُقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا تَصِحُّ عَنْهُ

وَمِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزَّنْبِيلِ فِي سَبَبِ إِضْهَارِ الْمَأْمُونِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بِنْتِهِ بُورَانَ..... وَأَيْنَ هٰذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَاقْتِفَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخْذِهِ بِسِيَرِ الْخُلَفَاءِ

www.marefa.org

ٱلْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ ٱلْمِلَّةِ وَمُنَاظَرَتِهِ لِلْعُلَمَاءِ وَحِفْظِهِ لِلْحُدُودِ فِي حَلَوَاتِهِ
وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصِحُّ عَنْهُ أَحْوَالُ ٱلْفُسَّاقِ ٱلْمُشْتَهِرِينَ فِي ٱلتَّطْوَافِ بِٱللَّيْلِ
وَطُرُوقِ ٱلْمَنَازِلِ وَغِشْيَانِ ٱلسَّمَرِ سَبِيلِ عُشَّاقِ ٱلْأَعْرَابِ وَأَيْنَ ذٰلِكَ
مِنْ مَنْصِبِ بِنْتِ ٱلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ بِدَارِ أَبِيهَا مِنَ ٱلصَّوْنِ
وَٱلْعَفَافِ

وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ ٱلْمُؤَرِّخِينَ مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ
عَلَى وَضْعِهَا وَٱلْحَدِيثِ بِهَا ٱلِٱنْهِمَاكُ فِي ٱللَّذَّاتِ ٱلْمُحَرَّمَةِ وَهَتْكُ قِنَاعِ
ٱلْمُرُوَّاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِٱلْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لَذَّاتِهِمْ فَلِذٰلِكَ تَرَاهُمْ
كَثِيرًا مَا يَلْهَجُونَ بِأَشْبَاهِ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارِ وَيَنْقُرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ
ٱلدَّوَاوِينِ. وَلَوِ ٱئْتَسَوْا بِهِمْ فِي غَيْرِ هٰذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ ٱلْكَمَالِ ٱللَّائِقَةِ
بِهِمِ ٱلْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ عَذَلْتُ يَوْمًا
بَعْضَ ٱلْأُمَرَاءِ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْمُلُوكِ فِي كَلَفِهِ بِتَعَلُّمِ ٱلْغِنَاءِ وَوُلُوعِهِ بِٱلْأَوْتَارِ
وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هٰذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِكَ. فَقَالَ لِي أَفَلَا تَرَى إِلَى
إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَرَئِيسَ ٱلْمُغَنِّينَ فِي
زَمَانِهِ. فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ ٱللهِ وَهَلَّا تَأَسَّيْتَ بِأَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ
قَعَدَ ذٰلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنَاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ

وَمِنَ ٱلْغَلَطِ ٱلْخَفِيِّ فِي ٱلتَّارِيخِ ٱلذُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْأُمَمِ
وَٱلْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَعْصَارِ وَمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ وَهُوَ دَاءٌ دَوِيٌّ وَشَدِيدٌ
ٱلْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ وَلَا يَكَادُ يَتَفَطَّنُ لَهُ إِلَّا ٱلْآحَادُ
مِنْ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنِحَلَهُمْ

www.marefa.org

لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ مُسْتَقِرٍّ. إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ فَكَذٰلِكَ يَقَعُ فِي الْآفَاقِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالدُّوَلِ

وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَمُ الْفُرْسِ الْأُولَى وَالسِّرْيَانِيُّونَ وَالنَّبَطُ وَالتَّبَابِعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقِبْطُ. وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُوَلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ وَأَحْوَالُ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفُرْسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ وَالْفِرَنْجَةُ. وَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ وَانْقَلَبَتِ الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا وَيُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا وَيُبَاعِدُهَا. ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ. فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِهٰذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ، ثُمَّ دَرَسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ وَصَارَ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْفِرَنْجِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالٌ وَعَوَائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا

وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ. أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ. وَأَهْلُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزِعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ فَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ

www.marefa.org

مَعَ ذٰلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ ٱلدَّوْلَةِ بَعْضُ ٱلْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ ٱلْجِيلِ ٱلْأَوَّلِ. فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلْأُولَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً. ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلتَّدْرِيجُ فِي ٱلْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْمُبَايَنَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. فَمَا دَامَتِ ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ ٱلْمُخَالَفَةُ فِي ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْأَحْوَالِ وَاقِعَةً

وَٱلْقِيَاسُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ ٱلْغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ ٱلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنْ مَقْصِدِهِ وَتَعْوَجُّ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ. فَرُبَّمَا سَمِعَ ٱلسَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ ٱلْمَاضِينَ فَلَا يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱنْتِقَالِهَا فَيُجْرِيهَا لِلْأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا يَشْهَدُ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ ٱلْغَلَطِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مَا يَتَوَهَّمُهُ ٱلْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ ٱلتَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ ٱلْقُضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَقَوْدِ ٱلْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ ٱلْوَهْمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ ٱلرُّتَبِ يَحْسِبُونَ أَنَّ ٱلشَّأْنَ فِي خِطَّةِ ٱلْقَضَاءِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ بِٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ حَاجِبِ هِشَامِ ٱلْمُسْتَنِدِ عَلَيْهِ وَٱبْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِإِشْبِيلِيَةَ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قُضَاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ ٱلْقُضَاةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا يَتَفَطَّنُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ ٱلْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ ٱلْعَوَائِدِ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي فَصْلِ ٱلْقَضَاءِ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ. وَٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ وَٱبْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ ٱلْعَرَبِ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا. وَكَانَ مَكَانُهُمْ

www.marefa.org

فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد. بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبيات من قبائل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب. وانظر خروجهم بالعساكر في الصوائف وتقليدهم عظائم الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغناء فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال إلى غير ما هي

وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبية من البربر فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر وزيهم للمذلة يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون بها الغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين في نيله. فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية في دولهم بالعدوة المغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر فقلما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره

تم المنقول من كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر
لابن خلدون

www.marefa.org

نُخَبٌ

مِنْ كِتَابِ نَفْحِ ٱلطِّيبِ مِنْ غُصْنِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلرَّطِيبِ

تَأْلِيفِ ٱلْعَلَّامَةِ ٱلْمَقْرِيِّ

فِي وَصْفِ جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ

فَأَقُولُ مَحَاسِنُ ٱلْأَنْدَلُسِ لَا تُسْتَوْفَى بِعِبَارَةٍ وَمَجَارِيهِ فَضْلِهَا لَا يَشُقُّ غُبَارُهُ وَأَنَّى تُجَارَى وَهِيَ ٱلْحَائِزَةُ قَصَبَ ٱلسَّبْقِ فِي أَقْطَارِ ٱلْغَرْبِ وَٱلشَّرْقِ. قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِٱلْأَنْدَلُسِ بْنِ طُوبَالَ بْنِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ لِأَنَّهُ نَزَلَهَا كَمَا أَنَّ أَخَاهُ سَبْتَ بْنَ يَافَثَ نَزَلَ ٱلْعُدْوَةَ ٱلْمُقَابِلَةَ لَهَا وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ سَبْتَةُ. قَالَ وَأَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ يُحَافِظُونَ عَلَى قِوَامِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ لِأَنَّهُمْ إِمَّا عَرَبٌ أَوْ مُعَرَّبُونَ ٱنْتَهَى. وَقَالَ ٱبْنُ غَالِبٍ إِنَّهُ أَنْدَلُسُ بْنُ يَافَثَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ خَصَّ ٱللَّهُ تَعَالَى بِلَادَ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلرَّبِيعِ وَغَدَقِ ٱلسُّقْيَا وَلَذَاذَةِ ٱلْأَقْوَاتِ وَنَزَاهَةِ ٱلْحَيَوَانِ وَدَوْرِ ٱلْفَوَاكِهِ وَكَثْرَةِ ٱلْمِيَاهِ وَتَبَحُّرِ ٱلْعِمْرَانِ وَجُودَةِ ٱللِّبَاسِ وَشَرَفِ ٱلْآنِيَةِ وَكَثْرَةِ ٱلسِّلَاحِ وَصِحَّةِ ٱلْهَوَاءِ وَٱبْيِضَاضِ أَلْوَانِ ٱلْإِنْسَانِ وَنُبْلِ ٱلْأَذْهَانِ وَفُنُونِ ٱلصَّنَائِعِ وَشَهَامَةِ ٱلطِّبَاعِ وَنُفُوذِ ٱلْإِدْرَاكِ وَأَحْكَامِ ٱلتَّمَدُّنِ وَٱلِٱعْتِنَاءِ بِمَا حُرِمَهُ ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ مِمَّا سِوَاهَا. ٱنْتَهَى

قَالَ أَبُو عَامِرٍ ٱلسُّلَمِيُّ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِدُرَرِ ٱلْقَلَائِدِ وَغُرَرِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلْأَنْدَلُسُ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلشَّامِيِّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْأَقَالِيمِ وَأَعْدَلُهَا هَوَاءً وَتُرَابًا وَأَعْذَبُهَا مَاءً وَأَطْيَبُهَا هَوَاءً وَحَيَوَانًا وَنَبَاتًا وَهُوَ أَوْسَطُ ٱلْأَقَالِيمِ وَخَيْرُ

www.marefa.org

ٱلْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا. ٱنْتَهَى

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلْبَكْرِيُّ ٱلْأَنْدَلُسُ شَامِيَّةٌ فِي طِيبِهَا وَهَوَائِهَا يَمَانِيَةٌ فِي ٱعْتِدَالِهَا وَٱسْتِوَائِهَا هِنْدِيَّةٌ فِي عِطْرِهَا وَذَكَائِهَا أَهْوَازِيَّةٌ فِي عِظَمِ جِبَايَتِهَا صِينِيَّةٌ فِي جَوَاهِرِ مَعَادِنِهَا عَدَنِيَّةٌ فِي مَنَافِعِ سَوَاحِلِهَا. فِيهَا آثَارٌ عَظِيمَةٌ لِلْيُونَانِيِّينَ أَهْلِ ٱلْحِكْمَةِ وَحَامِلِي ٱلْفَلْسَفَةِ. وَكَانَ مِنْ مُلُوكِهِمِ ٱلَّذِينَ آثَرُوا ٱلْآثَارَ بِٱلْأَنْدَلُسِ هِرَقْلُسُ وَلَهُ ٱلْأَثَرُ فِي ٱلصَّنَمِ بِجَزِيرَةِ قَادِسَ وَصَنَمِ جِلِّيقِيَّةَ وَٱلْأَثَرُ فِي مَدِينَةِ طَرْكُونَةَ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ

قَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ بِلَادُ ٱلْأَنْدَلُسِ تَكُونُ مَسِيرَةَ عَمَائِرِهَا وَمُدُنِهَا نَحْوَ شَهْرَيْنِ وَلَهُمْ مِنَ ٱلْمُدُنِ ٱلْمَوْصُوفَةِ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ مَدِينَةً ٱنْتَهَى بِٱخْتِصَارٍ وَنَحْوُهُ لِٱبْنِ ٱلْبَسَّامِ إِذْ قَالَ طُولُهَا مِنْ أَرْبُونَةَ إِلَى إِشْبُونَةَ وَهُوَ قَطْعُ سِتِّينَ يَوْمًا لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ وَٱنْتُقِدَ بِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ أَرْبُونَةَ دَاخِلَةٌ فِي جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلصَّحِيحُ أَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْهَا. وَٱلثَّانِي أَنَّ قَوْلَهُ سِتِّينَ يَوْمًا لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ إِغْيَاءٌ وَإِفْرَاطٌ وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ أَنَّهَا شَهْرٌ وَنِصْفٌ. قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَهٰذَا يَقْرُبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ وَٱلصَّحِيحُ مَا نَصَّ عَلَيْهِ ٱلشَّرِيفُ مِنْ أَنَّهَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَكَذَا قَالَ ٱلْحِجَارِيُّ وَقَدْ سَأَلْتُ ٱلْمُسَافِرِينَ ٱلْمُحَقِّقِينَ عَنْ ذٰلِكَ فَعَمِلُوا حِسَابًا بِٱلْمَرَاحِلِ ٱلْجَيِّدَةِ أَفْضَى إِلَى نَحْوِ شَهْرٍ بِنَيِّفٍ قَلِيلٍ

قَالَ ٱلْحِجَارِيُّ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ إِنَّ طُولَ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْحَاجِزِ إِلَى إِشْبُونَةَ أَلْفُ مِيلٍ وَنَيِّفٌ اه. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْمُرَادُ ٱلتَّقْرِيبُ مِنْ غَيْرِ مُشَاحَّةٍ كَمَا قَالَهُ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَأَطَالَ فِي ذٰلِكَ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ وَمَسَافَةُ

www.marefa.org

ٱلْحَاجِزِ ٱلَّذِي بَيْنَ بَحْرِ ٱلزُّقَاقِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ أَرْبَعُونَ مِيلًا وَهٰذَا عَرْضُ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ رَأْسِهَا مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَلِقِلَّتِهِ سُمِّيَتْ جَزِيرَةً وَإِلَّا فَلَيْسَتْ بِجَزِيرَةٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ لِٱتِّصَالِ هٰذَا ٱلْقَدْرِ بِٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ. وَعَرْضُ جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي مَوْسِطِهَا عِنْدَ طُلَيْطِلَةَ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا.....

قَالَ ٱلشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ ٱبْنِ مُوسَى ٱلرَّازِيُّ: بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ هُوَ آخِرُ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَهُوَ عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ بَلَدٌ كَرِيمُ ٱلْبُقْعَةِ طَيِّبُ ٱلتُّرْبَةِ خِصْبُ ٱلْجَنَابِ مُنْبَجِسُ ٱلْأَنْهَارِ ٱلْغِزَارِ وَٱلْعُيُونِ ٱلْعِذَابِ. قَلِيلُ ٱلْهَوَامِّ ذَوَاتِ ٱلسُّمُومِ. مُعْتَدِلُ ٱلْهَوَاءِ وَٱلْجَوِّ وَٱلنَّسِيمِ رَبِيعُهُ وَخَرِيفُهُ وَمَشْتَاهُ وَمَصِيفُهُ عَلَى قَدْرٍ مِنَ ٱلِٱعْتِدَالِ وُسْطَةٌ مِنَ ٱلْحَالِ لَا يَتَوَلَّدُ فِي أَحَدِهَا فَصْلٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ فِيمَا يَلُوهُ ٱنْتِقَاصٌ تَتَّصِلُ فَوَاكِهُهُ أَكْثَرَ ٱلْأَزْمِنَةِ وَتَدُومُ مُتَلَاحِقَةً غَيْرَ مَفْقُودَةٍ. أَمَّا ٱلسَّاحِلُ مِنْهُ وَنَوَاحِيهِ فَيُبَادِرُ بِإِكْوَارِهِ. وَأَمَّا ٱلثَّغْرُ وَجِهَاتُهُ وَٱلْجِبَالُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِبَرْدِ ٱلْهَوَاءِ فَيَتَأَخَّرُ بِٱلْكَثِيرِ مِنْ ثَمَرِهِ فَمَادَّةُ ٱلْخَيْرَاتِ بِٱلْبَلَدِ مُنَادِيَةٌ فِي كُلِّ ٱلْأَحْيَانِ وَفَوَاكِهُهُ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ غَيْرُ مَعْدُومَةٍ فِي كُلِّ أَوَانٍ. وَلَهُ خَوَاصُّ فِي كَرَمِ ٱلنَّبَاتِ تُوَافِقُ فِي بَعْضِهَا أَرْضَ ٱلْهِنْدِ ٱلْمَخْصُوصَةِ بِكَرَمِ ٱلنَّبَاتِ وَجَوَاهِرِ مِنْهَا أَنَّ ٱلْحُلْبَ وَهُوَ ٱلْمُقَدَّمُ فِي ٱلْأَفَاوِيهِ وَٱلْمُفَضَّلُ فِي أَنْوَاعِ ٱلْأُشْنَانِ لَا يَنْبُتُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِٱلْهِنْدِ وَٱلْأَنْدَلُسِ. وَلِلْأَنْدَلُسِ ٱلْمُدُنُ ٱلْحَصِينَةُ وَٱلْمَعَاقِلُ ٱلْمَنِيعَةُ وَٱلْقِلَاعُ ٱلْحَرِيزَةُ وَٱلْمَصَانِعُ ٱلْجَلِيلَةُ وَلَهَا ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ وَٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ وَشَكْلُهَا مُثَلَّثٌ

وَهِيَ مُعْتَمِدَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ ٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي فِيهِ صَنَمٌ قَادِسَ

www.marefa.org

ٱلْمَشْهُورُ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُ مَخْرَجُ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلشَّامِيِّ ٱلْآخِذِ بِقِبْلِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ. وَٱلرُّكْنُ ٱلثَّانِي هُوَ بِشَرْقِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ بَيْنَ مَدِينَةِ بَرْبُونَةَ وَمَدِينَةِ بَرْدِيلَ مِمَّا بِأَيْدِي ٱلْفَرَنْجَةِ ٱلْيَوْمَ بِإِزَاءِ جَزِيرَتَيْ مَيُورَقَةَ وَمَنُورَقَةَ بِمُجَاوَرَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ وَبَيْنَهُمَا ٱلْبَرُّ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْأَبْوَابِ وَهُوَ ٱلْمَدْخَلُ إِلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ عَلَى بَلَدِ أَفْرَنْجَةَ. وَمَسَافَتُهُ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ مَسِيرَةُ يَوْمَيْنِ وَمَدِينَةُ بَرْبُونَةَ تُقَابِلُ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ. وَٱلرُّكْنُ ٱلثَّالِثُ مِنْهَا هُوَ مَا بَيْنَ ٱلْجَوْفِ وَٱلْغَرْبِ مِنْ حَيِّزِ جِلِّيقِيَّةَ حَيْثُ ٱلْجَبَلُ ٱلْمُوفِي عَلَى ٱلْبَحْرِ. وَفِيهَا ٱلصَّنَمُ ٱلْعَالِي ٱلْمُشَبَّهُ بِصَنَمِ قَادِسَ وَهُوَ ٱلطَّالِعُ عَلَى بَلَدِ بَرْطَانِيَةَ

قَالَ وَٱلْأَنْدَلُسُ أَنْدَلُسَانِ فِي ٱخْتِلَافِ هُبُوبِ رِيَاحِهَا وَمَوَاقِعِ أَمْطَارِهَا وَجَرَيَانِ أَنْهَارِهَا أَنْدَلُسٌ غَرْبِيٌّ وَأَنْدَلُسٌ شَرْقِيٌّ. فَٱلْغَرْبِيُّ مِنْهَا مَا جَرَتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ ٱلْغَرْبِيِّ وَيُمْطَرُ بِٱلرِّيَاحِ ٱلْغَرْبِيَّةِ وَمُبْتَدَأُ هٰذَا ٱلْحَوْزِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْمَشْرِقِ مَعَ ٱلْمَفَازَةِ ٱلْخَارِجَةِ مَعَ ٱلْجَوْفِ إِلَى بَلَدِ شَنْتَمَرِيَةَ طَالِعًا إِلَى حَوْزِ إِغْرِيطَةَ ٱلْمُجَاوِرَةِ لِطُلَيْطُلَةَ مَائِلًا إِلَى ٱلْغَرْبِ وَمُجَاوِرًا لِلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلْمُوَازِي لِقِرْطَاجَنَّةَ ٱلْخُلْفَاءِ ٱلَّتِي مِنْ بَلَدِ لُورِقَةَ وَٱلْحَوْزُ ٱلشَّرْقِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْأَقْصَى وَتَجْرِي أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلشَّرْقِ وَإِمْطَارُهُ بِٱلرِّيحِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَهُوَ مِنْ حَدِّ جَبَلِ ٱلْبَشْكُنْشِ هَابِطًا مَعَ وَادِي إِبْرَةَ إِلَى بَلَدِ شِنْتَ مَرِيَةَ. وَمِنْ جَوْفِ هٰذَا وَغَرْبِيِّهِ ٱلْبَحْرُ ٱلْمُحِيطُ وَفِي ٱلْقِبْلَةِ مِنْهُ ٱلْبَحْرُ ٱلْغَرْبِيُّ ٱلَّذِي مِنْهُ يَجْرِي ٱلْبَحْرُ ٱلْمُتَوَسِّطُ ٱلْخَارِجُ إِلَى بَلَدِ ٱلشَّامِ وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلْمُسَمَّى بِبَحْرِ تِيرَانَ وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي يَشُقُّ دَائِرَةَ

www.marefa.org

ٱلْأَرْضِ وَيُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلْكَبِيرَ. ٱنْتَهَى

قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَكَمِ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱبْنِ ٱلنَّظَّامِ. بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ عُلَمَاءِ أَهْلِهِ أَنْدَلُسَانِ. فَٱلْأَنْدَلُسُ ٱلشَّرْقِيُّ مِنْهُ مَا صَبَّتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلْمُتَصَاعِدِ مِنْ أَسْفَلِ أَرْضِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَذٰلِكَ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ تَدْمِيرَ إِلَى سَرَقُسْطَةَ. وَٱلْأَنْدَلُسُ ٱلْغَرْبِيُّ مَا صَبَّتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْمُحِيطِ أَسْفَلَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْحَدِّ إِلَى سَاحِلِ ٱلْمَغْرِبِ. فَٱلشَّرْقِيُّ مِنْهُمَا يُمْطَرُ بِٱلرِّيحِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَيَصْلُحُ عَلَيْهَا وَٱلْغَرْبِيُّ يُمْطَرُ بِٱلرِّيحِ ٱلْغَرْبِيَّةِ وَبِهَا صَلَاحُهُ وَجِبَالُهُ هَابِطَةٌ إِلَى ٱلْغَرْبِ جَبَلًا بَعْدَ جَبَلٍ. وَإِنَّمَا قَسَمَتْهُ ٱلْأَوَائِلُ جُزْءَيْنِ لِٱخْتِلَافِهِمَا فِي حَالِ أَمْطَارِهِمَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَهْمَا ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلرِّيحُ ٱلْغَرْبِيَّةُ كَثُرَ مَطَرُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيِّ وَقَحِطَ ٱلْأَنْدَلُسُ ٱلشَّرْقِيُّ وَمَتَى ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلرِّيحُ ٱلشَّرْقِيَّةُ كَثُرَ مَطَرُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلشَّرْقِيِّ وَقَحِطَ ٱلْغَرْبِيُّ. وَأَوْدِيَةُ هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَجْرِي مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ. وَجِبَالُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيِّ تَمْتَدُّ إِلَى ٱلشَّرْقِ جَبَلًا بَعْدَ جَبَلٍ تَقْطَعُ مِنَ ٱلْجَوْفِ إِلَى ٱلْقِبْلَةِ وَٱلْأَوْدِيَةُ ٱلَّتِي تَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ ٱلْجِبَالِ بَعْضُهَا يَقْطَعُ إِلَى ٱلْقِبْلَةِ وَبَعْضُهَا إِلَى ٱلشَّرْقِ وَتَنْصَبُّ كُلُّهَا إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ بِٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْقَاطِعِ إِلَى ٱلشَّامِ وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ. وَمَا كَانَ مِنْ بِلَادِ جَوْفِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ بِلَادِ جِلِّيقِيَةَ وَمَا يَلِيهَا فَإِنَّ أَوْدِيَتَهُ تَنْصَبُّ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمُحِيطِ بِنَاحِيَةِ ٱلْجَوْفِ. وَصِفَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ شَكْلٌ مُرَكَّبٌ عَلَى مِثَالِ ٱلشَّكْلِ ٱلْمُثَلَّثِ. رُكْنُهَا ٱلْوَاحِدُ فِيمَا بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْمَغْرِبِ حَيْثُ ٱجْتِمَاعُ ٱلْبَحْرَيْنِ عِنْدَ صَمِ قَادِسَ. وَرُكْنُهَا ٱلثَّانِي فِي بَلَدِ جِلِّيقِيَةَ حَيْثُ ٱلصَّنَمُ

www.marefa.org

ٱلْمُشْبِهُ صَنَمَ قَادِسَ مُقَابِلَ جَزِيرَةِ بَرْطَانِيَةَ. وَرُكْنُهَا ٱلثَّالِثُ بَيْنَ مَدِينَةِ بَرْيُونَةَ وَمَدِينَةِ بَرْدِيلَ مِنْ بِلَادِ ٱلْفَرَنْجَةِ بِحَيْثُ يَقْرُبُ ٱلْبَحْرُ ٱلْمُحِيطُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلشَّامِيِّ ٱلْمُتَوَسِّطِ فَيَكَادَانِ يَجْتَمِعَانِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعِ فَيَصِيرُ بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ جَزِيرَةً بَيْنَهُمَا فِي ٱلْحَقِيقَةِ لَوْلَا أَنَّهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا بَرْزَخُ بَرِّيَّةٍ صَحْرَاءَ وَعِمَارَةٍ مَسَافَةَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ لِلرَّاكِبِ مِنْهُ ٱلْمَدْخَلُ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا ٱلْأَبْوَابُ وَمِنْ قُبُلِهِ يَتَّصِلُ بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِتِلْكَ ٱلْبِلَادِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ ذَاتِ ٱلْأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَمِيزَانُ وَصْفِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا جَزِيرَةٌ قَدْ أَحْدَقَتْ بِهَا ٱلْبِحَارُ فَأَكْثَرَتْ فِيهَا ٱلْخِصْبَ وَٱلْعِمَارَةَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. فَمَتَى سَافَرْتَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ لَا تَكَادُ تَنْقَطِعُ مِنَ ٱلْعِمَارَةِ مَا بَيْنَ قُرًى وَمِيَاهٍ وَمَزَارِعَ وَٱلصَّحَارِي فِيهَا مَعْدُومَةٌ. وَمِمَّا ٱخْتَصَّتْ بِهِ أَنَّ قُرَاهَا فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱلْجَمَالِ لِتَصَنُّعِ أَهْلِهَا فِي أَوْضَاعِهَا وَتَبْيِيضِهَا لِئَلَّا تَنْبُوَ ٱلْعُيُونُ عَنْهَا فَهِيَ كَمَا قَالَ ٱلْوَزِيرُ ٱبْنُ ٱلْحِمَارَةِ فِيهَا

لَاحَتْ قُرَاهَا بَيْنَ خُضْرَةِ أَيْكِهَا ... كَٱلدُّرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكْنُونِ

وَلَقَدْ تَعَجَّبْتُ لَمَّا دَخَلْتُ ٱلدِّيَارَ ٱلْمِصْرِيَّةَ مِنْ أَوْضَاعِ قُرَاهَا ٱلَّتِي تُكَدِّرُ ٱلْعَيْنَ بِسَوَادِهَا وَيَضِيقُ ٱلصَّدْرُ بِضِيقِ أَوْضَاعِهَا. وَفِي ٱلْأَنْدَلُسِ جِهَاتٌ تَقْرُبُ فِيهَا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلْمِصْرِيَّةُ مِنْ مِثْلِهَا. وَٱلْمِثَالُ فِي ذٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا تَوَجَّهْتَ مِنْ إِشْبِيلِيَةَ فَعَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَبَعْضِ آخَرَ مَدِينَةُ شَرِيشَ وَهِيَ فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلنَّضَارَةِ. ثُمَّ يَلِيهَا ٱلْجَزِيرَةُ ٱلْخَضْرَاءُ كَذٰلِكَ ثُمَّ مَالَقَةُ. وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ وَلِهٰذَا كَثُرَتْ مُدُنُهَا وَأَكْثَرُهَا مَسْرُورٌ مِنْ

www.marefa.org

أَجْلِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْعَدُوِّ فَحَصَلَ لَهَا بِذٰلِكَ التَّشْيِيدُ وَالتَّزْيِينُ وَفِي حُصُونِهَا مَا يَبْقَى فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ مَا يُنِيفُ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً لِامْتِنَاعِ مَعَاقِلِهَا وَدُرْبَةِ أَهْلِهَا عَلَى الْحَرْبِ وَاعْتِيَادِهِمْ لِمُجَاوَرَةِ الْعَدُوِّ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَكَثْرَةِ مَا تُخْزَنُ الْغَلَّةُ فِي مَطَامِيرِهَا. فَمِنْهَا مَا يَطُولُ صَبْرُ عَلَيْهَا نَحْوًا مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ. قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَلِذٰلِكَ أَدَامَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ وَقْتِ الْفَتْحِ إِلَى الْآنَ. وَإِنْ كَانَ الْعَدُوُّ قَدْ نَقَصَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَشَارَكَ فِي أَوْسَاطِهَا. فَفِي الْبَقِيَّةِ مَنَعَةٌ عَظِيمَةٌ فَأَرْضٌ بَقِيَ فِيهَا مِثْلُ إِشْبِيلِيَةَ وَغَرْنَاطَةَ وَمَالَقَةَ وَالْمِرْيَةِ وَمَا يَنْضَافُ إِلَى هٰذِهِ الْحَوَاضِرِ الْعَظِيمَةِ الْمُمَصَّرِ الرِّجَالُ فِيهَا قَوِيٌّ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ. انْتَهَى

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي إِشْبِيلِيَةَ إِنَّهَا قَاعِدَةُ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَحَاضِرَتُهَا وَمَدِينَةُ الْآدَابِ وَاللَّهْوِ وَالطَّرَبِ وَهِيَ عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ الْكَبِيرِ عَظِيمَةُ الشَّأْنِ طَيِّبَةُ الْمَكَانِ لَهَا الْبَرُّ الْمَدِيدُ وَالْبَحْرُ السَّاكِنُ وَالْوَادِي الْعَظِيمُ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى أَنْ قَالَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنَ الشَّرَفِ إِلَّا مَوْضِعُ الشَّرَفِ الْمُقَابِلُ الْمُطِلُّ عَلَيْهَا الْمَشْهُورُ بِالزَّيْتُونِ الْكَثِيرِ الْمُمْتَدِّ فَرَاسِخَ فِي فَرَاسِخَ لَكَفَى. وَبِهَا مَنَارَةٌ فِي جَامِعِهَا بَنَاهَا يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ لَيْسَ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ بِنَاءً مِنْهَا وَعَسَلُ الشَّرَفِ يَبْقَى حِينًا لَا يَتَرَمَّلُ وَلَا يَتَبَدَّلُ وَكَذٰلِكَ الزَّيْتُ وَالتِّينُ. وَقَالَ ابْنُ مُفْلِحٍ إِنَّ إِشْبِيلِيَةَ عَرُوسُ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ لِأَنَّ تَاجَهَا الشَّرَفُ وَفِي عُنُقِهَا سِمْطُ النَّهْرِ الْأَعْظَمِ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَتَمُّ حُسْنًا مِنْ هٰذَا النَّهْرِ يُضَاهِي دِجْلَةَ وَالْفُرَاتَ وَالنِّيلَ تَسِيرُ الْقَوَارِبُ فِيهِ لِلنُّزْهَةِ وَالسَّيْرِ وَالصَّيْدِ تَحْتَ ظِلَالِ الثِّمَارِ وَتَغْرِيدِ الْأَطْيَارِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ مِيلًا وَيَتَعَاطَى النَّاسُ السَّرْحَ مِنْ جَانِبَيْهِ عَشَرَةَ فَرَاسِخَ فِي

www.marefa.org

عِمَارَةٍ مُتَّصِلَةٍ وَمَنَارَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ وَأَبْرَاجٍ مُشَيَّدَةٍ وَفِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ السَّمَكِ مَا لَا يُحْصَى. وَبِالْجُمْلَةِ فَهِيَ قَدْ حَازَتِ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ وَالزَّرْعَ وَالضَّرْعَ وَكَثْرَةَ الثِّمَارِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَقَصَبَ السُّكَّرِ وَيُجْمَعُ مِنْهَا الْفِرْمِزُ الَّذِي هُوَ أَجَلُّ مِنَ اللِّكِّ الْهِنْدِيِّ وَزَيْتُونُهَا يُخْزَنُ تَحْتَ الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً. ثُمَّ يُعْتَصَرُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَكْثَرُ مِمَّا يَخْرُجُ مِنْهُ وَهُوَ طَرِيٌّ. انْتَهَى مُلَخَّصًا

وَلَمَّا ذَكَرَ ابْنُ الْيَسَعِ الْأَنْدَلُسَ قَالَ لَا يَتَزَوَّدُ فِيهَا أَحَدٌ مَا حَيْثُ سَلَكَ لِكَثْرَةِ أَنْهَارِهَا وَعُيُونِهَا وَرُبَّمَا لَقِيَ الْمُسَافِرُ فِيهَا فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَدَائِنَ وَمِنَ الْمَعَاقِلِ وَالْقُرَى مَا لَا يُحْصَى وَهِيَ بِطَاحٌ خُضْرٌ وَقُصُورٌ بِيضٌ. قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَأَنَا أَقُولُ كَلَامًا فِيهِ كِفَايَةٌ مُنْذُ خَرَجْتُ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ وَطُفْتُ فِي بَرِّ الْعُدْوَةِ وَرَأَيْتُ مُدُنَهَا الْعَظِيمَةَ كَمَرَاكِشَ وَفَاسَ وَسَلَا وَسَبْتَةَ. ثُمَّ طُفْتُ فِي أَفْرِيقِيَّةَ وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ فَرَأَيْتُ بِجَايَةَ وَتُونُسَ. ثُمَّ دَخَلْتُ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ فَرَأَيْتُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَالْقَاهِرَةَ وَالْفُسْطَاطَ. ثُمَّ دَخَلْتُ الشَّامَ فَرَأَيْتُ دِمَشْقَ وَحَلَبَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمْ أَرَ مَا يُشْبِهُ رَوْنَقَ الْأَنْدَلُسِ فِي مِيَاهِهَا وَأَشْجَارِهَا إِلَّا مَدِينَةَ فَاسَ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَمَدِينَةَ دِمَشْقَ بِالشَّامِ وَفِي حَمَاةَ مَسْحَةٌ أَنْدَلُسِيَّةٌ وَلَمْ أَرَ مَا يُشْبِهُهَا فِي حُسْنِ الْمَبَانِي وَالتَّشْيِيدِ وَالتَّصْنِيعِ إِلَّا مَا شُيِّدَ بِمَرَاكِشَ فِي دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَبَعْضِ الْأَمَاكِنِ فِي تُونُسَ. وَإِنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى تُونُسَ الْبِنَاءَ بِالْحِجَارَةِ كَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَلَكِنَّ الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ أَفْسَحُ شَوَارِعَ وَأَبْسَطُ وَأَبْدَعُ وَمَبَانِي حَلَبَ دَاخِلَةٌ فِيمَا يُسْتَحْسَنُ لِأَنَّهَا مِنْ حِجَارَةٍ صُلْبَةٍ وَفِي وَضْعِهَا وَتَرْتِيبِهَا إِتْقَانٌ. انْتَهَى. وَمِنْ أَحْسَنِ مَا جَاءَ مِنَ النَّظْمِ فِي الْأَنْدَلُسِ قَوْلُ ابْنِ سَفَرٍ

www.marefa.org

لِمَرِيضِ وَٱلْإِحْسَانُ لَهُ عَادَةٌ

فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ تَلَذُّ نَعْمَاءُ ... وَلَا يُفَارِقُ فِيهَا ٱلْقَلْبَ سَرَّاءُ
وَلَيْسَ فِي غَيْرِهَا بِٱلْعَيْشِ مُنْتَفَعٌ ... وَلَا تَقُومُ بِحَقِّ ٱلْأُنْسِ صَهْبَاءُ
وَأَيْنَ يَعْدِلُ عَنْ أَرْضٍ تَحُفُّ بِهَا ... عَلَى ٱلْمُدَامَةِ أَمْوَاهٌ وَأَفْيَاءُ
وَكَيْفَ لَا يُبْهِجُ ٱلْأَبْصَارَ رَوْنَقُهَا ... وَكُلُّ رَوْضٍ بِهَا فِي ٱلْوَشْيِ صَنْعَاءُ
أَنْهَارُهَا فِضَّةٌ وَٱلْمِسْكُ تُرْبَتُهَا ... وَٱلْخَزُّ رَوْضَتُهَا وَٱلدُّرُّ حَصْبَاءُ
وَلِلْهَوَاءِ بِهَا لُطْفٌ يَرِقُّ بِهِ ... مَنْ لَا يَرِقُّ وَتَبْدُو مِنْهُ أَهْوَاءُ
لَيْسَ ٱلنَّسِيمُ ٱلَّذِي يَهْفُو بِهَا سَحَرًا ... وَلَا ٱنْتِشَارُ لَآلِي ٱلطَّلِّ أَنْدَاءُ
وَإِنَّمَا أَرَجُ ٱلنَّدِّ ٱسْتَعَارَ بِهَا ... فِي مَاءِ وَرْدٍ فَطَابَتْ مِنْهُ أَرْجَاءُ
وَأَيْنَ يَبْلُغُ مِنْهَا مَا أُصَنِّفُهُ ... وَكَيْفَ يَحْوِي ٱلَّذِي حَازَتْهُ إِحْصَاءُ
قَدْ مُيِّزَتْ مِنْ جِهَاتِ ٱلْأَرْضِ حِينَ بَدَتْ ... فَرِيدَةً وَتَوَلَّى مِيزَهَا ٱلْمَاءُ
دَارَتْ عَلَيْهَا نِطَاقًا أَبْحُرٌ خَفَقَتْ ... وَجْدًا بِهَا إِذْ تَبَدَّتْ وَهْيَ حَسْنَاءُ
لِذَاكَ يَبْسِمُ فِيهَا ٱلزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ ... وَٱلطَّيْرُ يَشْدُو وَلِلْأَغْصَانِ إِصْغَاءُ
فِيهَا خَلَعْتُ عِذَارِي مَا بِهَا عِوَضٌ ... فَهْيَ ٱلرِّيَاضُ وَكُلُّ ٱلْأَرْضِ صَحْرَاءُ

وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱبْنِ خَفَاجَةَ حَيْثُ يَقُولُ

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ ... مُجْتَلَى مَرْأًى وَرَيَّا نَفَسِ
فَسَنَى صُبْحَتِهَا مِنْ شَنَبٍ ... وَدُجَى ظُلْمَتِهَا مِنْ لَعَسِ
فَإِذَا مَا هَبَّتِ ٱلرِّيحُ صَبَا ... صِحْتُ وَاشَوْقِي إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ. قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ قَالَ ٱبْنُ خَفَاجَةَ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ وَهُوَ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى فِي بَرِّ ٱلْعُدْوَةِ وَمَنْزِلُهُ فِي شَرْقِ

www.marefa.org

ٱلْأَنْدَلُسِ بِجَزِيرَةِ شَقْرٍ. وَقَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ فِي ٱلْمُغْرِبِ مَا نَصُّهُ قَوَاعِدُ مِنْ كِتَابِ ٱلشُّهُبِ ٱلثَّاقِبَةِ فِي ٱلْإِنْصَافِ بَيْنَ ٱلْمَشَارِقَةِ وَٱلْمَغَارِبَةِ أَوَّلُ مَا نَقَدَّمَ ٱلْكَلَامُ عَلَى قَاعِدَةِ ٱلسَّلْطَنَةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَنَقُولُ إِنَّهَا مَعَ مَا بِأَيْدِي عُبَّادِ ٱلصَّلِيبِ مِنْهَا أَعْظَمُ سَلْطَنَةٍ كَثُرَتْ مَمَالِكُهَا وَتَشَعَّبَتْ فِي وُجُوهِ ٱلِٱسْتِظْهَارِ لِلسُّلْطَانِ إِعَانَتُهَا وَنَدَعُ كَلَامَنَا فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَنَنْقُلُ مَا قَالَهُ ٱبْنُ حَوْقَلٍ ٱلنَّصِيبِيُّ فِي كِتَابِهِ لَمَّا دَخَلَهَا فِي مُدَّةِ خِلَافَةِ بَنِي مَرْوَانَ بِهَا فِي ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا وَصَفَهَا قَالَ وَأَمَّا جَزِيرَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَجَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ طُولُهَا دُونَ ٱلشَّهْرِ فِي عَرْضِ نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ مَرْحَلَةً تَغْلِبُ عَلَيْهَا ٱلْمِيَاهُ ٱلْجَارِيَةُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلثَّمَرُ وَٱلرُّخْصُ وَٱلسَّعَةُ فِي ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلرَّفِيقِ ٱلْفَاخِرِ وَٱلْخِصْبِ ٱلظَّاهِرِ إِلَى أَسْبَابِ ٱلتَّمَلُّكِ ٱلْفَاشِيَةِ فِيهَا وَلِمَا هِيَ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ رَغَدِ ٱلْعَيْشِ وَسَعَتِهِ وَكَثْرَتِهِ يَمْلِكُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ مِهْنَتُهُمْ وَأَرْبَابُ صَنَائِعِهِمْ لِقِلَّةِ مَؤُونَتِهِمْ وَصَلَاحِ بِلَادِهِمْ. ثُمَّ أَخَذَ فِي عِظَمِ سُلْطَانِهَا وَوَصْفِ وُفُورِ جِبَايَاتِهِ وَعِظَمِ مَرَافِقِهِ

وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ ذٰلِكَ وَمِمَّا يُدَلُّ بِٱلْقَلِيلِ مِنْهُ عَلَى كَثِيرِهِ أَنَّ سِكَّةَ دَارِ ضَرْبِهِ عَلَى ٱلدَّرَاهِمِ وَٱلدَّنَانِيرِ دَخْلُهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ وَصَرْفُ ٱلدِّينَارِ سَبْعَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا هٰذَا إِلَى صَدَقَاتِ ٱلْبَلَدِ وَجِبَايَاتِهِ وَخَرَاجَاتِهِ وَأَعْشَارِهِ وَضَمَانَاتِهِ وَٱلْأَمْوَالِ ٱلْمَرْسُومَةِ عَلَى ٱلْمَرَاكِبِ ٱلْوَارِدَةِ وَٱلصَّادِرَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَذَكَرَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ إِنَّ جِبَايَةَ ٱلْأَنْدَلُسِ بَلَغَتْ فِي مُدَّةِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلنَّاصِرِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفًا مِنَ ٱلسُّوقِ وَٱلْمُسْتَخْلَصُ سَبْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُّونَ أَلْفَ دِينَارٍ

www.marefa.org

ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ حَوْقَلٍ. وَمِنْ أَعْجَبِ مَا فِي هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ بَقَاؤُهَا عَلَى مَنْ هِيَ فِي يَدِهِ مَعَ صِغَرِ أَحْلَامِ أَهْلِهَا وَضَعَةِ نُفُوسِهِمْ وَنَقْصِ عُقُولِهِمْ وَبُعْدِهِمْ مِنَ ٱلْبَأْسِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفُرُوسِيَّةِ وَٱلْبَسَالَةِ وَلِقَاءِ ٱلرِّجَالِ وَمَرَاسِ ٱلْأَنْجَادِ وَٱلْأَبْطَالِ مَعَ عِلْمِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمَحَلِّهَا فِي نَفْسِهَا وَمِقْدَارِ جِبَايَاتِهَا وَمَوَاقِعِ نِعَمِهَا وَلَذَّاتِهَا

قَالَ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ مُكَمِّلُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ. لَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ إِثْبَاتِ هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَهْلِ بَلَدِي فِيهِ مِنَ ٱلظُّلْمِ وَٱلتَّعَصُّبِ مَا لَا يَخْفَى وَلِسَانُ ٱلْحَالِ فِي ٱلرَّدِّ أَنْطَقُ مِنْ لِسَانِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَلَيْتَ شِعْرِي إِذْ سُلِبَ أَهْلُ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْعُقُولَ وَٱلْآرَاءَ وَٱلْهِمَمَ وَٱلشَّجَاعَةَ. فَمَنِ ٱلَّذِينَ دَبَّرُوهَا بِآرَائِهِمْ وَعُقُولِهِمْ مَعَ مُرَاصَدَةِ أَعْدَائِهَا ٱلْمُجَاوِرِينَ لَهَا مِنْ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَنَيِّفٍ وَمَنِ ٱلَّذِينَ حَمَوْهَا بِسَالَتِهِمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُتَّصِلَةِ بِهِمْ فِي دَاخِلِهَا وَخَارِجِهَا نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي نُصْرَةِ ٱلصَّلِيبِ وَإِنِّي لَأَتَعَجَّبُ مِنْهُ إِذْ كَانَ فِي زَمَانٍ قَدْ دَلَفَتْ فِيهِ عُبَّادُ ٱلصَّلِيبِ إِلَى ٱلشَّامِ وَٱلْجَزِيرَةِ وَعَاثُوا كُلَّ ٱلْعَيْثِ فِي بِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ حَيْثُ ٱلْجُمْهُورُ وَٱلْقُبَّةُ ٱلْعُظْمَى حَتَّى أَنَّهُمْ دَخَلُوا مَدِينَةَ حَلَبَ وَمَا أَدْرَاكَ وَفَعَلُوا فِيهَا مَا فَعَلُوا وَبِلَادُ ٱلْإِسْلَامِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا هُوَ مَسْطُورٌ فِي كُتُبِ ٱلتَّوَارِيخِ وَمِنْ أَعْظَمِ ذٰلِكَ وَأَشَدِّهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَغَلَّبُونَ عَلَى ٱلْحِصْنِ مِنْ حُصُونِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلَّتِي يَتَمَكَّنُونَ بِهَا مِنْ بَسَائِطِ بِلَادِهِمْ فَيَسْبُونَ وَيَأْسِرُونَ فَلَا تَجْتَمِعُ هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْمُجَاوِرَةِ عَلَى حَسْمِ ٱلدَّاءِ فِي ذٰلِكَ. وَقَدْ يَسْتَعِينُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَتَمَكَّنُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلدَّاءِ ٱلَّذِي لَا يُطَبُّ. وَقَدْ كَانَتْ

www.marefa.org

جَزِيرَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ بِٱلضِّدِّ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي تَرَكَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَذٰلِكَ مَوْجُودٌ فِي تَارِيخِ ٱبْنِ حَيَّانَ وَغَيْرِهِ

فِي إِلْقَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِلْمُسْلِمِينَ بِٱلْقِيَادِ وَفَتْحِهَا عَلَى يَدِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ وَمَوْلَاهُ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ

قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ بَعْدَ ذِكْرِهِ أَنَّ ٱلْقُوطِيِّينَ كَانَ لَهُمْ مُلْكُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَأَنَّ مَلِكَهُمْ لِعَهْدِ ٱلْفَتْحِ يُسَمَّى لُذْرِيقَ مَا نَصُّهُ وَكَانَتْ لَهُمْ خُطْوَةٌ وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ فِي هٰذِهِ ٱلْعُدْوَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ خَطَوْهَا مِنْ فُرْضَةِ ٱلْجَازِ بِطَنْجَةَ وَمِنْ زُقَاقِ ٱلْبَحْرِ إِلَى بِلَادِ ٱلْبَرْبَرِ وَٱسْتَعْبَدُوهُمْ. وَكَانَ مَلِكُ ٱلْبَرْبَرِ بِذٰلِكَ ٱلْقُطْرِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْيَوْمَ جِبَالُ غُمَارَةٍ يُسَمَّى يَلْيَانَ فَكَانَ يَدِينُ بِطَاعَتِهِمْ وَبِمِلَّتِهِمْ وَمُوسَى بْنُ نَصِيرٍ أَمِيرُ ٱلْعَرَبِ إِذْ ذَاكَ عَامِلٌ عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ مِنْ قِبَلِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَمَنْزِلُهُ بِٱلْقَيْرَوَانِ. وَكَانَ قَدْ أَغْزَى لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ عَسَاكِرَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِلَادَ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَدَوَّخَ أَقْطَارَهُ وَأَثْخَنَ فِي جِبَالِ طَنْجَةَ هٰذِهِ حَتَّى وَصَلَ خَلِيجَ ٱلزُّقَاقِ وَٱسْتَنْزَلَ يَلْيَانَ لِطَاعَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَخَلَّفَ مَوْلَاهُ طَارِقَ بْنَ زِيَادٍ ٱللَّيْثِيَّ وَالِيًا بِطَنْجَةَ. وَكَانَ يَلْيَانُ يَنْقَمُ عَلَى لُذْرِيقَ [1]

---

(١) ان لذريق (اي رودريق) اخر ملوك الويزيقوطي في اسبانيا كان ولد دوكا قرطبة الذي امر بقلع اعينه فينيسا الملك الويزقوطي. فنهض رودريق المشار اليه ضده وحاربه فترع منه التاج الملوكي (سنة ٧١٠ مسيحية) غير ان اولاد الملك واقاربه استغاثوا بالعرب فاتوا لنجدتهم واما مهم طارق فاستولى على البوغاز المعروف باسمه وهو بوغاز جبل طارق. فسار اليه رودريق بجيوشه وكانت نحو ٤٠ الف مقاتل فتحارب الجيشان مدة تسعة ايام في كيريس فقتل رودريق في اليوم الثالث (سنة ٧١١). هذا ومن القبل الشايع ان الكونت يليان (اي جوليانوس) قد استغاث بالعرب لينتقم من اهانة الحقت بابنته (بوللير)

www.marefa.org

مَلِكِ ٱلْقُوطِ لِعَهْدِهِ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَعَلَهَا زَعَمُوا بِٱبْنَتِهِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دَارِهِ فَغَضِبَ لِذٰلِكَ وَأَجَازَ إِلَى لُذْرِيقَ وَأَخَذَ ٱبْنَتَهُ مِنْهُ . ثُمَّ لَحِقَ بِطَارِقٍ فَكَشَفَ لِلْعَرَبِ عَوْرَةَ ٱلْقُوطِ وَدَلَّهُمْ عَلَى عَوْرَةٍ فِيهِمْ أَمْكَنَتْ طَارِقًا فِيهَا ٱلْفُرْصَةُ فَٱنْتَهَزَهَا لِوَقْتِهِ وَأَجَازَ ٱلْبَحْرَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ بِإِذْنِ أَمِيرِهِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ فِي نَحْوِ ثَلٰثِمِائَةٍ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱحْتَشَدَ مَعَهُمْ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ زُهَاءَ عَشَرَةِ آلَافٍ فَصَيَّرَهُمَا عَسْكَرَيْنِ أَحَدُهُمَا عَلَى نَفْسِهِ وَنَزَلَ بِهِ جَبَلَ ٱلْفَتْحِ فَسُمِّيَ جَبَلَ طَارِقٍ بِهِ وَٱلْآخَرُ عَلَى طَرِيفِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْمَعَافِرِيِّ وَنَزَلَ بِمَكَانِ مَدِينَةِ طَرِيفٍ فَسُمِّيَ بِهِ وَأَدَارُوا ٱلْأَسْوَارَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِلتَّحَصُّنِ . وَبَلَغَ ٱلْخَبَرُ إِلَى لُذْرِيقَ وَنَهَضَ إِلَيْهِمْ بِجَمِّ أُمَمِ ٱلْأَعَاجِمِ وَأَهْلِ مِلَّةِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ فِي زُهَاءِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا وَزَحَفُوا إِلَيْهِ فَٱلْتَقَوْا بِفَحْصِ شَرِيشَ فَهَزَمَهُ ٱللّٰهُ وَنَفَّلَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَرِقَابَهُمْ

وَكَتَبَ طَارِقٌ إِلَى مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ بِٱلْفَتْحِ وَبِٱلْغَنَائِمِ فَحَرَّكَتْهُ ٱلْغَيْرَةُ وَكَتَبَ إِلَى طَارِقٍ يَتَوَعَّدُهُ إِنْ تَوَغَّلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَيَأْمُرُهُ أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ مَكَانَهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ وَٱسْتَخْلَفَ عَلَى ٱلْقَيْرَوَانِ وَلَدَهُ عَبْدَ ٱللّٰهِ وَخَرَجَ وَمَعَهُ حَبِيبُ بْنُ مُنَبِّهٍ ٱلْفِهْرِيُّ وَنَهَضَ مِنَ ٱلْقَيْرَوَانِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ فِي عَسْكَرٍ ضَخْمٍ مِنْ وُجُوهِ ٱلْعَرَبِ ٱلْمَوَالِي وَعُرَفَاءِ ٱلْبَرْبَرِ وَوَافَى خَلِيجَ ٱلزُّقَاقِ مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ. فَأَجَازَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ وَتَلَقَّاهُ طَارِقٌ فَٱنْقَادَ وَٱتَّبَعَ وَأَتَمَّ مُوسَى ٱلْفَتْحَ وَتَوَغَّلَ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى بَرْشَلُونَةَ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَأَرْبُونَةَ فِي ٱلْجَوْفِ وَصَمَ قَادِسَ فِي ٱلْغَرْبِ وَدَوَّخَ أَقْطَارَهَا وَجَمَعَ غَنَائِمَهَا . وَأَجْمَعَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلْمَشْرِقَ مِنْ نَاحِيَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَتَجَاوَزَ إِلَى

www.marefa.org

ٱلشَّامِ دُرُوبَهُ وَدُرُوبَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَيَخُوضَ إِلَيْهِ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ أُمَمِ ٱلْأَعَاجِمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ مُجَاهِدًا فِيهِمْ مُسْتَلْحِمًا لَهُمْ إِلَى أَنْ يَلْحَقَ بِدَارِ ٱلْخِلَافَةِ

وَنَمَا ٱلْخَبَرُ إِلَى ٱلْوَلِيدِ فَٱشْتَدَّ قَلَقُهُ بِمَكَانِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ دَارِ ٱلْحَرْبِ وَرَأَى أَنَّ مَا هَمَّ بِهِ مُوسَى غَرَرٌ بِٱلْمُسْلِمِينَ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِٱلتَّوْبِيخِ وَٱلِٱنْصِرَافِ وَأَسَرَّ إِلَى سَفِيرِهِ أَنْ يَرْجِعَ بِٱلْمُسْلِمِينَ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ وَكَتَبَ لَهُ بِذٰلِكَ عَهْدَهُ فَفَتَّ ذٰلِكَ فِي عَزْمِ مُوسَى وَفَلَّ عَنِ ٱلْأَنْدَلُسِ بَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ ٱلرَّابِطَةَ وَٱلْحَامِيَةَ بِثُغُورِهَا وَأَنْزَلَ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱلْعَزِيزِ لِسَدِّهَا وَجِهَادِ عَدُوِّهَا وَأَنْزَلَهُ بِقُرْطُبَةَ فَٱتَّخَذَهَا دَارَ إِمَارَةٍ وَٱحْتَلَّ مُوسَى بِٱلْقَيْرَوَانِ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَٱرْتَحَلَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ سَنَةَ سِتٍّ بَعْدَهَا بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ ٱلْغَنَائِمِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَمْوَالِ عَلَى ٱلْعَجَلِ وَٱلظَّهْرِ يُقَالُ إِنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ ٱلسَّبْيِ

وَوَلَّى مُوسَى عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱللّٰهِ وَقَدِمَ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فَسَخِطَهُ وَنَكَبَهُ وَثَارَتْ عَسَاكِرُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِٱبْنِهِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ بِإِغْرَاءِ سُلَيْمَانَ فَقَتَلُوهُ لِسَنَتَيْنِ مِنْ وِلَايَتِهِ . وَكَانَ خَيِّرًا فَاضِلًا وَٱفْتَتَحَ فِي وِلَايَتِهِ مَدَائِنَ كَثِيرَةً وَوَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ أَيُّوبُ بْنُ حَبِيبٍ ٱللَّخْمِيُّ وَهُوَ ٱبْنُ أُخْتِ

---

(١) موسى بن نصير قائد جيوش الخليفة الوليد الاول اقامه مولاه ملكا على افريقية في ٧٠٥ فاستجده الكونت جوليانوس في ٧١٠ فارسل مولاه طارقا فاخذ من الويزقوط اكثر ولاياتهم . ثم دخل البلاد فافتتحها وقطع جبال بيرانى وتقدم الى فرنسا حتى ابواب كاركاسونا فطلبه الوليد الى دمشق في ٧١٥ بصفة كونه قد اذنب بتعديه على مولاه طارق لحسده له فحكم عليه بدفع ٢٠٠,٠٠٠ دوكا ذهب اي نحو مليوني فرنك وضُرب بالعصي ثم نفي الى مكة فتوفي في ٧١٨ (بوللبن)

www.marefa.org

مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ فَوَلِيَ عَلَيْهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ

ثُمَّ تَتَابَعَتْ وُلَاةُ الْعَرَبِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ تَارَةً مِنْ قِبَلِ الْخَلِيفَةِ وَتَارَةً مِنْ قِبَلِ عَامِلِهِ بِالْقَيْرَوَانِ وَأَنْخَنُوا فِي أُمَمِ النَّصَارَى وَافْتَتَحَ بَرْشَلُونَةَ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَحُصُونَ قَشْتَالَةَ وَبَسَائِطَهَا مِنْ جِهَةِ الْجَوْفِ وَانْقَرَضَتْ أُمَمُ الْقُوطِ وَأَوَى الْجَلَالِقَةُ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ أُمَمِ الْعَجَمِ إِلَى جِبَالِ قَشْتَالَةَ وَلَرْبُونَةَ وَأَقْوَاهِ الدُّرُوبِ فَتَحَصَّنُوا بِهَا وَأَجَازَتْ عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ مَا وَرَاءَ بَرْشَلُونَةَ مِنْ دُرُوبِ الْجَزِيرَةِ حَتَّى احْتَلُّوا الْبَسَائِطَ وَرَاءَهَا وَتَوَغَّلُوا فِي بِلَادِ الْفَرَنْجَةِ وَعَصَفَتْ رِيحُ الْإِسْلَامِ بِأُمَمِ النَّصَارَى مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَرُبَّمَا كَانَ بَيْنَ جُنُودِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعَرَبِ اخْتِلَافٌ وَتَنَازُعٌ أَوْجَدَ لِلْعَدُوِّ بَعْضَ الْكَرَّةِ فَرَجَعَ الْإِفْرَنْجُ مَا كَانُوا غَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِ بَرْشَلُونَةَ لِعَهْدِ ثَمَانِينَ سَنَةً مِنْ لَدُنْ فَتْحِهَا وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ

انتهى المنقول
من كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
للعلامة المقري

www.marefa.org

مِنْ كِتَابِ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْإِعْتِبَارِ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمُعَايَنَةِ بِأَرْضِ مِصْرَ

لِأَبِي ٱللَّطِيفِ

ٱلْمَقَالَةُ ٱلْأُولَى وَهِيَ سِتَّةُ فُصُولٍ

ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

فِي خَوَاصِّ مِصْرَ ٱلْعَامَّةِ لَهَا

إِنَّ أَرْضَ مِصْرَ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلْآثَارِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَهِيَ وَادٍ يَكْتَنِفُهُ جَبَلَانِ شَرْقِيٌّ وَغَرْبِيٌّ وَٱلشَّرْقِيُّ أَعْظَمُهُمَا يَبْتَدِئَانِ مِنْ أُسْوَانَ وَيَتَقَارَبَانِ بِأَسْنَا حَتَّى يَكَادَانِ يَتَمَاسَّانِ. ثُمَّ يَنْفَرِجَانِ قَلِيلًا قَلِيلًا وَكُلَّمَا ٱمْتَدَّا طُولًا ٱنْفَرَجَا عَرْضًا حَتَّى إِذَا أَزْيَا ٱلْفُسْطَاطَ كَانَ بَيْنَهُمَا مَسَافَةُ يَوْمٍ فَمَا دُونَهُ. ثُمَّ يَتَبَاعَدَانِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلنِّيلُ يَنْسَابُ بَيْنَهُمَا وَيَتَشَعَّبُ بِأَسَافِلِ ٱلْأَرْضِ وَجَمِيعُ شُعَبِهِ تَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمِلْحِ

وَهٰذَا ٱلنِّيلُ لَهُ خَاصَّتَانِ ٱلْأُولَى بُعْدُ مَرْمَاهُ فَإِنَّا لَا نَعْلَمُ فِي ٱلْمَعْمُورَةِ نَهْرًا أَبْعَدَ مَسَافَةً مِنْهُ لِأَنَّ مَبَادِئَهُ عُيُونٌ تَأْتِي مِنْ جَبَلِ ٱلْقَمَرِ وَزَعَمُوا أَنَّ هٰذَا ٱلْجَبَلَ وَرَاءَ خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ بِإِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً. وَعَرْضُ أُسْوَانَ وَهِيَ مَبْدَأُ أَرْضِ مِصْرَ ٱثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَنِصْفُ دَرَجَةٍ وَعَرْضُ دِمْيَاطَ وَهِيَ أَقْصَى أَرْضِ مِصْرَ إِحْدَى وَثَلٰثُونَ دَرَجَةً وَثُلُثُ دَرَجَةٍ. فَتَكُونُ مَسَافَةُ ٱلنِّيلِ عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ ثَلٰثًا وَأَرْبَعِينَ دَرَجَةً تَنْقُصُ سُدُسًا وَمِسَاحَةُ ذٰلِكَ تَقْرِيبًا تِسْعُ مِائَةِ فَرْسَخٍ هٰذَا سِوَى مَا يُؤْخَذُ مِنَ ٱلتَّعْرِيجِ وَٱلتَّوْرِيبِ فَإِنِ ٱعْتُبِرَ ذٰلِكَ تَضَاعَفَتِ ٱلْمِسَاحَةُ جِدًّا

www.marefa.org

وَٱلْخَاصَّةُ ٱلثَّانِيَةُ أَنَّهُ يَزِيدُ عِنْدَ نُضُوبِ سَائِرِ ٱلْأَنْهَارِ وَنَشِيشِ ٱلْمِيَاهِ لِأَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِٱلزِّيَادَةِ عِنْدَ ٱنْتِهَاءِ طُولِ ٱلنَّهَارِ وَتَتَنَاهَى زِيَادَتُهُ عِنْدَ ٱلِٱعْتِدَالِ ٱلْخَرِيفِيِّ وَحِينَئِذٍ تُفْتَحُ ٱلتُّرَعُ وَتَفِيضُ عَلَى ٱلْأَرَاضِي وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ مَوَادَّ زِيَادَتِهِ أَمْطَارٌ غَزِيرَةٌ دَائِمَةٌ وَسُيُولٌ مُتَوَاصِلَةٌ تَمُدُّهُ فِي هٰذَا ٱلْأَوَانِ. فَإِنَّ أَمْطَارَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي إِنَّمَا تَغْزُرُ فِي ٱلصَّيْفِ وَٱلْقَيْظِ

وَأَمَّا أَرْضُ مِصْرَ فَلَهَا أَيْضًا خَوَاصُّ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَقَعُ بِهَا مَطَرٌ إِلَّا مَا لَا ٱحْتِفَالَ بِهِ وَخُصُوصًا صَعِيدُهَا. فَأَمَّا أَسَافِلُهَا فَقَدْ يَقَعُ بِهَا مَطَرٌ جَوْدٌ لٰكِنَّهُ لَا يَفِي بِحَاجَةِ ٱلزِّرَاعَةِ. وَأَمَّا دِمْيَاطُ وَٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَمَا دَانَاهُمَا فَهِيَ غَزِيرَةُ ٱلْمَطَرِ وَمِنْهُ يَشْرَبُونَ وَلَيْسَ بِأَرْضِ مِصْرَ عَيْنٌ وَلَا نَهْرٌ سِوَى نِيلِهَا

وَمِنْهَا أَنَّ أَرْضَهَا رَمْلِيَّةٌ لَا تَصْلُحُ لِلزِّرَاعَةِ لٰكِنَّهُ يَأْتِيهَا طِينٌ أَسْوَدُ عَلَيْكَ فِيهِ دُسُومَةٌ كَثِيرَةٌ يُسَمَّى ٱلْإِلِيزَ يَأْتِيهَا مِنْ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ مُخْتَلِطًا بِمَاءِ ٱلنِّيلِ عِنْدَ مَدِّهِ فَيَسْتَقِرُّ ٱلطِّينُ وَيَنْضُبُ ٱلْمَاءُ فَيُحْرَثُ وَيُزْرَعُ وَكُلَّ سَنَةٍ يَأْتِيهَا طِينٌ جَدِيدٌ وَلِهٰذَا يُزْرَعُ جَمِيعُ أَرَاضِيهَا وَلَا يُرَاحُ شَيْءٌ مِنْهَا كَمَا يُفْعَلُ فِي ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ لٰكِنَّهَا تُخَالِفُ عَلَيْهَا ٱلْأَصْنَافُ. وَقَدْ لَحَظَتِ ٱلْعَرَبُ ذٰلِكَ فَإِنَّهَا تَقُولُ إِذَا كَثُرَتِ ٱلرِّيَاحُ جَادَتِ ٱلْحِرَاثَةُ لِأَنَّهَا تَجِيءُ بِتُرَابٍ غَرِيبٍ وَتَقُولُ أَيْضًا إِذَا كَثُرَتِ ٱلْمُوتِفِكَاتُ زَكَا ٱلزَّرْعُ. وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ تَكُونُ أَرْضُ ٱلصَّعِيدِ زَكِيَّةً كَثِيرَةَ ٱلْإِنَاءِ وَٱلرَّيْعِ إِذْ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْمَبْدَإِ فَيَحْصُلُ فِيهَا مِنْ هٰذَا ٱلطِّينِ مِقْدَارٌ كَثِيرٌ بِخِلَافِ أَسْفَلِ ٱلْأَرْضِ فَإِنَّهَا أَسَافَةٌ مُضْوِيَةٌ إِذْ كَانَتْ رَقِيقَةَ ضَعِيفَةَ ٱلطِّينِ لِأَنَّهُ يَأْتِيهَا ٱلْمَاءُ وَقَدْ رَاقَ وَصَفَا وَلَا أَعْرِفُ شَبِيهًا بِذٰلِكَ إِلَّا مَا حُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ جِبَالِ

www.marefa.org

ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّ ٱلرِّيَاحَ تَأْتِيهِ وَقْتَ ٱلزِّرَاعَةِ بِتُرَابٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلْمَطَرُ فَيَتَلَبَّدُ فَيُحْرَثُ وَيُزْرَعُ فَإِذَا حُصِدَ جَاءَتْهُ رِيَاحٌ أُخْرَى فَنَسَفَتْهُ حَتَّى يَعُودَ أَجْرَدَ كَمَا كَانَ أَوَّلًا

وَمِنْهَا أَنَّ ٱلْفُصُولَ بِهَا مُتَغَيِّرَةٌ عَنْ طَبِيعَتِهَا ٱلَّتِي لَهَا. فَإِنَّ أَخَصَّ ٱلْأَوْقَاتِ بِٱلْيَبَسِ فِي سَائِرِ ٱلْبِلَادِ أَعْنِي ٱلصَّيْفَ وَٱلْخَرِيفَ تَكْثُرُ فِيهِ ٱلرُّطُوبَةُ بِمِصْرَ بِمَدِّ نِيلِهَا وَفَيْضِهِ لِأَنَّهُ يَمُدُّ فِي ٱلصَّيْفِ وَيُطْبِقُ ٱلْأَرْضَ فِي ٱلْخَرِيفِ. فَأَمَّا سَائِرُ ٱلْبِلَادِ فَإِنَّ مِيَاهَهَا تَنِشُّ فِي هٰذَا ٱلْأَوَانِ وَتَغْزُرُ فِي أَخَصِّ ٱلْأَوْقَاتِ بِٱلرُّطُوبَةِ أَعْنِي ٱلشِّتَاءَ وَٱلرَّبِيعَ وَمِصْرُ إِذْ ذَاكَ تَكُونُ فِي غَايَةِ ٱلْقُحُولَةِ وَٱلْيَبَسِ وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ تَكْثُرُ عُفُونَاتُهَا وَٱخْتِلَافُ هَوَائِهَا وَتَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهَا ٱلْأَمْرَاضُ ٱلْعَفِنَةُ ٱلْحَادَّةُ عَنْ أَخْلَاطٍ صَفْرَاوِيَّةٍ وَبَلْغَمِيَّةٍ وَقَلَّمَا تَجِدُ فِيهِمْ أَمْرَاضًا صَفْرَاوِيَّةً خَالِصَةً بَلِ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهَا ٱلْبَلْغَمُ حَتَّى فِي ٱلشَّبَابِ وَٱلْمَحْرُورِينَ وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مَعَ ٱلصَّفْرَاءِ خَامٌ وَأَكْثَرُ أَمْرَاضِهِمْ فِي آخِرِ ٱلْخَرِيفِ وَأَوَّلِ ٱلشِّتَاءِ لٰكِنَّهَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا حَمِيدُ ٱلْعَاقِبَةِ وَنَقِلُّ فِيهِمِ ٱلْأَمْرَاضُ ٱلْحَادَّةُ وَٱلدَّمَوِيَّةُ ٱلْوَحِيَّةُ. وَأَمَّا أَصِحَّاؤُهُمْ فَيَغْلِبُ عَلَيْهِمِ ٱلتَّرَهُّلُ وَٱلْكَسَلُ وَشُحُوبُ ٱللَّوْنِ وَكُمُودَتُهُ وَقَلَّمَا تَرَى فِيهِمْ مَشْبُوبَ ٱللَّوْنِ ظَاهِرَ ٱلدَّمِ. وَأَمَّا صِبْيَانُهُمْ فَصَفَاوِيُّونَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمِ ٱلدَّمَامَةُ وَقِلَّةُ ٱلنَّضَارَةِ وَإِنَّمَا تَحْدُثُ لَهُمُ ٱلْبَدَانَةُ وَٱلْفَسَامَةُ غَالِبًا بَعْدَ ٱلْعِشْرِينَ. وَأَمَّا ذَكَاؤُهُمْ وَتَوَقُّدُ أَذْهَانِهِمْ وَخِفَّةُ حَرَكَاتِهِمْ فَلِحَرَارَةِ بَلَدِهِمِ ٱلذَّاتِيَّةِ لِأَنَّ رُطُوبَتَهُ عَرَضِيَّةٌ. وَلِهٰذَا كَانَ أَهْلُ ٱلصَّعِيدِ أَفْحَلَ جُسُومًا وَأَجَفَّ أَمْزِجَةً وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِمِ ٱلسَّمْرَةُ. وَكَانَ سَاكِنُوا ٱلْفُسْطَاطِ إِلَى دِمْيَاطَ أَرْطَبَ أَبْدَانًا

www.marefa.org

وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِمُ ٱلْبَيَاضُ

وَلَمَّا رَأَى قُدَمَاءُ ٱلْمِصْرِيِّينَ أَنَّ عِمَارَةَ أَرْضِهِمْ إِنَّمَا هِيَ بِنِيلِهَا جَعَلُوا أَوَّلَ سَنَتِهِمْ أَوَّلَ ٱلْخَرِيفِ وَذٰلِكَ عِنْدَ بُلُوغِ ٱلنِّيلِ ٱلْغَايَةَ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلزِّيَادَةِ

وَمِنْهَا أَنَّ ٱلصَّبَا مَحْجُوبَةٌ عَنْهُمْ بِجَبَلِهَا ٱلشَّرْقِيِّ ٱلْمُسَمَّى ٱلْمُقَطَّمَ فَإِنَّهُ يَسْتُرُ عَنْهَا هٰذِهِ ٱلرِّيحَ ٱلْفَاضِلَةَ وَقَلَّمَا تَهُبُّ عَلَيْهِمْ خَالِصَةً ٱللَّهُمَّ إِلَّا نَكْبَاءَ. وَلِهٰذَا ٱخْتَارَ قُدَمَاءُ ٱلْمِصْرِيِّينَ أَنْ يَجْعَلُوا مُسْتَقَرَّ ٱلْمُلْكِ مَنْفَ وَنَحْوَهَا مِمَّا يَبْعُدُ عَنْ هٰذَا ٱلْجَبَلِ ٱلشَّرْقِيِّ إِلَى ٱلْغَرْبِيِّ وَٱخْتَارَ ٱلرُّومُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَتَجَنَّبُوا مَوْضِعَ ٱلْفُسْطَاطِ لِقُرْبِهِ مِنَ ٱلْمُقَطَّمِ فَإِنَّ ٱلْجَبَلَ يَسْتُرُ عَمَّا فِي لِحْفِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتُرُ عَمَّا بَعُدَ مِنْهُ. ثُمَّ إِنَّ ٱلشَّمْسَ يَتَأَخَّرُ طُلُوعُهَا عَلَيْهِمْ فَيَقِلُّ فِي هَوَائِهِمِ ٱلنُّضْجُ وَيَبْقَى زَمَانًا عَلَى نُهُوَّةِ ٱللَّيْلِ وَلِذٰلِكَ تَجِدُ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْمُنْكَشِفَةَ لِلصَّبَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ غَيْرِهَا وَلِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهِ يَتَسَارَعُ ٱلْعَفَنُ إِلَيْهَا وَيَكْثُرُ فِيهَا ٱلْفَأْرُ وَيَتَوَلَّدُ مِنَ ٱلطِّينِ وَٱلْعَقَارِبُ تَكْثُرُ بِقُوصَ وَكَثِيرًا مَا تَقْتُلُ بِلَسْبِهَا وَٱلْبَقُّ ٱلْمُنْتِنُ وَٱلذُّبَابُ وَٱلْبَرَاغِيثُ تَدُومُ زَمَانًا طَوِيلًا

وَمِنْهَا أَنَّ ٱلْجَنُوبَ إِذَا هَبَّتْ عِنْدَهُمْ فِي ٱلشِّتَاءِ وَٱلرَّبِيعِ وَفِيمَا بَعْدَ ذٰلِكَ كَانَتْ بَارِدَةً جِدًّا وَيَسْمُونَهَا ٱلْمَرِيسِيَّ لِمُرُورِهَا عَلَى أَرْضِ ٱلْمَرِيسِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ. وَسَبَبُ بَرْدِهَا مُرُورُهَا عَلَى بِرَكٍ وَنَقَائِعَ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ ذٰلِكَ إِنَّهَا إِذَا دَامَتْ أَيَّامًا مُتَوَالِيَةً عَادَتْ إِلَى حَرَارَتِهَا ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَأَسْخَنَتِ ٱلْهَوَاءَ وَأَحْدَثَتْ فِيهِ يُبْسًا

www.marefa.org

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

فِيمَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ ٱلنَّبَاتِ

مِنْ ذٰلِكَ ٱلْجُمَّيْزُ وَهُوَ بِمِصْرَ كَثِيرٌ جِدًّا وَرَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئًا بِعَسْقَلَانَ وَٱلسَّاحِلِ وَكَأَنَّهُ تِينٌ بَرِّيٌّ وَتَخْرُجُ ثَمَرَتُهُ فِي ٱلْخَشَبِ لَا تَحْتَ ٱلْوَرَقِ وَيُخْلِفُ فِي ٱلسَّنَةِ سَبْعَةَ بُطُونٍ وَيُؤْكَلُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَيَحْمِلُ وِقْرًا عَظِيمًا وَقَبْلَ أَنْ يُجْنَى بِأَيَّامٍ يَصْعَدُ رَجُلٌ إِلَى ٱلشَّجَرَةِ وَمَعَهُ حَدِيدَةٌ يَسِمُ بِهَا حَبَّةً حَبَّةً مِنَ ٱلثَّمَرَةِ فَيَجْرِي مِنْهَا لَبَنٌ أَبْيَضُ. ثُمَّ يَسْوَدُّ ٱلْمَوْضِعُ وَتَحْلُو ٱلثَّمَرَةُ بِذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ. وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُ شَيْءٌ شَدِيدُ ٱلْحَلَاوَةِ أَحْلَى مِنَ ٱلتِّينِ لٰكِنَّهُ لَا يَنْفَكُّ فِي أَوَاخِرِ مَضْغِهِ مِنْ طَعْمٍ خَشَبِيَّةٍ مَا. وَشَجَرَتُهُ كَبِيرَةٌ كَشَجَرَةِ ٱلْجَوْزِ ٱلْعَاتِيَةِ وَيَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِهِ وَغِصْنِهِ إِذَا فُصِدَتْ لَبَنٌ أَبْيَضُ إِذَا طُلِيَ عَلَى ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِهِ صَبَغَهُ وَأَحْمَرَ. وَخَشَبُهُ تُعْمَرُ بِهِ ٱلْمَسَاكِنُ وَتُتَّخَذُ مِنْهُ ٱلْأَبْوَابُ وَغَيْرُهَا مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلْجَافِيَةِ وَلَهُ بَقَاءٌ عَلَى ٱلدَّهْرِ وَصَبْرٌ عَلَى ٱلْمَاءِ وَٱلشَّمْسِ وَقَلَّمَا يَتَأَكَّلُ هٰذَا مَعْ أَنَّهُ خَشَبٌ خَفِيفٌ قَلِيلُ ٱلدُّودَةِ. وَيُتَّخَذُ مِنْ ثَمَرَتِهِ خَلٌّ حَاذِقٌ وَنَبِيذٌ حَادٌّ. قَالَ جَالِينُوسُ ٱلْجُمَّيْزُ بَارِدٌ رَطْبٌ فِيمَا بَيْنَ ٱلتُّوتِ وَٱلتِّينِ وَهُوَ رَدِيٌّ لِلْمَعِدَةِ وَلَبَنُ شَجَرَتِهِ لَهُ قُوَّةٌ مُلَيِّنَةٌ تُلْصِقُ ٱلْجِرَاحَ وَتَنْشُّ ٱلْأَوْرَامَ وَيُلْطَخُ عَلَى لَسْعِ ٱلْهَوَامِّ وَيُحَلِّلُ جُسْأَةَ ٱلطِّحَالِ وَأَوْجَاعَ ٱلْمَعِدَةِ ضِمَادًا وَيُتَّخَذُ مِنْهُ شَرَابٌ لِلسُّعَالِ ٱلْمُتَقَادِمِ وَنَوَازِلِ ٱلصَّدْرِ وَٱلرِّئَةِ وَعَمَلُهُ بِأَنْ يُطْبَخَ فِي ٱلْمَاءِ حَتَّى تَخْرُجَ فِيهِ قُوَّتُهُ وَيُطْبَخُ ذٰلِكَ ٱلْمَاءُ مَعَ ٱلسُّكَّرِ حَتَّى يَنْعَقِدَ وَيُرْفَعُ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمِنْ أَجْنَاسِ ٱلتِّينِ تِينُ ٱلْجُمَّيْزِ وَهُوَ تِينٌ حُلْوٌ رَطْبٌ لَهُ

www.marefa.org

مَعَالِيقُ طِوَالٌ وَبُزْبُبٌ وَضَرْبٌ آخَرُ مِنَ ٱلْجُمَّيْزِ حَمْلُهُ كَٱلتِّينِ فِي ٱلْخِلْقَةِ وَوَرَقُهُ أَصْغَرُ مِنْ وَرَقِ ٱلتِّينِ. وَتِينُهُ أَصْفَرُ صُغَارٌ وَأَسْوَدُ وَيَكُونُ بِٱلْغَوْرِ وَيُسَمَّى ٱلتِّينَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأَصْفَرُ مِنْهُ حُلْوٌ وَٱلْأَسْوَدُ يُدْمِي ٱلْفَمَ وَلَيْسَ لِتِينِهِ عِلَاقَةٌ بَلْ لَاصِقٌ بِٱلْعُودِ

وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلْبَلَسَانُ فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ ٱلْيَوْمَ إِلَّا بِمِصْرَ بِعَيْنِ شَمْسٍ فِي مَوْضِعٍ مُحَاطٍ عَلَيْهِ مُحْتَفَظٍ بِهِ مَسَاحَتُهُ نَحْوُ سَبْعَةِ أَفْدِنَةٍ. وَٱرْتِفَاعُ شَجَرَتِهِ نَحْوُ ذِرَاعٍ وَأَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَعَلَيْهَا قِشْرَانِ ٱلْأَعْلَى أَحْمَرُ خَفِيفٌ وَٱلْأَسْفَلُ أَخْضَرُ ثَخِينٌ. وَإِذَا مُضِغَ ظَهَرَ فِي ٱلْفَمِ مِنْهُ دُهْنِيَّةٌ وَرَائِحَةٌ عَطِرَةٌ. وَوَرَقُهُ شَبِيهٌ بِوَرَقِ ٱلسَّذَابِ وَيُجْتَنَى دُهْنُهُ عِنْدَ طُلُوعِ ٱلشِّعْرَى بِأَنْ تُشْدَخَ ٱلسُّوقُ بَعْدَ مَا يُحَتُّ عَنْهَا جَمِيعُ وَرَقِهَا وَشَدْخُهَا يَكُونُ بِحَجَرٍ تُتَّخَذُ مُحَدَّدَةً وَيُفْتَقَرُ شَدْخُهَا إِلَى صِنَاعَةٍ بِحَيْثُ يُقْطَعُ ٱلْقِشْرُ ٱلْأَعْلَى وَيُشَقُّ ٱلْأَسْفَلُ شَقًّا لَا يَنْفُذُهُ إِلَى ٱلْخَشَبِ فَإِنْ نَفَذَ إِلَى ٱلْخَشَبِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ فَإِذَا شَدَخَهُ كَمَا وَصَفْنَا أَمْهَلَهُ رَيْثَمَا يَسِيلُ لَثَاهُ عَلَى ٱلْعُودِ فَيَجْمَعُهُ بِأُصْبَعِهِ مَسْحًا إِلَى قَرْنٍ فَإِذَا ٱمْتَلَأَ صَبَّهُ فِي قَنَانِي زُجَاجٍ وَلَا يَزَالُ كَذٰلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ جَنَاهُ وَيَنْقَطِعَ لَثَاهُ وَكُلَّمَا كَثُرَ ٱلنَّدَى فِي ٱلْجَوِّ كَانَ لَثَاهُ أَكْثَرَ وَأَغْزَرَ وَفِي ٱلْجَدْبِ وَقِلَّةِ ٱلنَّدَا يَكُونُ ٱللُّثَا أَنْزَرَ وَمِقْدَارُ مَا خَرَجَ مِنْهُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ وَهِيَ عَامُ جَدْبٍ نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ رِطْلًا. ثُمَّ تُؤْخَذُ ٱلْقَنَانِيُّ فَتُدْفَنُ إِلَى ٱلْقَيْظِ وَحَارَةِ ٱلْحَرِّ وَتُخْرَجُ مِنَ ٱلدَّفْنِ وَتُجْعَلُ فِي ٱلشَّمْسِ. ثُمَّ تُنَفَّدُ كُلَّ يَوْمٍ فَيُوجَدُ ٱلدُّهْنُ وَقَدْ طَفَا فَوْقَ رُطُوبَةٍ مَائِيَّةٍ وَأَثْقَالٍ أَرْضِيَّةٍ فَيُقْطَفُ ٱلدُّهْنُ ثُمَّ تُعَادُ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَلَا يَزَالُ كَذٰلِكَ يُشَمِّسُهَا وَيَقْطِفُ دُهْنَهَا

www.marefa.org

حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهَا دُهْنٌ فَيُؤْخَذُ ذٰلِكَ ٱلدُّهْنُ وَيُطْبَخُ قِيمُهُ فِي ٱلْخَفِيَةِ لَا يُطْلِعُ عَلَى طَبْخِهِ أَحَدًا. ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِلَى خِزَانَةِ ٱلْمَلِكِ وَمِقْدَارُ ٱلدُّهْنِ ٱلْخَالِصِ مِنَ ٱللَّتَا بِٱلتَّرْوِيقِ نَحْوُ عُشْرِ ٱلْجُمْلَةِ وَقَالَ لِي بَعْضُ أَرْبَابِ ٱلْخِبْرَةِ إِنَّ ٱلَّذِي يَحْصُلُ مِنْ دُهْنِهِ نَحْوُ مِنْ عِشْرِينَ رِطْلًا

وَرَأَيْتُ جَالِينُوسَ يَقُولُ إِنَّ أَجْوَدَ دُهْنِ ٱلْبَلَسَانِ مَا كَانَ بِأَرْضِ فَلَسْطِينَ وَأَضْعَفَهُ مَا كَانَ بِمِصْرَ وَنَحْنُ فَلَا نَجِدُ ٱلْيَوْمَ مِنْهُ بِفَلَسْطِينَ شَيْئًا ٱلْبَتَّةَ. وَقَالَ بِقُولَاوُسُ فِي كِتَابِ ٱلنَّبَاتِ. وَمِنَ ٱلنَّبَاتِ مَا لَهُ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فِي بَعْضِ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا رَائِحَتُهُ ٱلطَّيِّبَةُ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهِ كَٱلْبَلَسَانِ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلشَّامِ بِقُرْبِ بَحْرِ ٱلزِّفْتِ وَٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي يُسْقَى مِنْهَا تُسَمَّى بِئْرَ ٱلْبَلَسَمِ وَمَاؤُهَا عَذْبٌ. وَقَالَ ٱبْنُ سَمْجُونَ: إِنَّمَا يُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا بِمِصْرَ فَقَطْ وَيُسْتَخْرَجُ دُهْنُهُ عِنْدَ طُلُوعِ كَلْبِ ٱلْجَبَّارِ وَهُوَ ٱلشِّعْرَى وَذٰلِكَ فِي ٱلشُّبَاطِ. وَمِقْدَارُ مَا يُخْرَجُ مَا بَيْنَ خَمْسِينَ رَطْلًا إِلَى سِتِّينَ وَيُبَاعُ فِي مَكَانِهِ بِضِعْفِهِ فِضَّةً. وَكَأَنَّ هٰذِهِ ٱلْحَالَ قَدْ كَانَتْ فِي زَمَنِ ٱبْنِ سَمْجُونَ وَحُكِيَ عَنِ ٱلرَّازِيِّ أَنَّ بَدَلَهُ دُهْنُ ٱلْفُجْلِ وَهٰذَا بَعِيدٌ. وَٱلْبَلَسَانُ ٱلدُّهْنِيُّ لَا يُثْمِرُ وَإِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْهُ فُسُوخٌ فَتُغْرَسُ فِي شُبَاطَ فَتَعْلَقُ وَتَنْمِي. وَإِنَّمَا ٱلثَّمَرُ لِلذَّكَرِ ٱلْبَرِّيِّ وَلَا دُهْنَ لَهُ وَيَكُونُ بِنَجْدَ وَتِهَامَةَ وَبَرَارِي ٱلْعَرَبِ وَسَوَاحِلِ ٱلْيَمَنِ وَبِأَرْضِ فَارِسَ وَيُسَمَّى ٱلْبَشَارَ وَيُرَبَّى فِشْرُهُ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِ دُهْنِهِ فَيَكُونُ نَافِعًا مِنْ جَمِيعِ ٱلسُّمُومِ. وَأَمَّا خَوَاصُّهُ وَمَنَافِعُهُ فَٱلْأَلْيَقُ بِهَا غَيْرُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ

www.marefa.org

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

فِيمَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ

مِنْ ذٰلِكَ ٱلْحِمِيرُ وَٱلْحِمِيرُ بِمِصْرَ فَارِهَةٌ جِدًّا وَتُرْكَبُ بِٱلسُّرُوجِ وَتَجْرِي مَعَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْبِغَالِ ٱلنَّفِيسَةِ وَلَعَلَّهَا تَسْبِقُهَا وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ كَثِيرَةُ ٱلْعَدَدِ وَمِنْهَا مَا هُوَ عَالٍ بِحَيْثُ إِذَا رُكِبَ بِسَرْجٍ ٱخْتَلَطَ مَعَ ٱلْبَغَلَاتِ. يَرْكَبُهُ رُؤَسَاءُ ٱلْيَهُودِ وَٱلنَّصَارَى. يَبْلُغُ ثَمَنُ ٱلْوَاحِدِ مِنْهَا عِشْرِينَ دِينَارًا إِلَى أَرْبَعِينَ

وَأَمَّا بَقَرُهُمْ فَعَظِيمَةُ ٱلْخَلْقِ حَسَنَةُ ٱلصُّوَرِ. وَمِنْهَا صِنْفٌ هُوَ أَحْسَنُهَا وَأَغْلَاهَا قِيمَةً يُسَمَّى ٱلْبَقَرَ ٱلْخَيْسِيَّةَ وَهِيَ ذَوَاتُ قُرُونٍ كَأَنَّهَا ٱلْقِسِيُّ غَزِيرَاتُ ٱللَّبَنِ

وَأَمَّا خَيْلُهَا فَعِتَاقٌ سَابِقَةٌ. وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ ثَمَنُهُ أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ

وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّاسِجُ وَٱلنَّاسِجُ كَثِيرٌ فِي ٱلنِّيلِ وَخَاصَّةً فِي ٱلصَّعِيدِ ٱلْأَعْلَى وَفِي ٱلْجَنَادِلِ فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَى ٱلْمَاءِ وَبَيْنَ صُخُورِ ٱلْجَنَادِلِ كَٱلدُّودِ كَثْرَةً وَتَكُونُ كِبَارًا وَصِغَارًا وَيَنْتَهِي فِي ٱلْكِبَرِ إِلَى نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا طُولًا. وَتُوجَدُ فِي سَطْحِ جَسَدِهِ مِمَّا يَلِي بَطْنَهُ سِلْعَةٌ كَٱلْبَيْضَةِ تَحْتَوِي عَلَى رُطُوبَةٍ دَمَوِيَّةٍ وَهِيَ كَنَافِجَةِ ٱلْمِسْكِ فِي ٱلصُّورَةِ وَٱلطِّيبِ وَخَبَّرَنِي ٱلثِّقَةُ أَنَّهُ يَنْدُرُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي عُلُوِّ ٱلْمِسْكِ لَا يَنْقُصُ عَنْهُ شَيْئًا. وَٱلتِّمْسَاحُ يَبِيضُ بَيْضًا شَبِيهًا بِبَيْضِ ٱلدَّجَاجِ وَرَأَيْتُ فِي كِتَابٍ مَنْسُوبٍ إِلَى أَرِسْطُو مَا هٰذِهِ صُورَتُهُ. قَالَ ٱلتِّمْسَاحُ وَلَا يَعْمَلُ فِي جِلْدِهِ ٱلْحَدِيدُ. وَمِنْ فَقَارِ رَقَبَتِهِ إِلَى ذَنَبِهِ عَظْمٌ وَاحِدٌ وَلِهٰذَا إِذَا ٱنْقَلَبَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ

www.marefa.org

يَرْجِعَ . قَالَ وَبَيْضُ بَيْضًا طَوِيلًا كَالْإِوَزِّ وَيَدْفِنُهُ فِي الرَّمْلِ فَإِذَا أُخْرِجَ كَانَ كَالْحَرَاذِينِ فِي جِسْمِهَا وَخِلْقَتِهَا . ثُمَّ يَعْظُمُ حَتَّى يَكُونَ عَشَرَ أَذْرُعٍ وَأَزْيَدَ وَبَيْضُ سِتِّينَ بَيْضَةً لِأَنَّ خِلْقَتَهُ تَجْرِي عَلَى سِتِّينَ سِنًّا وَسِتِّينَ عِرْقًا

وَمِنْ ذٰلِكَ فَرَسُ الْبَحْرِ وَهٰذِهِ تُوجَدُ بِأَسْفَلِ الْأَرْضِ وَخَاصَّةً بِبَحْرِ دِمْيَاطَ وَهُوَ حَيَوَانٌ عَظِيمُ الصُّورَةِ هَائِلُ الْمَنْظَرِ شَدِيدُ الْبَأْسِ يَتَتَبَّعُ الْمَرَاكِبَ فَيُغَرِّقُهَا وَيُهْلِكُ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهَا وَهُوَ بِالْجَامُوسِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْفَرَسِ لٰكِنَّهُ لَيْسَ لَهُ قَرْنٌ وَفِي صَوْتِهِ صَحَلَةٌ يُشْبِهُ صَهِيلَ الْفَرَسِ بَلِ الْبَغْلِ وَهُوَ عَظِيمُ الْهَامَةِ هَرِيتُ الْأَشْدَاقِ حَدِيدُ الْأَنْيَابِ عَرِيضُ الْكَلْكَلِ مُنْتَفِخُ الْجَوْفِ قَصِيرُ الْأَرْجُلِ شَدِيدُ الْوَثْبِ قَوِيُّ الدَّفْعِ مَهِيبُ الصُّورَةِ مَخُوفُ الْغَائِلَةِ وَخَبَّرَنِي مَنِ اصْطَادَهَا مَرَّاتٍ وَشَقَّهَا وَكَشَفَ عَنْ أَعْضَائِهَا الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ أَنَّهَا خِنْزِيرٌ كَبِيرٌ وَأَنَّ أَعْضَاءَهَا الْبَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ لَا تُغَادِرُ مِنْ صُورَةِ الْخِنْزِيرِ شَيْئًا إِلَّا فِي عِظَمِ الْخِلْقَةِ . وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ بِطُوَالِيسَ فِي الْحَيَوَانِ مَا يَعْضُدُ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ صُورَتُهُ . قَالَ خِنْزِيرُ الْمَاءِ تَكُونُ فِي بَحْرِ مِصْرَ وَهِيَ تَكُونُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ وَرَأْسُهَا يُشْبِهُ رَأْسَ الْبَغْلِ وَلَهَا شِبْهُ الْجَمَلِ . قَالَ وَشَحْمُ مَتْنِهَا إِذَا أُذِيبَ وَلُتَّ بِسَوِيقٍ وَشَرِبَتْهُ امْرَأَةٌ أَسْمَنَهَا حَتَّى تَجُوزَ الْمِقْدَارَ

وَكَانَتْ وَاحِدَةٌ بِبَحْرِ دِمْيَاطَ قَدْ ضَرَبَتْ عَلَى الْمَرَاكِبِ تَغْرِقُهَا وَصَارَ الْمُسَافِرُ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ مُغَرَّرًا وَضَرَبَتْ أُخْرَى بِجِهَةٍ أُخْرَى عَلَى الْجَوَامِيسِ وَالْبَقَرِ وَبَنِي آدَمَ تَقْتُلُهُمْ وَتُفْسِدُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ . وَأَعْمَلَ النَّاسُ فِي قَتْلِهِمَا كُلَّ حِيلَةٍ مِنْ نَصْبِ الْحَبَائِلِ الْوَثِيقَةِ وَحَشْدِ الرِّجَالِ بِأَصْنَافِ

www.marefa.org

ٱلسِّلَاحِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَلَمْ يُجْدِ شَيْئًا فَٱسْتُدْعِيَ بِنَفَرٍ مِنَ ٱلْمَرِيسِ صِنْفٍ مِنَ ٱلسُّودَانِ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صَيْدَهَا وَأَنَّهَا كَثِيرَةٌ عِنْدَهُمْ وَمَعَهُمْ مَزَارِيقُ. فَتَوَجَّهُوا نَحْوَهَا فَقَتَلُوهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَبِأَهْوَنِ سَعْيٍ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَشَاهَدْتُهَا فَوَجَدْتُ جِلْدَ إِحْدَاهَا أَسْوَدَ أَجْرَدَ ثَخِينًا جِدًّا وَطُولُهَا مِنْ رَأْسِهَا إِلَى ذَنَبِهَا عَشْرُ خُطُوَاتٍ مُعْتَدِلَاتٍ وَهِيَ فِي غِلَظِ ٱلْجَامُوسِ نَحْوَ تِلْكَ مَرَّاتٍ وَكَذٰلِكَ رَقَبَتُهَا وَرَأْسُهَا. وَفِي مُقَدَّمِ فِيهَا أَثْنَا عَشَرَ نَابًا سِتَّةٌ مِنْ فَوْقُ وَسِتَّةٌ مِنْ أَسْفَلُ ٱلْمُتَطَرِّفَةُ مِنْهَا نِصْفُ ذِرَاعٍ زَائِدٌ وَٱلْمُتَوَسِّطَةُ أَنْقَصُ بِقَلِيلٍ. وَبَعْدَ ٱلْأَنْيَابِ أَرْبَعَةُ صُفُوفٍ مِنَ ٱلْأَسْنَانِ عَلَى خُطُوطٍ مُسْتَقِيمَةٍ فِي طُولِ ٱلْفَمِ فِي كُلِّ صَفٍّ عَشَرَةٌ كَأَمْثَالِ بَيْضِ ٱلدَّجَاجِ ٱلْمُصْطَفِّ صَفَّانِ فِي ٱلْأَعْلَى وَصَفَّانِ فِي ٱلْأَسْفَلِ عَلَى مُقَابَلَتِهَا. وَإِذَا قُعِرَفُوهَا وَسِعَ شَاةً كَبِيرَةً وَذَنَبُهَا فِي طُولِ نِصْفِ ذِرَاعٍ زَائِدٍ غَلِيظٌ وَطَرَفُهُ كَٱلْأُصْبَعِ أَجْرَدُ كَأَنَّهُ عَظْمٌ شَبِيهٌ بِذَنَبِ ٱلْوَرَلِ وَأَرْجُلُهَا فِصَارٌ طُولُهَا نَحْوَ ذِرَاعٍ وَثُلُثٍ وَلَهَا شَبِيهٌ بِخُفِّ ٱلْبَعِيرِ إِلَّا أَنَّهُ مَشْقُوقُ ٱلْأَطْرَافِ بِأَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ وَأَرْجُلُهَا فِي غَايَةِ ٱلْغِلَظِ. وَجُمْلَةُ جُثَّتِهَا كَأَنَّهَا مَرْكَبٌ مَكْبُوبٌ لِعِظَمِ مَنْظَرِهَا. وَبِٱلْجُمْلَةِ هِيَ أَطْوَلُ وَأَغْلَظُ مِنَ ٱلْفِيلِ إِلَّا أَنَّ أَرْجُلَهَا أَقْصَرُ مِنْ أَرْجُلِ ٱلْفِيلِ بِكَثِيرٍ وَلٰكِنْ فِي غِلَظِهَا أَوْ أَغْلَظُ مِنْهَا

وَأَمَّا أَصْنَافُ ٱلسَّمَكِ عِنْدَهُمْ فَكَثِيرَةٌ لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِمْ سَمَكُ ٱلنِّيلِ وَسَمَكُ ٱلْبَحْرِ ٱلْمِلْحِ وَلَا يَفِي ٱلْقَوْلُ بِنَعْتِهَا لِكَثْرَةِ أَصْنَافِهَا وَٱخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا

www.marefa.org

الفصل الرابع
في اقتصاص ما شوهد من آثارها القديمة

أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيء لم أر ولم أسمع بمثله في غيرها فأقتصر على أعجب ما شاهدته

فمن ذلك الأهرام وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها وهي كثيرة العدد جدًا وكلها ببر الجيزة وعلى سمت مصر القديمة وتمتد في نحو مسافة يومين وفي بوصير منها شيء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس. وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدي قراقوش بعض الأمراء. وكان خصيًا روميًا سامي الهمة وكان يتولى عمائر مصر وهو الذي بنى السور من الحجارة محيطًا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التي على المقطم وهو أيضًا الذي بنى القلعة وأنبط فيها البئرين الموجودتين اليوم وهما من العجائب وينزل إليها بدرج نحو ثلثمائة درجة. وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغار وبقي القناطر الموجودة اليوم بالجيزة. وهذه القناطر من الأبنية العجيبة أيضًا ومن أعمال الجبارين وتكون نيفًا وأربعين قنطرة. وفي هذه السنة وهي سنة سبع وتسعين وخمس مائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحتبس الماء فيروي الجيزة ففويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلث قناطر وانشقت. ومع

www.marefa.org

ذٰلِكَ فَلَمْ يُرْوِ مَا رَجَا أَنْ يُرْوِيَ. وَقَدْ بَقِيَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَهْرَامِ ٱلْمَهْدُومَةِ قَلْبُهَا وَحِشْوَتُهَا وَهِيَ رَدْمٌ وَحِجَارَةٌ صِغَارٌ لَا تَصْلُحُ لِلْقَنَاطِرِ فَلِأَجْلِ ذٰلِكَ تُرِكَتْ

وَأَمَّا ٱلْأَهْرَامُ ٱلْمُتَحَدَّثُ عَنْهَا ٱلْمُشَارُ إِلَيْهَا ٱلْمَوْصُوفَةُ بِٱلْعِظَمِ. فَثَلَٰثَةُ أَهْرَامٍ مَوْضُوعَةٍ عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ بِٱلْجِهَةِ قِبَالَةَ ٱلْفُسْطَاطِ وَبَيْنَهَا مَسَافَاتٌ يَسِيرَةٌ وَزَوَايَاهَا مُتَقَابِلَةٌ نَحْوَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱثْنَانِ مِنْهَا عَظِيمَانِ جِدًّا وَفِي قَدْرِ وَاحِدٍ وَبِهِمَا أُولِعَ ٱلشُّعَرَاءُ وَشَبَّهُوهُمَا بِنَهْدَيْنِ قَدْ نَهَدَا فِي صَدْرِ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ جِدًّا وَمَبْنِيَّانِ بِٱلْحِجَارَةِ ٱلْبِيضِ. وَأَمَّا ٱلثَّالِثُ فَيَنْقُصُ عَنْهُمَا بِنَحْوِ ٱلرُّبْعِ لٰكِنَّهُ مَبْنِيٌّ بِحِجَارَةِ ٱلصَّوَّانِ ٱلْأَحْمَرِ ٱلْمُنْقَطِ ٱلشَّدِيدِ ٱلصَّلَابَةِ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ ٱلْحَدِيدُ إِلَّا فِي ٱلزَّمَنِ ٱلطَّوِيلِ وَتَجِدُهُ صَغِيرًا بِٱلْقِيَاسِ إِلَى ذَيْنِكَ فَإِذَا قَرُبْتَ مِنْهُ وَأَفْرَدْتَهُ بِٱلنَّظَرِ هَالَكَ مَرْآهُ وَحَسَرَ ٱلطَّرْفُ عِنْدَ تَأَمُّلِهِ

وَقَدْ سُلِكَ فِي بِنَايَةِ ٱلْأَهْرَامِ طَرِيقٌ مِنَ ٱلشَّكْلِ وَٱلْإِتْقَانِ وَلِذٰلِكَ صَبَرَتْ عَلَى مَرِّ ٱلزَّمَانِ بَلْ عَلَى مَرِّهَا صَبَرَ ٱلزَّمَانُ فَإِنَّكَ إِذَا تَبَحَّرْتَهَا وَجَدْتَ ٱلْأَذْهَانَ ٱلشَّرِيفَةَ قَدِ ٱسْتَهْلَكَتْ فِيهَا وَٱلْعُقُولَ ٱلصَّافِيَةَ قَدْ أَفْرَغَتْ عَلَيْهَا مَجْهُودَهَا وَٱلْأَنْفُسَ ٱلنَّيِّرَةَ قَدْ أَفَاضَتْ عَلَيْهَا أَشْرَفَ مَا عِنْدَهَا لَهَا وَٱلْمَلِكَاتِ ٱلْهَنْدَسِيَّةَ قَدْ أَخْرَجَتْهَا إِلَى ٱلْفِعْلِ مَثَلًا هِيَ غَايَةُ إِمْكَانِهَا حَتَّى أَنَّهَا تَكَادُ تُحَدِّثُ عَنْ قَوْمِهَا وَتُخْبِرُ بِحَالِهِمْ وَتَنْطِقُ عَنْ عُلُومِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ وَتُتَرْجِمُ عَنْ سِيَرِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَذٰلِكَ أَنَّ وَضْعَهَا عَلَى شَكْلٍ مَخْرُوطٍ يَبْتَدِئُ مِنْ قَاعِدَةٍ مُرَبَّعَةٍ وَيَنْتَهِي إِلَى نُقْطَةٍ. وَمِنْ خَوَاصِّ ٱلشَّكْلِ ٱلْمَخْرُوطِ أَنَّ مَرْكَزَ

www.marefa.org

ثِقْلِهِ فِي وَسَطِهِ وَهُوَ يَتَسَانَدُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَتَوَاقَعُ عَلَى ذَاتِهِ وَيَتَحَامَلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَلَيْسَ لَهُ جِهَةٌ أُخْرَى خَارِجَةٌ عَنْهُ يَتَسَاقَطُ عَلَيْهَا. وَمِنْ عَجِيبِ وَضْعِهِ أَنَّهُ شَكْلٌ مُرَبَّعٌ قَدْ قُوبِلَ بِزَوَايَاهُ مَهَبُّ الرِّيَاحِ الْأَرْبَعِ فَإِنَّ الرِّيحَ تَنْكَسِرُ سَوْرَتُهَا عِنْدَ مُصَادَمَتِهَا الزَّاوِيَةَ وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ عِنْدَ مَا تَلْقَى السَّطْحَ

وَلْنَرْجِعْ إِلَى ذِكْرِ الْهَرَمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ فَإِنَّ الْمَسَّاحَ ذَكَرُوا أَنَّ قَاعِدَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ طُولًا فِي مِثْلِهَا عَرْضًا وَارْتِفَاعَ عَمُودِهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِالذِّرَاعِ السَّوْدَاءِ. وَيَنْقَطِعُ الْخُرُوطُ فِي أَعْلَاهُ عِنْدَ سَطْحٍ مِسَاحَتُهُ عَشْرُ أَذْرُعٍ فِي مِثْلِهَا. وَأَمَّا الَّذِي شَاهَدْتُهُ مِنْ حَالِهِمَا فَإِنَّ رَامِيًا كَانَ مَعَنَا رَمَى سَهْمًا فِي قُطْرِ أَحَدِهِمَا وَفِي سَمْتِهِ فَسَقَطَ السَّهْمُ دُونَ نِصْفِ الْمَسَافَةِ وَخُبِّرْنَا أَنَّ فِي الْقَرْيَةِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمَا قَوْمًا قَدِ اعْتَادُوا ارْتِقَاءَ الْهَرَمِ بِلَا كُلْفَةٍ فَاسْتَدْعَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ وَرَضَخْنَا لَهُ بِشَيْءٍ. فَجَعَلَ يَصْعَدُ فِيهَا كَمَا يَرْقَى أَحَدُنَا فِي الدَّرَجِ بَلْ أَسْرَعَ وَرَقِيَ بِنَعْلَيْهِ وَأَثْوَابِهِ وَكَانَتْ سَابِغَةً وَكُنْتُ أَمَرْتُهُ أَنَّهُ إِذَا اسْتَوَى عَلَى سَطْحِهِ قَاسَهُ بِعِمَامَتِهِ. فَلَمَّا نَزَلَ ذَرَعْنَا مِنْ عِمَامَتِهِ مِقْدَارَ مَا كَانَ قَاسَ فَكَانَ إِحْدَى عَشْرَةَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْيَدِ. وَرَأَيْتُ بَعْضَ أَرْبَابِ الْقِيَاسِ قَالَ ارْتِفَاعُ عَمُودِهَا ثَلَاثُمِائَةِ ذِرَاعٍ وَنَحْوُ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا يُحِيطُ بِهِ أَرْبَعَةُ سُطُوحٍ مُثَلَّثَاتِ الْأَضْلَاعِ طُولُ كُلِّ ضِلْعٍ مِنْهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَسِتُّونَ ذِرَاعًا وَأُرَى هَذَا الْقِيَاسَ خَطَأً وَلَوْ جُعِلَ الْعَمُودُ أَرْبَعَ مِائَةِ ذِرَاعٍ لَصَحَّ قِيَاسُهُ وَإِنْ سَاعَدَتِ الْمَقَادِيرُ تَوَلَّيْتُ قِيَاسَهُ بِنَفْسِي

www.marefa.org

وَفِي أَحَدِ هٰذَيْنِ ٱلْهَرَمَيْنِ مَدْخَلٌ يَلِجُهُ ٱلنَّاسُ يُفْضِي بِهِمْ إِلَى مَسَالِكَ ضَيِّقَةٍ وَأَسْرَابٍ مُتَنَافِذَةٍ وَآبَارٍ وَمَهَالِكَ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَحْكِيهِ مَنْ يَلِجُهُ وَيَتَوَغَّلُهُ. فَإِنَّ نَاسًا كَثِيرِينَ لَهُمْ غَرَامٌ بِهِ وَتَخَيُّلٌ فِيهِ فَيُوغِلُونَ فِي أَعْمَاقِهِ وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهُوا إِلَى مَا يَعْجِزُونَ عَنْ سُلُوكِهِ. وَأَمَّا ٱلْمَسْلُوكُ فِيهِ ٱلْمَطْرُوقُ كَثِيرًا فَزَلَّاقَةٌ تُفْضِي إِلَى أَعْلَاهُ. فَيُوجَدُ فِيهِ بَيْتٌ مُرَبَّعٌ فِيهِ نَاوُوسٌ مِنْ حَجَرٍ وَهٰذَا ٱلْمَدْخَلُ لَيْسَ هُوَ ٱلْبَابَ ٱلْمُتَّخَذَ لَهُ فِي أَصْلِ ٱلْبِنَاءِ وَإِنَّمَا هُوَ مَنْقُوبٌ نَقْبًا صُودِفَ ٱتِّفَاقًا. وَذُكِرَ أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ هُوَ ٱلَّذِي فَتَحَهُ وَجُلُّ مَنْ كَانَ مَعَنَا وَلَجُوا فِيهِ وَصَعِدُوا إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي فِي أَعْلَاهُ. فَلَمَّا نَزَلُوا حَدَّثُوا بِعَظِيمِ مَا شَاهَدُوا وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ بِٱلْخَفَافِيشِ وَأَبْوَالِهَا حَتَّى يَكَادُ يَمْنَعُ ٱلسَّالِكَ وَيَعْظُمُ فِيهَا ٱلْخُفَّاشُ حَتَّى يَكُونَ فِي قَدْرِ ٱلْحَمَامِ. وَفِيهِ طَاقَاتٌ وَرَوَازِنُ نَحْوَ أَعْلَاهُ وَكَأَنَّهَا جُعِلَتْ مَسَالِكَ لِلرِّيحِ وَمَنَافِذَ لِلضَّوْءِ وَوَلَجْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى مَعَ جَمَاعَةٍ وَبَلَغْتُ نَحْوَ ثُلُثَيِ ٱلْمَسَافَةِ فَأُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ هَوْلِ ٱلْمَطْلَعِ فَرَجَعْتُ بِرَمَقٍ

وَهٰذِهِ ٱلْأَهْرَامُ مَبْنِيَّةٌ بِحِجَارَةٍ جَافِيَةٍ يَكُونُ طُولُ ٱلْحَجَرِ مِنْهَا مَا بَيْنَ عَشْرِ أَذْرُعٍ إِلَى عِشْرِينَ ذِرَاعًا وَسَمْكُهُ مَا بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ إِلَى ثَلْثٍ وَعَرْضُهُ نَحْوُ ذٰلِكَ وَعَجَبُ كُلِّ ٱلْعَجَبِ فِي وَضْعِ ٱلْحَجَرِ عَلَى ٱلْحَجَرِ بِهَنْدَامٍ لَيْسَ فِي ٱلْإِمْكَانِ أَصَحُّ مِنْهُ بِحَيْثُ لَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا مَدْخَلَ إِبْرَةٍ وَلَا خَلَلَ شَعْرَةٍ وَبَيْنَهُمَا طِينٌ كَأَنَّهُ ٱلْوَرَقَةُ لَا أَدْرِي مَا صِنْفُهُ وَلَا مَا هُوَ. وَعَلَى تِلْكَ ٱلْحِجَارَةِ كِتَابَاتٌ بِٱلْقَلَمِ ٱلْقَدِيمِ ٱلْمَجْهُولِ ٱلَّذِي لَمْ أَجِدْ بِدِيَارِ مِصْرَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ بِمَنْ يَعْرِفُهُ. وَهٰذِهِ ٱلْكِتَابَاتُ كَثِيرَةٌ جِدًّا حَتَّى لَوْ نُقِلَ مَا عَلَى ٱلْهَرَمَيْنِ فَقَطْ إِلَى

www.marefa.org

صُحُفٍ لَكَانَتْ زُهَاءَ عَشَرَةِ آلَافِ صَحِيفَةٍ. وَقَرَأْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ الصَّابِئَةِ الْقَدِيمَةِ أَنَّ أَحَدَ هٰذَيْنِ الْهَرَمَيْنِ هُوَ قَبْرُ أَغَاذِيمُونَ وَالْآخَرَ قَبْرُ هَرْمِيسَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمَا نَبِيَّانِ عَظِيمَانِ وَأَنَّ أَغَاذِيمُونَ أَقْدَمُ وَأَعْظَمُ وَأَنَّهُ كَانَ يُحَجُّ إِلَيْهِمَا وَيُهْوَى نَحْوَهُمَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَقَدْ وَسَّعْنَا الْقَوْلَ فِي الْمَنْقُولِ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ فَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فَعَلَيْهِ بِهِ فَإِنَّ هٰذَا الْكِتَابَ مَنْصُورٌ عَلَى الْمَشَاهِدِ

وَكَانَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ عُثْمَانُ بْنُ يُوسُفَ لَمَّا اسْتَقَلَّ بَعْدَ أَبِيهِ سَوَّلَ لَهُ جَهَلَةُ أَصْحَابِهِ أَنْ يَهْدِمَ هٰذِهِ الْأَهْرَامَ. فَبَدَأَ بِالصَّغِيرِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ ثَالِثَةُ الْأَثَافِي. فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الْحَلَبِيَّةَ وَالنَّقَّابِينَ وَالْحَجَّارِينَ وَجَمَاعَةً مِنْ عُظَمَاءِ دَوْلَتِهِ وَأُمَرَاءِ مَمْلَكَتِهِ وَأَمَرَهُمْ بِهَدْمِهِ وَوَكَّلَهُمْ بِخَرَابِهِ. فَخَيَّمُوا عِنْدَهَا وَحَشَرُوا عَلَيْهَا الرِّجَالَ وَالصُّنَّاعَ وَوَفَّرُوا عَلَيْهِمُ النَّفَقَاتِ وَأَقَامُوا نَحْوَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ بِخَيْلِهِمْ وَرَجْلِهِمْ يَهْدِمُونَ كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ بَذْلِ الْجُهْدِ وَاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ الْحَجَرَ وَالْحَجَرَيْنِ. فَقَوْمٌ مِنْ فَوْقُ يَدْفَعُونَهُ بِالْأَسَافِينِ وَالْأَمْخَالِ وَقَوْمٌ مِنْ أَسْفَلُ يَجْذُبُونَهُ بِالْقُلُوسِ وَالْأَشْطَانِ فَإِذَا سَقَطَ سُمِعَ لَهُ وَجْبَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ حَتَّى تَرْجُفَ لَهُ الْجِبَالُ وَتَزَلْزَلَ الْأَرْضُ وَيَغُوصُ فِي الرَّمْلِ فَيَتْعَبُونَ تَعَبًا آخَرَ حَتَّى يُخْرِجُوهُ ثُمَّ يَضْرِبُونَ فِيهِ الْأَسَافِينَ بَعْدَ مَا يَنْقُبُونَ لَهَا مَوْضِعًا وَيُبَيِّتُونَهَا فِيهِ فَيَتَقَطَّعُ قِطَعًا فَتُسْحَبُ كُلُّ قِطْعَةٍ عَلَى الْعَجَلِ حَتَّى تُلْقَى فِي ذَيْلِ الْجَبَلِ وَهِيَ مَسَافَةٌ قَرِيبَةٌ. فَلَمَّا طَالَ تَوَاؤُهُمْ وَنَفِدَتْ نَفَقَاتُهُمْ وَتَضَاعَفَ نَصَبُهُمْ وَوَهَتْ عَزَائِمُهُمْ وَخَارَتْ قُوَاهُمْ كَفُّوا مَحْسُورِينَ مَذْمُومِينَ لَمْ يَنَالُوا بُغْيَةً وَلَا

www.marefa.org

بَلَغُوا غَايَةَ بَلْ كَانَتْ غَايَتُهُمْ أَنْ شَوَّهُوا الْهَرَمَ وَأَبَانُوا عَنْ عَجْزٍ وَفَشَلٍ.
وَكَانَ ذٰلِكَ فِي سَنَةِ ثَلٰثٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ الرَّائِيَ لِحِجَارَةِ الْهَدْمِ يَظُنُّ أَنَّ الْهَرَمَ قَدِ اسْتُوْصِلَ فَإِذَا عَايَنَ الْهَرَمَ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُهْدَمْ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنَّمَا جَانِبٌ مِنْهُ كُشِطَ بَعْضُهُ. وَحِينَ مَا شَاهَدْتُ الْمَشَقَّةَ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي هَدْمِ كُلِّ حَجَرٍ سَأَلْتُ مُقَدَّمَ الْحَجَّارِينَ فَقُلْتُ لَهُ لَوْ بُذِلَ لَكُمْ أَلْفُ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تَرُدُّوا حَجَرًا وَاحِدًا إِلَى مَكَانِهِ وَهِنْدَامِهِ هَلْ كَانَ يَتَمَكَّنُكُمْ ذٰلِكَ فَأَقْسَمَ بِاللّٰهِ تَعَالَى إِنَّهُمْ لَيَعْجِزُونَ عَنْ ذٰلِكَ وَلَوْ بُذِلَ لَهُمْ أَضْعَافُهُ

وَبِإِزَاءِ الْأَهْرَامِ مِنَ الصَّفَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مَغَايِرُ كَثِيرَةُ الْعَدَدِ كَبِيرَةُ الْمِقْدَارِ عَمِيقَةُ الْأَغْوَارِ مُتَدَاخِلَةٌ. وَفِيهَا مَا هُوَ ذُو طَبَقَاتٍ ثَلٰثٍ وَتُسَمَّى الْمَدِينَةَ حَتَّى لَعَلَّ الْفَارِسَ يَدْخُلُهَا بِرُمْحِهِ وَيَتَخَيَّلُهَا يَوْمًا أَجْمَعَ وَلَا يُنْهِيهَا لِكَثْرَتِهَا وَسَعَتِهَا وَبُعْدِهَا وَيَظْهَرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الْأَهْرَامِ. وَأَمَّا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الصَّوَّانِ الْأَحْمَرِ فَيُقَالُ إِنَّهَا بِالْقُلْزُمِ وَبِأَسْوَانَ

وَعِنْدَ هٰذِهِ الْأَهْرَامِ آثَارُ أَبْنِيَةِ جَبَّارَةٍ وَمَغَايِرُ كَثِيرَةٌ مُتْقَنَةٌ وَقَلَّمَا تَرَى مِنْ ذٰلِكَ شَيْئًا إِلَّا وَتَرَى عَلَيْهِ كِتَابَاتٍ بِهٰذَا الْقَلَمِ الْمَجْهُولِ

وَعِنْدَ هٰذِهِ الْأَهْرَامِ بِأَكْثَرَ مِنْ غَلْوَةٍ صُورَةُ رَأْسٍ وَعُنُقٍ بَارِزَةٌ مِنَ الْأَرْضِ فِي غَايَةِ الْعِظَمِ يُسَمِّيهِ النَّاسُ أَبَا الْهَوْلِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ جُثَّتَهُ مَدْفُونَةٌ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَقْتَضِي الْقِيَاسُ أَنْ تَكُونَ جُثَّتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَأْسِهِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا فَصَاعِدًا. وَفِي وَجْهِهِ حُمْرَةٌ وَدِهَانٌ أَحْمَرُ يَلْمَعُ عَلَيْهِ رَوْنَقُ الطَّرَاوَةِ وَهُوَ حَسَنُ الصُّورَةِ مَقْبُولُهَا عَلَيْهِ مَسْحَةٌ بِهَاءٍ وَجَمَالٍ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ

www.marefa.org

تَبَسَّمَا . وَسَأَلَنِي بَعْضُ ٱلْفُضَلَاءِ مَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتَ فَقُلْتُ تَنَاسُبُ وَجْهِ أَبِي ٱلْهَوْلِ فَإِنَّ أَعْضَاءَ وَجْهِهِ كَالْأَنْفِ وَالْعَيْنِ وَالْأُذُنِ مُتَنَاسِبَةٌ كَمَا تَصْنَعُ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلصُّوَرَ مُتَنَاسِبَةً . فَإِنَّ أَنْفَ ٱلطِّفْلِ مَثَلًا مُنَاسِبٌ لَهُ وَهُوَ حَسَنٌ بِهِ حَتَّى لَوْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْأَنْفُ لِرَجُلٍ لَكَانَ مُشَوَّهًا بِهِ وَكَذٰلِكَ لَوْ كَانَ أَنْفُ ٱلرَّجُلِ لِلصَّبِيِّ لَتَشَوَّهَتْ صُورَتُهُ وَعَلَى هٰذَا سَائِرُ ٱلْأَعْضَاءِ فَكُلُّ عُضْوٍ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى مِقْدَارٍ وَهَيْئَةٍ بِٱلْقِيَاسِ إِلَى تِلْكَ ٱلصُّورَةِ وَعَلَى نِسْبَتِهَا فَإِنْ لَمْ تُوجَدِ ٱلْمُنَاسَبَةُ تَشَوَّهَتِ ٱلصُّورَةُ وَٱلْعَجَبُ مِنْ مُصَوِّرِهِ كَيْفَ قَدَرَ أَنْ يَحْفَظَ نِظَامَ ٱلتَّنَاسُبِ فِي ٱلْأَعْضَاءِ مَعَ عِظَمِهَا وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَعْمَالِ ٱلطَّبِيعَةِ مَا يُحَاكِيهِ وَيُقَابِلُهُ

وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلْآثَارُ ٱلَّتِي بِعَيْنِ شَمْسَ وَهِيَ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ يُشَاهَدُ سُورُهَا مُحْدِقًا بِهَا مَهْدُومًا وَيَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا قَدْ كَانَتْ بَيْتَ عِبَادَةٍ . وَفِيهَا مِنَ ٱلْأَصْنَامِ ٱلْهَائِلَةِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلشَّكْلِ مِنْ نَحِيتِ ٱلْحِجَارَةِ يَكُونُ طُولُ ٱلصَّنَمِ زُهَاءَ ثَلٰثِينَ ذِرَاعًا وَأَعْضَاؤُهُ عَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ مِنَ ٱلْعِظَمِ . وَقَدْ كَانَ بَعْضُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَامِ قَائِمًا عَلَى قَوَاعِدَ وَبَعْضُهَا قَاعِدًا بِنُصْبَاتٍ عَجِيبَةٍ وَإِتْقَانَاتٍ مُحْكَمَةٍ وَبَابُ ٱلْمَدِينَةِ مَوْجُودٌ إِلَى ٱلْيَوْمِ . وَعَلَى مُعْظَمِ تِلْكَ ٱلْحِجَارَةِ تَصَاوِيرُ ٱلْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَكِتَابَاتٌ كَثِيرَةٌ بِٱلْقَلَمِ ٱلْمَجْهُولِ وَقَلَّمَا تَرَى حَجَرًا غُفْلًا مِنْ كِتَابَةٍ أَوْ نَقْشٍ أَوْ صُورَةٍ . وَفِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمِسَلَّتَانِ ٱلْمَشْهُورَتَانِ وَتُسَمَّيَانِ مِسَلَّتَيْ فِرْعَوْنَ وَصِفَةُ ٱلْمِسَلَّةِ أَنَّ قَاعِدَةً مُرَبَّعَةً طُولُهَا عَشْرُ أَذْرُعٍ فِي مِثْلِهَا عَرْضًا فِي نَحْوِهَا سَمْكًا قَدْ وُضِعَتْ عَلَى أَسَاسٍ ثَابِتٍ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ أُقِيمَ عَلَيْهَا عَمُودٌ مُرَبَّعٌ مَخْرُوطٌ يَنِيفُ طُولُهُ عَلَى مِائَةِ ذِرَاعٍ

www.marefa.org

يَبْتَدِئُ مِنْ قَاعِدَةٍ لَعَلَّ قُطْرَهَا خَمْسُ أَذْرُعٍ وَيَنْتَهِي إِلَى نُقْطَةٍ وَقَدْ لُبِّسَ رَأْسُهَا بِقَلَنْسُوَةٍ نُحَاسٍ إِلَى نَحْوِ ثُلُثِ أَذْرُعٍ مِنْهَا كَالْقِمَعِ. وَقَدْ تَزَنَّجَرَ بِالْمَطَرِ وَطُولِ الْمُدَّةِ وَاخْضَرَّ وَسَالَ مِنْ خُضْرَتِهِ عَلَى بَسِيطِ الْمِسَلَّةِ. وَالْمِسَلَّةُ كُلُّهَا عَلَيْهَا كِتَابَاتٌ بِذٰلِكَ الْقَلَمِ وَرَأَيْتُ إِحْدَى الْمِسَلَّتَيْنِ وَقَدْ خَرَّتْ وَانْصَدَعَتْ مِنْ نِصْفِهَا لِعِظَمِ الثِّقْلِ وَأُخِذَ النُّحَاسُ مِنْ رَأْسِهَا. ثُمَّ إِنَّ حَوْلَهَا مِنَ الْمَسَالِّ شَيْئًا كَثِيرًا لَا يُحْصَى عَدَدُهَا وَمَقَادِيرُهَا عَلَى نِصْفِ تِلْكَ الْعُظْمَى أَوْ ثُلُثِهَا وَقَلَّمَا تَجِدُ فِي هٰذِهِ الْمَسَالِّ الصِّغَارِ مَا هُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ بَلْ فُصُوصٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَقَدْ تَهَدَّمَ أَكْثَرُهَا وَإِنَّمَا بَقِيَتْ قَوَاعِدُهَا. وَرَأَيْتُ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِسَلَّتَيْنِ عَلَى سِيفِ الْبَحْرِ فِي وَسَطِ الْعِمَارَةِ أَكْبَرَ مِنْ هٰذِهِ الصِّغَارِ وَأَصْغَرَ مِنَ الْعَظِيمَتَيْنِ

وَأَمَّا الْبَرَابِي بِالصَّعِيدِ فَالْحِكَايَاتُ عَنْ عِظَمِهَا وَإِتْقَانِ صَنْعَتِهَا وَإِحْكَامِ صُوَرِهَا وَعَجَائِبِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَشْكَالِ وَالنُّقُوشِ وَالتَّصَاوِيرِ وَالْخُطُوطِ مَعَ إِحْكَامِ الْبِنَاءِ وَجَفَاءِ الْآلَاتِ وَالْأَحْجَارِ مِمَّا يَفُوتُ الْحَصْرَ وَهِيَ مِنَ الشُّهْرَةِ بِحَيْثُ تُغْنِي عَنِ الْإِطَالَةِ فِي الصِّفَةِ

وَمِنْ ذٰلِكَ الْآثَارُ الَّتِي بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ وَهٰذِهِ الْمَدِينَةُ بِالْجِيزَةِ فُوَيْقَ الْفُسْطَاطِ وَهِيَ مَنْفُ الَّتِي كَانَ يَسْكُنُهَا الْفَرَاعِنَةُ وَكَانَتْ مُسْتَقَرَّ مَمْلَكَةِ مُلُوكِ مِصْرَ

فَهٰذِهِ الْمَدِينَةُ مَعَ سَعَتِهَا وَتَقَادُمِ عَهْدِهَا وَتَدَاوُلِ الْمِلَلِ عَلَيْهَا وَاسْتِئْصَالِ الْأُمَمِ إِيَّاهَا مِنْ تَعْفِيَةِ آثَارِهَا وَمَحْوِ رُسُومِهَا وَنَقْلِ حِجَارَتِهَا وَآلَاتِهَا وَإِفْسَادِ أَبْنِيَتِهَا وَتَشْوِيهِ صُوَرِهَا مُضَافًا إِلَى مَا فَعَلَتْهُ فِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ

www.marefa.org

سَنَةٍ فَصَاعِدًا تَجِدُ فِيهَا مِنَ ٱلْعَجَائِبِ مَا يَفُوتُ فَهْمَ ٱلْفَطِنِ ٱلْمُتَأَمِّلِ وَيَحْصُرُ دُونَ وَصْفِهِ ٱلْبَلِيغُ ٱللَّسِنُ وَكُلَّمَا زِدْتَهُ تَأَمُّلًا زَادَكَ عَجَبًا وَكُلَّمَا زِدْتَهُ نَظَرًا زَادَكَ طَرَبًا وَمَهْمَا ٱسْتَنْبَطْتَ مِنْهُ مَعْنًى أَنْبَأَكَ بِمَا هُوَ أَغْرَبُ وَمَهْمَا ٱسْتَنَرْتَ مِنْهُ عِلْمًا دَلَّكَ عَلَى أَنَّ وَرَاءَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ

فَمِنْ ذٰلِكَ ٱلْبَيْتُ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْبَيْتِ ٱلْأَخْضَرِ وَهُوَ حَجَرٌ وَاحِدٌ تِسْعُ أَذْرُعٍ ٱرْتِفَاعًا فِي ثَمَانٍ طُولًا فِي سَبْعٍ عَرْضًا قَدْ حُفِرَ فِي وَسَطِهِ بَيْتٌ قَدْ جُعِلَ سَمْكُ حِيطَانِهِ وَسَقْفِهِ وَأَرْضِهِ ذِرَاعَيْنِ ذِرَاعَيْنِ وَٱلْبَاقِي فَضَاءُ ٱلْبَيْتِ وَجَمِيعُهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مَنْقُوشٌ وَمُصَوَّرٌ وَمَكْتُوبٌ بِٱلْقَلَمِ ٱلْقَدِيمِ وَعَلَى ظَاهِرِهِ صُورَةُ ٱلشَّمْسِ مِمَّا يَلِي مَطْلِعَهَا وَصُوَرٌ كَثِيرَةٌ مِنَ ٱلْكَوَاكِبِ وَٱلْأَفْلَاكِ وَصُوَرُ ٱلنَّاسِ وَٱلْحَيَوَانِ عَلَى ٱخْتِلَافٍ مِنَ ٱلنِّصْبَاتِ وَٱلْهَيْئَاتِ فَمِنْ بَيْنِ قَائِمٍ وَمَاشٍ وَمَادٍّ رِجْلَيْهِ وَصَافِنًا وَمُسْتَمِرٍّ (مُشَمِّرٍ) لِلْخِدْمَةِ وَحَامِلِ آلَاتٍ وَٱلْمُشِيرِ بِهَا. يُنْبِئُ ظَاهِرُ ٱلْأَمْرِ أَنَّهُ قُصِدَ بِذٰلِكَ مُحَاكَاةُ أُمُورٍ جَلِيلَةٍ وَأَعْمَالٍ شَرِيفَةٍ وَهَيْئَاتٍ فَاضِلَةٍ وَإِشَارَاتٍ إِلَى أَسْرَارٍ غَامِضَةٍ وَأَنَّهَا لَمْ تُتَّخَذْ عَبَثًا وَلَمْ يُسْتَفْرَغْ فِي صَنْعَتِهَا ٱلْوُسْعُ لِمُجَرَّدِ ٱلزِّينَةِ وَٱلْحُسْنِ. وَقَدْ كَانَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ مُمَكَّنًا عَلَى قَوَاعِدَ مِنْ حِجَارَةِ ٱلصَّوَّانِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلْوَثِيقَةِ فَحَفَرَ تَحْتَهَا ٱلْجَهَلَةُ وَٱلْحُمْقَى طَمَعًا فِي ٱلْمَطَالِبِ فَتَغَيَّرَ وَضْعُهُ وَفَسَدَ هَنْدَامُهُ وَٱخْتَلَفَ مَرْكَزُ ثِقْلِهِ وَثَقَلَ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَتَصَدَّعَ صُدُوعًا لَطِيفَةً يَسِيرَةً. وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ قَدْ كَانَ فِي هَيْكَلٍ عَظِيمٍ مَبْنِيٍّ بِحِجَارَةٍ عَانِيَةٍ جَافِيَةٍ عَلَى أَتْقَنِ هَنْدَامٍ وَأَحْكَمِ صَنْعَةٍ وَفِيهَا قَوَاعِدُ عَلَى عُمُدٍ عَظِيمَةٍ وَحِجَارَةُ ٱلْهَدْمِ مُتَوَاصِلَةٌ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ هٰذَا ٱلْخَرَابِ. وَقَدْ بَقِيَ فِي بَعْضِهَا حِيطَانٌ

www.marefa.org

مَائِلَةَ بِتِلْكَ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْجَافِيَةِ . وَفِي بَعْضِهَا أَسَاسٌ وَفِي بَعْضِهَا ٱطِّلَالٌ وَرَأَيْتُ عَقْدَ بَابٍ شَاهِقًا رُكْنَاهُ حَجَرَانِ فَقَطْ وَأَزَجَّتُهُ حَجَرٌ وَاحِدٌ قَدْ سَقَطَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَجِدُ هٰذِهِ ٱلْحِجَارَةَ مَعَ ٱلْهَنْدَامِ ٱلْمُحْكَمِ وَٱلْوَضْعِ ٱلْمُتْقَنِ قَدْ حُفِرَ بَيْنَ ٱلْحَجَرَيْنِ مِنْهَا نَحْوَ شِبْرٍ فِي ٱرْتِفَاعِ أُصْبَعَيْنِ وَفِيهِ صَدَأُ ٱلنُّحَاسِ وَزَنْجَرَتُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّ ذٰلِكَ قُيُودُ لِحِجَارَةِ ٱلْبِنَاءِ وَتَوْثِيقٌ لَهَا وَرِبَاطَاتٌ بَيْنَهَا بِأَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ ٱلْحَجَرَيْنِ ثُمَّ يُصَبَّ عَلَيْهِ ٱلرَّصَاصُ وَقَدْ تَتَبَّعَهَا ٱلْأَنْذَالُ وَٱلْحُدُودُونَ فَقَلَعُوا مِنْهَا مَا شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَكَسَرُوا لِأَجْلِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْحِجَارَةِ حَتَّى يَصِلُوا إِلَيْهَا وَلَعَمْرِ ٱللهِ لَقَدْ بَذَلُوا ٱلْجُهْدَ فِي ٱسْتِخْلَاصِهَا وَأَبَانُوا عَنْ تَمَكُّنٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ وَتَوَغُّلٍ فِي ٱلْخَسَاسَةِ

وَأَمَّا ٱلْأَصْنَامُ وَكَثْرَةُ عَدَدِهَا وَعِظَمُ صُوَرِهَا فَأَمْرٌ يَفُوتُ ٱلْوَصْفَ وَيَتَجَاوَزُ ٱلتَّقْدِيرَ . وَأَمَّا إِتْقَانُ أَشْكَالِهَا وَإِحْكَامُ هَيْئَاتِهَا وَٱلْمُحَاكَاةُ بِهَا ٱلْأُمُورَ ٱلطَّبِيعِيَّةَ فَمَوْضِعُ ٱلتَّعَجُّبِ بِٱلْحَقِيقَةِ . فَمِنْ ذٰلِكَ صَنَمٌ ذَرَعْنَاهُ سِوَى قَاعِدَتِهِ فَكَانَ نَيِّفًا وَثَلٰثِينَ ذِرَاعًا وَكَانَ مَدَاهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْيَمِينِ إِلَى ٱلْيَسَارِ نَحْوَ عَشْرِ أَذْرُعٍ . وَمِنْ جِهَةِ ٱلْخَلْفِ إِلَى ٱلْأَمَامِ عَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ وَهُوَ حَجَرٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱلصَّوَّانِ ٱلْأَحْمَرِ وَعَلَيْهِ مِنَ ٱلدِّهَانِ ٱلْأَحْمَرِ كَأَنَّهُ لَمْ يَزِدْهُ تَقَادُمُ ٱلْأَيَّامِ إِلَّا جِدَّةً . وَٱلْعَجَبُ كُلُّ ٱلْعَجَبِ كَيْفَ حُفِظَ فِيهِ مَعَ عِظَمِهِ ٱلنِّظَامُ ٱلطَّبِيعِيُّ وَٱلتَّنَاسُبُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ ٱلْآلِيَّةِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ لَهُ فِي نَفْسِهِ مِقْدَارٌ مَا وَلَهُ إِلَى سَائِرِ ٱلْأَعْضَاءِ نِسْبَةٌ مَا بِذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارِ وَبِتِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ يَحْصُلُ حُسْنُ ٱلْهَيْئَةِ وَمَلَاحَةُ ٱلصُّورَةِ فَإِنِ ٱخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ حَدَثَ مِنَ ٱلْقُبْحِ بِمِقْدَارِ ٱلْخَلَلِ .

www.marefa.org

وَقَدْ أُحْكِمَ فِي هٰذِهِ الْأَصْنَامِ هٰذَا النِّظَامُ إِحْكَامًا أَيِّ إِحْكَامٍ فَمِنْ ذٰلِكَ مَفَادِيرُ الْأَعْضَاءِ فِي نَفْسِهَا ثُمَّ نَسَبُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ

وَرَأَيْتُ أَسَدَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ قَرِيبٌ وَصُوَرُهُمَا هَائِلَةٌ جِدًّا وَقَدْ حُفِظَ فِيهِمَا النِّظَامُ الطَّبِيعِيُّ وَالتَّنَاسُبُ الْحَيَوَانِيُّ مَعَ كَوْنِهِمَا أَعْظَمَ جُثَّةً مِنَ الْحَيَوَانِ الْحَقِيقِيِّ جِدًّا جِدًّا وَقَدْ تَكَسَّرَا وَرُدِمَا بِالتُّرَابِ. وَوَجَدْنَا مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ قِطْعَةً صَالِحَةً مَبْنِيَّةً بِالْحِجَارَةِ الصِّغَارِ وَالطُّوبِ وَهٰذَا الطُّوبُ كَبِيرٌ جَافٍ مُطَاوِلُ الشَّكْلِ وَمِقْدَارُهُ نِصْفُ الْآجُرِّ الْكِسْرَوِيِّ بِالْعِرَاقِ كَمَا أَنَّ طُوبَ مِصْرَ الْيَوْمَ نِصْفُ آجُرِّ الْعِرَاقِ الْيَوْمَ أَيْضًا

(ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ) يَجِدُونَ نَوَاوِيسَ تَحْتَ الْأَرْضِ فَسِيحَةَ الْأَرْجَاءِ مُحْكَمَةَ الْبِنَاءِ وَفِيهَا مِنْ مَوْتَى الْقُدَمَاءِ الْجَمُّ الْغَفِيرُ وَالْعَدَدُ الْكَثِيرُ قَدْ لُفُّوا بِأَكْفَانٍ مِنْ ثِيَابِ الْقُطْنِ لَعَلَّهُ يَكُونُ عَلَى الْمَيِّتِ مِنْهَا زُهَاءُ أَلْفِ ذِرَاعٍ وَقَدْ كُفِّنَ كُلُّ عُضْوٍ عَلَى انْفِرَادِهِ كَالْيَدِ وَالرِّجْلِ وَالْأَصَابِعِ فِي قُمُطٍ دُقَاقٍ. ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ تُلَفُّ جُثَّةُ الْمَيِّتِ جُمْلَةً حَتَّى يَرْجِعَ كَالْحِمْلِ الْعَظِيمِ وَمَنْ كَانَ يَتَتَبَّعُ هٰذِهِ النَّوَاوِيسَ مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الرِّيفِ وَغَيْرِهِمْ يَأْخُذُ هٰذِهِ الْأَكْفَانَ فَمَا وَجَدَ فِيهِ تَمَاسُكًا اتَّخَذَهُ ثِيَابًا أَوْ بَاعَهُ لِلْوَرَّاقِينَ يَعْمَلُونَ مِنْهُ وَرَقَ الْعَطَّارِينَ. وَيُوجَدُ بَعْضُ مَوْتَاهُمْ فِي تَوَابِيتَ مِنْ خَشَبٍ جُمَيْزٍ تَخِينٍ وَيُوجَدُ بَعْضُهُمْ فِي نَوَاوِيسَ مِنْ حِجَارَةٍ إِمَّا رُخَامٍ وَإِمَّا صَوَّانٍ وَبَعْضُهُمْ فِي أَزْيَارٍ مَمْلُوَّةٍ عَسَلًا. وَخَبَّرَنِي الثِّقَةُ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا كَانُوا يَتَتَفَّقُونَ الْمَطَالِبَ عِنْدَ الْأَهْرَامِ صَادَفُوا دَنًّا مَخْتُومًا فَفَضُّوهُ فَإِذَا فِيهِ عَسَلٌ فَأَكَلُوا مِنْهُ فَعَلِقَ فِي أُصْبُعِ أَحَدِهِمْ شَعْرٌ فَجَذَبَهُ فَظَهَرَ لَهُمْ صَبِيٌّ صَغِيرٌ مُتَمَاسِكُ الْأَعْضَاءِ

www.marefa.org

رَطْبُ ٱلْبَدَنِ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْحُلِيِّ وَٱلْجَوْهَرِ. وَهٰؤُلَاءِ ٱلْمَوْتَى قَدْ يُوجَدُ عَلَى جِبَاهِهِمْ وَعُيُونِهِمْ وَأَنُوفِهِمْ وَرَقٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ كَٱلْقِشْرِ. وَرُبَّمَا وُجِدَ قِشْرٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ عَلَى جَمِيعِ ٱلْمَيِّتِ كَٱلْغِشَاءِ وَرُبَّمَا وُجِدَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْحُلِيِّ وَٱلْجَوْهَرِ وَرُبَّمَا وُجِدَ عِنْدَهُ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي كَانَ يُزَاوِلُ بِهَا فِي حَيَاتِهِ. وَأَخْبَرَنِي ٱلثِّقَةُ أَنَّهُ وَجَدَ عِنْدَ مَيِّتٍ مِنْهُمْ آلَةَ ٱلْمُزَيِّنِ مِسَنًّا وَمُوسَى وَعِنْدَ آخَرَ آلَةَ ٱلْحَجَّامِ وَعِنْدَ آخَرَ آلَةَ ٱلْحَائِكِ وَيَظْهَرُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ سُنَّتِهِمْ أَنْ يَدْفِنُوا مَعَ ٱلرَّجُلِ آلَتَهُ وَمَالَهُ. وَسَمِعْتُ أَنَّ طَوَائِفَ مِنَ ٱلْحَبَشَةِ هٰذِهِ سُنَّتُهُمْ وَيَتَطَيَّرُونَ بِمَتَاعِ ٱلْمَيِّتِ إِنْ يَمَسُّوهُ أَوْ يَتَصَرَّفُوا فِيهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سُنَّتِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ ٱلْمَيِّتِ شَيْءٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ. فَخَبَّرَنِي بَعْضُ قُضَاةِ بُوصِيرَ وَهِيَ مُجَاوِرَةٌ مَدَافِنَهُمْ أَنَّهُمْ نَبَشُوا ثَلٰثَةَ أَقْبُرٍ فَوَجَدُوا عَلَى كُلِّ مَيِّتٍ قِشْرًا رَقِيقًا مِنَ ٱلذَّهَبِ لَا يَكَادُ يُجْتَمَعُ وَفِي فِيهِ سَبِيكَةٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ فَجُمِعَ ٱلسَّبَائِكُ ٱلثَّلٰثَةِ فَكَانَ وَزْنُهَا تِسْعَةَ مَثَاقِيلَ وَٱلْحِكَايَاتُ فِي ذٰلِكَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَحْصُرَهَا هٰذَا ٱلْكِتَابُ

وَأَمَّا مَا يُوجَدُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَأَدْمِغَتِهِمْ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ مُومِيَا فَكَثِيرٌ جِدًّا يَجْلِبُهُ أَهْلُ ٱلرِّيفِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ وَيُبَاعُ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّزْرِ وَلَقَدِ ٱشْتَرَيْتُ ثَلٰثَةَ أَرْؤُسٍ مَمْلُوَّةٍ مِنْهُ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ مِصْرِيٍّ وَأَرَانِي بَائِعُهُ جُوَالِقًا مَمْلُوًّا مِنْ ذٰلِكَ. وَكَانَ فِيهِ ٱلصَّدْرُ وَٱلْبَطْنُ وَحَشْوُهُ مِنْ هٰذَا ٱلْمُومِيَا وَرَأَيْتُهُ قَدْ دَاخَلَ ٱلْعِظَامَ وَتَشَرَّبَتْهُ وَسَرَى فِيهَا حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهُ وَرَأَيْتُ أَيْضًا عَلَى قِحْفِ ٱلرَّأْسِ أَثَرَ ثَوْبِ ٱلْكَفَنِ وَأَثَرَ ٱلنِّسَاجَةِ قَدِ ٱنْتَقَشَ فِيهِ كَمَا يَرْتَسِمُ عَلَى ٱلشَّمْعِ إِذَا خُتِمَ بِهِ عَلَى ثَوْبٍ

www.marefa.org

وَهٰذَا ٱلْمُومِيَا هُوَ أَسْوَدُ كَٱلْقَفْرِ وَرَأَيْتُهُ إِذَا ٱشْتَدَّ عَلَيْهِ حَرُّ ٱلصَّيْفِ يَجْرِي وَيَلْصَقُ بِمَا يَدْنُو مِنْهُ وَإِذَا طُرِحَ عَلَى ٱلْجَمْرِ غَلَى وَدَخَنَ وَشُمَّتْ مِنْهُ رَائِحَةُ ٱلْقَفْرِ أَوِ ٱلزِّفْتِ وَٱلْغَالِبُ أَنَّهُ زِفْتٌ وَمُرٌّ. وَأَمَّا ٱلْمُومِيَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَشَيْءٌ يَنْحَدِرُ مِنْ رُؤُسِ ٱلْجِبَالِ مَعَ ٱلْمِيَاهِ ثُمَّ يَجْمُدُ كَٱلْقَارِ وَيَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ زِفْتٍ مَخْلُوطٍ بِقَفْرٍ. وَقَالَ جَالِينُوسُ ٱلْمُومِيَا يَخْرُجُ مِنَ ٱلْعُيُونِ كَٱلْقَارِ وَٱلنِّفْطِ. وَقَالَ غَيْرُهُ هُوَ صِنْفٌ مِنَ ٱلْقَارِ وَيُسَمَّى حَيْضَ ٱلْجِبَالِ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي نَجَاوِيفِ ٱلْمَوْتَى بِمِصْرَ لَا يَبْعُدُ عَنْ طِبَاعِ ٱلْمُومِيَا وَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ بَدَلَهُ إِذَا تَعَذَّرَ

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا يُوجَدُ فِي مَدَافِنِهِمْ أَصْنَافُ ٱلْحَيَوَانِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَٱلْوَحْشِ وَٱلْحَشَرَاتِ وَقَدْ كُفِنَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهَا فِي كَذَا كَذَا ثَوْبًا وَهُوَ مُحْتَاطٌ عَلَيْهِ مُحْتَفَظٌ بِهِ. وَخَبَّرَنِي ٱلثِّقَةُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا بَيْنَا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ مُحْكَمًا فَفَتَحُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ لَفَائِفَ ثِيَابِ ٱلْقُنَّبِ وَقَدْ تَمَعَّطَتْ فَأَزَالُوهَا مَعَ كِثْرَتِهَا فَوَجَدُوا تَحْتَهَا عِجْلًا صَحِيحًا قَدْ أُحْكِمَ تَقْمِيطُهُ. وَحَدَّثَنِي أُخَرُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا صَقْرًا فَنَشَرُوا عَنْهُ مِنْ لَفَائِفِ ٱلثِّيَابِ حَتَّى عَيُوا فَوَجَدُوهُ لَمْ تَسْقُطْ مِنْهُ رِيشَةٌ. وَحُكِيَ لِي مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ هِرٍّ وَعَنْ عُصْفُورٍ وَعَنْ خُنْفَسَاءَ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَطُولُ شَرْحُهُ وَيَفْجُنُ ذِكْرُهُ

وَحَكَى لِي أَيْضًا ٱلْأَمِيرُ ٱلصَّادِقُ أَنَّهُ كَانَ بِقُوصَ فَجَاءَ إِلَيْهِ مَنْ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمَطَالِبِ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُمُ ٱنْحَسَقَتْ بِهِمْ هُوَّةٌ مُوهِمَةٌ أَنَّ فِيهَا دَفِينًا فَخَرَجَ مَعَهُمْ بِجَمَاعَةٍ مُتَسَلِّحِينَ وَحَفَرُوا فَوَجَدُوا زِيرًا كَبِيرًا مُوثَقَ ٱلرَّأْسِ بِٱلْجَصِّ فَفَتَحُوهُ بَعْدَ ٱلْجُهْدِ فَوَجَدُوا فِيهِ كَٱلْأَصَابِعِ مُكَفَّنَةً بِخِرَقٍ فَحَلُّوهَا

www.marefa.org

فَوَجَدُوا تَحْتَهَا صِيرًا وَهُوَ سَمَكٌ صِغَارٌ وَصَارَ كَالْهَبَاءِ إِذَا نُفِخَ طَارَ فَنَقَلُوا الزِّبْرَ إِلَى مَدِينَةِ فُوصَ بَيْنَ يَدَيِ الْوَالِي وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ نَحْوُ مِائَةِ رَجُلٍ فَحَمَلُوا الْجَمِيعَ حَتَّى أَتَوْا عَلَى آخِرِهِ وَهُوَ كُلُّهُ صِيرٌ مُكَفَّنٌ لَيْسَ فِيهِ سِوَى ذَلِكَ

وَرَأَيْتُ أَنَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَدَافِنِهِمْ بِبُوصِيرَ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَا يَفِي بِهِ هَذَا الْكِتَابُ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنِّي وَجَدْتُ فِي هَذِهِ الْمَدَافِنِ مَغَايِرَ تَحْتَ الْأَرْضِ مَبْنِيَّةً بِإِتْقَانٍ وَفِيهَا رِمَمٌ مُكَفَّنَةٌ فِي كُلِّ مَغَارَةٍ عَدَدٌ لَا يُحْصَى. وَمِنَ الْمَغَايِرِ مَا هُوَ مَمْلُوءٌ بِرِمَمِ الْكِلَابِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مَمْلُوءٌ بِرِمَمِ الْبَقَرِ وَمِنْهَا مَا فِيهِ رِمَمُ السَّنَانِيرِ وَالْجَمِيعُ مُكَفَّنٌ بِخِرَقِ الْقُنَّبِ. وَرَأَيْتُ شَيْئًا مِنْ عِظَامِ بَنِي آدَمَ وَقَدْ تَمَشَّقَ حَتَّى صَارَ كَاللِّيفِ الْأَبْيَضِ لِقِدَمِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَأَكْثَرُ الرِّمَمِ الَّتِي رَأَيْتُهَا صَلِبَةٌ مُتَمَاسِكَةٌ جِدًّا يَظْهَرُ مِنْ عَلَيْهَا الطَّرَاءَةُ أَكْثَرُ مِنْ رِمَمِ الْهَالِكِينَ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ الَّتِي ذِكْرُهَا آخِرَ كِتَابِنَا هَذَا وَلَاسِيَّمَا مَا كَانَ مِنَ الرِّمَمِ الْقَدِيمَةِ قَدِ انْصَبَغَ بِالزِّفْتِ أَوِ الْقِطْرَانِ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا فِي لَوْنِ الْحَدِيدِ وَصَلَابَتِهِ وَرَزَانَتِهِ. وَرَأَيْتُ مِنْ جَمَاجِمِ الْبَقَرِ مَا شَاءَ اللهُ وَكَذَلِكَ جَمَاجِمِ الْغَنَمِ وَفَرَقْتُ بَيْنَ رُؤُوسِ الْمَعْزِ وَالضَّأْنِ وَبَيْنَ رُؤُوسِ الْبَقَرِ وَالثِّيرَانِ وَوَجَدْتُ لَحْمَ الْبَقَرِ قَدِ الْتَصَقَ بِالْأَكْفَانِ حَتَّى صَارَ قِطْعَةً وَاحِدَةً حُمْرَةً تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ وَيَخْرُجُ الْعَظْمُ مِنْ تَحْتِهَا أَبْيَضَ يَقَقًا وَبَعْضُ الْعِظَامِ أَحْمَرُ وَبَعْضُهَا أَسْوَدُ وَكَذَلِكَ فِي عِظَامِ الْآدَمِيِّ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَكْفَانَ كَانَتْ تُبَلُّ بِالصِّبْرِ وَالْقِطْرَانِ وَتُشَرَّبُ بِهِ ثُمَّ يُكَفَّنُ بِهَا فَلِذَلِكَ يَصْبَغُ اللَّحْمَ وَيُبْقِيهِ وَمَا نَالَ مِنْهَا الْعَظْمَ صَبَغَهُ فَأَحْمَرَ وَأَسْوَدَ. وَوَجَدْتُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ تِلَالًا مِنْ رِمَمِ الْكِلَابِ لَعَلَّهُ

www.marefa.org

يَكُونُ فِي جُمْلَتِهَا مِائَةُ أَلْفِ رَأْسِ كَلْبٍ أَوْ يَزِيدُ وَذَلِكَ مِمَّا يُثِيرُ الْبَاحِثُونَ عَنِ الْمَطَالِبِ فَإِنَّ جَمَاعَةً يَجْعَلُونَ مَكَاسِبَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْقُبُورِ وَأَخْذِ مَا سَخَ لَهُمْ مِنَ الْخَشَبِ وَالْخِرَقِ وَغَيْرِهِ. وَاسْتَقْرَيْتُ جَمِيعَ الْمَوَاضِعِ الْمُمْكِنَةِ فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا رَأْسَ فَرَسٍ وَلَا جَمَلٍ وَلَا حِمَارٍ فَبَقِيَ ذَلِكَ فِي نَفْسِي فَسَأَلْتُ مَشَايِخَ بُوصِيرَ فَبَادَرُوا إِلَى إِخْبَارِي بِأَنَّهُمْ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِكْرَتُهُمْ فِي ذَلِكَ وَاسْتِقْرَاؤُهُمْ إِيَّاهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ. وَأَكْثَرُ تَوَابِيتِهِمْ مِنْ خَشَبِ الْجُمَّيْزِ وَفِيهِ الْقَوِيُّ الصُّلْبُ وَمِنْهُ مَا صَارَ فِي دَرَجَةِ الرَّمَادِ. وَخَبَّرَنِي قُضَاةُ بُوصِيرَ بِعَجَائِبَ مِنْهَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا نَاوُوسًا مِنْ حَجَرٍ فَفَضُّوهُ فَأَلْفَوْا فِيهِ نَاوُوسًا فَفَضُّوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ تَابُوتًا فَفَتَحُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ سَحْلِيَّةً وَهِيَ سَامٌ أَبْرَصُ مُكَفَّنَةً مُحَنَّطًا عَلَيْهَا مَعْنِيًّا بِهَا. وَوَجَدْنَا عِنْدَ بُوصِيرَ أَهْرَامًا كَثِيرَةً مِنْهَا هَرَمٌ قَدِ انْهَدَمَ وَبَقِيَ قَلْبُهُ فَقِسْنَاهُ مِنْ مَبْدَإِ أَسَاسِهِ فَوَجَدْنَاهُ لَا يَتَفَاصَرُ عَنْ هَرَمَيِ الْجِيزَةِ وَجَمِيعُ مَا حَكَيْنَاهُ مِنْ أَحْوَالِ مَدَافِنِهِمْ بِبُوصِيرَ يُوجَدُ نَحْوُهُ وَأَمْثَالُهُ بِعَيْنِ شَمْسٍ وَبِالْبَرَابِي وَبِغَيْرِهَا

www.marefa.org

الفصل الخامس

فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن

وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية حتى أنهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة ودورهم أفسح وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة وقلما تجد منزلا إلا وفيه بادا هنج وبادا هنجاتهم كبار واسعة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام حتى أنه يغرم على عمارة الواحد منها مائة دينار إلى خمس مائة وإن كانت بادا هنجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار. وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق

ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ويحفرون الكنف إلى المعين فيغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كنح

وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه العشيري شكله شكل شبارة دجلة إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداما وشكلا قد سطح بألواح خشب لخينة محكمة وأخرج منها أفاريز كالرواشن نحو ذراعين وبني فوق هذا السطح بيت من خشب وعقد عليه قبة وفتح له طاقات وروازن بأبواب إلى البحر من سائر جهاتها ثم تعمل في هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض

www.marefa.org

ثُمَّ يُزَوَّقُ بِأَصْنَافِ ٱلْأَصْبَاغِ وَيُذَهَّبُ وَيُدْهَنُ بِأَحْسَنِ دِهَانٍ. وَهٰذَا يُتَّخَذُ لِلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ بِحَيْثُ يَكُونُ ٱلرَّئِيسُ جَالِسًا فِي وِسَادَتِهِ وَخَوَاصُّهُ حَوْلَهُ وَٱلْغِلْمَانُ وَٱلْمَمَالِيكُ قِيَامٌ بِٱلْمَنَاطِقِ وَٱلسُّيُوفِ عَلَى تِلْكَ ٱلرَّوَاشِنِ وَأَطْعِمَتُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ فِي قَعْرِ ٱلْمَرْكَبِ وَٱلْمَلَّاحُونَ تَحْتَ ٱلسَّطْحِ أَيْضًا وَفِي بَاقِي ٱلْمَرْكَبِ يَقْذِفُونَ بِهِ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ ٱلرُّكَّابِ وَلَا ٱلرُّكَّابُ يَشْتَغِلُ خَوَاطِرُهُمْ بِهِمْ بَلْ كُلُّ فَرِيقٍ بِمَعْزِلٍ عَنِ ٱلْآخَرِ وَمَشْغُولٌ بِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ وَإِذَا أَرَادَ ٱلرَّئِيسُ ٱلْإِخْلَاءَ بِنَفْسِهِ عَنْ أَصْحَابِهِ دَخَلَ ٱلْمُخْدَعَ وَإِذَا أَرَادَ قَضَاءَ حَاجَتِهِ دَخَلَ ٱلْمِرْحَاضَ

وَٱلْمَلَّاحُونَ بِمِصْرَ يَقْذِفُونَ إِلَى وَرَائِهِمْ فَهُمْ فِي قَذْفِهِمْ يُشْبِهُونَ ٱلْحَبَّالِينَ فِي مَشْيِهِمِ ٱلْقَهْقَرَى وَيُشْبِهُونَ فِي تَحْرِيكِهِمِ ٱلسُّفُنَ مَنْ يَجْذِبُ ثِقْلًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَمْشِي بِهِ إِلَى خَلْفِهِ. وَأَمَّا مَلَّاحُوا ٱلْعِرَاقِ فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَدْفَعُ ٱلثِّقَلَ نَحْوَ أَمَامِهِ وَيَدْسُرُ بِهِ فَسُفُنُهُمْ تَتَوَجَّهُ حَيْثُ ٱلْمَلَّاحُ مُتَّجِهٌ. وَأَمَّا سُفُنُ مِصْرَ فَهِيَ تَتَحَرَّكُ إِلَى ضِدِّ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي إِلَيْهَا ٱلْمَلَّاحُ مُتَوَجِّهٌ. وَأَمَّا أَيُّ ٱلْحَالَتَيْنِ أَسْهَلُ وَٱلْبُرْهَانُ عَلَيْهَا فَمَوْضِعُهُ ٱلْعِلْمُ ٱلطَّبِيعِيُّ وَعِلْمُ تَحْرِيكِ ٱلْأَثْقَالِ

www.marefa.org

المقالة الثانية

في النيل وكيفية زيادته

واعطاء علل ذلك وقوانينه

إعلم أن نيل مصر يبدأ وقت نضوب مياه الأرض وذلك في شمس السرطان والأسد والسنبلة فيعلو على الأرض ويقيم أياما فإذا نزل عنها حرثت وزرعت ثم يكثر الندا في الليل جدا وبه يتغذى الزرع إلى أن يستحصد ونهاية ما تدعو إليه الحاجة من الزيادة ثماني عشرة ذراعا فإن زاد على ذلك فإنه يروي أمكنة مستعلية وكأنه ناقلة على جهة التبرع ونهاية ما يزيد على جهة الندرة أصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تستبحر أمكنة يدوم مكث الماء عليها فتفوت زراعتها ويثور من البلاد مما عادته أن يزرع نحو مما (نحو ما) روي مما عادته أن يشرق ولنسم الثمانية عشرة نهاية الضروري ولنسم العشرين نهاية الإفراط وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها فابتدى الضروري ست عشرة ذراعا ويسمى ماء السلطان إذ عنده يستحق الخراج ويروى به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار ما يمأن أهل البلاد سنتهم جمعاء مع توسع ويروى سائر البلاد المعتادة بالري بما زاد على ست عشرة ذراعا إلى ثماني عشرة وهذا يغل مقدار ما يمير أهل البلاد سنتين فصاعدا. وأما ما نقص عن ست عشرة ذراعا فيروى به ما هو دون الكفاية ولا تحصل منه مرة سنتهم ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا وحينئذ يقال إن البلاد قد شرقت

www.marefa.org

وَٱتَّفَقَ أَنَّ زِيَادَةَ ٱلنِّيلِ بَلَغَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ٱثْنَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ أُصْبُعًا. وَهٰذَا ٱلْمِقْدَارُ نَادِرٌ جِدًّا فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْنَا مُذِ ٱلْهِجْرَةِ إِلَى ٱلْآنَ أَنَّ ٱلنِّيلَ وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَطُّ إِلَّا فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ فَإِنَّهُ وَقَفَ عَلَى دُونِ هٰذَا ٱلْمِقْدَارِ بِأَرْبَعِ أَصَابِعَ. وَأَمَّا وُقُوفُهُ عَلَى ثَلٰثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَأَصَابِعَ فَإِنَّهُ وَقَعَ نَحْوَ سِتِّ مَرَّاتٍ فِي هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ ٱلطَّوِيلَةِ. وَأَمَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَأَصَابِعَ فَإِنَّهُ وَقَعَ نَحْوَ عِشْرِينَ مَرَّةً. وَأَمَّا خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَأَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ كَثِيرًا

وَنَحْنُ نَسُوقُ أَحْوَالَ زِيَادَتِهِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ أَعْنِي سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ثُمَّ نُتْبِعُ ذٰلِكَ بِمَا حَصَلَ عِنْدَنَا مِنْ عِلَلِ ذٰلِكَ وَقَوَانِينِهِ فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْعَادَةَ جَارِيَةٌ أَنْ تَبْتَدِئَ ٱلزِّيَادَةُ مِنْ أَبِيبَ وَتَعْظُمَ فِي مِسْرَى وَتَتَنَاهَى فِي تُوتٍ أَوْ بَابَةَ ثُمَّ يَحُطُّ. فَدَخَلَ أَبِيبُ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ وَٱبْتَدَأَ ٱلنِّيلُ يَتَحَرَّكُ بِٱلزِّيَادَةِ وَكَانَ قَبْلَ ذٰلِكَ بِنَحْوِ شَهْرَيْنِ قَدْ بَدَتْ فِي مَائِهِ خُضْرَةٌ سِلْقِيَّةٌ ثُمَّ كَثُرَتْ وَظَهَرَتْ فِي رَائِحَتِهِ دَفِرَةٌ كَرِيهَةٌ وَعُفُونَةٌ طُحْلَبِيَّةٌ كَأَنَّهُ عَصَارَةُ ٱلسِّلْقِ إِذَا بَقِيَ أَيَّامًا حَتَّى يَعْفَنَ وَجَعَلْتُ مِنْهُ فِي وِعَاءٍ ضَيِّقِ ٱلرَّأْسِ فَعَلَاهُ سَحَابَةٌ خَضْرَاءُ فَرَفَعْتُهَا بِرِفْقٍ وَتَرَكْتُهَا تَجِفُّ وَإِذَا بِهَا طُحْلُبٌ لَا شَكَّ فِيهِ وَيَبْقَى ٱلْمَاءُ بَعْدَ رَفْعِ هٰذِهِ ٱلسَّحَابَةِ عَنْهُ صَافِيًا لَا خُضْرَةَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ طَعْمَهُ وَرِيحَهُ بَاقِيَانِ وَتَجِدُ فِيهِ أَيْضًا أَجْسَامًا صِغَارًا نَبَاتِيَّةً مَبْثُوثَةً كَٱلْهَبَاءِ لَا تَرْسُبُ. وَصَارَ أَرْبَابُ ٱلْحُمَّيَاتِ يَجْتَنِبُونَ شُرْبَهُ وَإِنَّمَا يَشْرَبُونَ مَاءَ ٱلْآبَارِ وَأَغْلَبُتُهُ بِٱلنَّارِ ظَنًّا مِنِّي أَنَّهُ يَصْلُحُ بِذٰلِكَ كَمَا وَصَّى ٱلْأَطِبَّاءُ يَفْعَلُ بِٱلْمِيَاهِ ٱلْمُتَغَيِّرَةِ فَزَادَ طَعْمُهُ وَرِيحُهُ كَرَاهَةً وَسَهَكًا

www.marefa.org

فَوَجَدْتُ عِلَّةَ ذٰلِكَ أَنَّ الْأَجْزَاءَ النَّبَاتِيَّةَ الَّتِي هِيَ مَبْثُوثَةٌ فِيهِ يَلْطُفُ الطَّبْخُ جَوْهَرَهَا فَيَخْتَلِطُ بِالْمَاءِ اخْتِلَاطًا أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ فَيَظْهَرُ التَّغَيُّرُ (التَّغْيِيرُ) فِي رِيحِهِ وَطَعْمِهِ أَكْثَرَ وَيَصِيرُ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ إِذَا طُبِخَ فِيهِ سِلْقٌ أَوْ فُجْلٌ أَوْ نَحْوُهُ فَإِنَّ النَّارَ تَمْزُجُ بَيْنَ الْمَاءِ وَلَطِيفِ النَّبَاتِ. وَأَمَّا الْمَاءُ الَّذِي يَصْلُحُ بِالطَّبْخِ وَإِيَّاهُ قَصَدَ الْأَطِبَّاءُ فَهُوَ الَّذِي تَغَيَّرَ بِمُخَالَطَةِ أَجْزَاءِ أَرْضِيَّةٍ فَإِنَّهَا تَنْفَصِلُ عَنْهُ بِالطَّبْخِ لِأَنَّ الْمَاءَ حِينَئِذٍ يَلْطُفُ فَتَرْسُبُ فِيهِ

ثُمَّ إِنَّهُ دَامَتْ خُضْرَتُهُ أَيَّامًا مِنْ رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ وَاصْحَلَّتْ فِي شَوَّالٍ وَكَانَ يَصْحَبُ الْخُضْرَةَ دُودٌ وَحَيَوَانَاتٌ أَجْمِيَّةٌ وَهٰذَا التَّغَيُّرُ فِي الْمَاءِ يَكُونُ بِالصَّعِيدِ أَكْثَرَ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَبْدَإِ وَالْمَعْدِنِ وَانْتَهَتْ زِيَادَتُهُ فِي الْحَادِي عَشَرَ مِنْ تُوتٍ إِلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ أُصْبُعًا ثُمَّ انْحَطَّ

فَرَأَيْتُ الْغَالِبَ مِنْ حَالِ الْقَاعِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَقَلَّ مِنَ الْمُعْتَادِ أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ تَكُونُ أَقَلَّ مِنَ الْمُعْتَادِ هٰذَا حُكْمُهُ الْأَكْثَرِيُّ فَإِنْ أَتَتِ الْخُضْرَةُ فِي أَوَّلِ زِيَادَتِهِ وَقَبْلَهَا قَوِيَ الظَّنُّ بِضَعْفِ جِزْيَتِهِ فَإِنْ طَالَتْ أَيَّامُ الْخُضْرَةِ وَضَعُفَ مِقْدَارُ الزِّيَادَةِ قَوِيَ الظَّنُّ جِدًّا بِقِلَّتِهِ فَإِنْ دَامَتِ الْخُضْرَةُ فِي أَيِّبَ فَأَذَنَ بِقِلَّةِ الْمَدِّ

وَعِلَلُ هٰذَا ظَاهِرَةٌ أَمَّا كَوْنُ قِلَّةِ الْقَاعِ دَلِيلًا عَلَى قِلَّةِ الزِّيَادَةِ فَلِأَنَّ الْمَطَرَ الَّذِي هُوَ عِلَّةُ الزِّيَادَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنَ الْكَثْرَةِ مَا يَرُدُّ الْقَاعَ إِلَى الْحَالَةِ الْمُعْتَادَةِ ثُمَّ يَزِيدُ عَلَيْهَا الزِّيَادَةَ الْمُعْتَادَةَ وَهٰذِهِ كَثْرَةٌ لَا تَفِي

www.marefa.org

بِهَا أَمْطَارٌ كُلَّ سَنَةٍ وَلَا تُوجَدُ كُلَّ وَقْتٍ. مِثَالُهُ أَنَّ الْقَاعَ إِذَا كَانَ ذِرَاعًا مَثَلًا فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الزِّيَادَةُ خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا حَتَّى يَبْلُغَ مَاءَ السُّلْطَانِ فَإِنْ كَانَ الْقَاعُ سِتَّ أَذْرُعٍ احْتَاجَ مِنَ الزِّيَادَةِ إِلَى عَشْرِ أَذْرُعٍ وَكَوْنُ هٰذَا أَيْسَرَ مِنَ الْأَوَّلِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ جِرْيَةَ النِّيلِ الْأَصْلِيَّةَ مَادَّتُهَا عُيُونٌ. وَأَمَّا زِيَادَتُهُ فَمَادَّتُهَا أَمْطَارٌ وَنُقْصَانُ الْعُيُونِ دَلِيلٌ عَلَى احْتِرَاقِ السَّنَةِ وَيَبَسِ الْهَوَاءِ وَقِلَّةِ الْبُخَارِ فَيَقِلُّ الْمَطَرُ لِذٰلِكَ وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَدَّ الزَّائِدَ عَلَى الْقَاعِ أَكْثَرُهُ فِي الْغَالِبِ ثَلٰثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَإِذَا كَانَ الْقَاعُ ذِرَاعًا أَوْ ذِرَاعَيْنِ. ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمَدِّ وَهُوَ ثَلٰثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا لَمْ يَلْحَقْ مَاءَ السُّلْطَانِ

وَأَمَّا كَوْنُ الْخُضْرَةِ دَلِيلًا عَلَى قِلَّةِ الزِّيَادَةِ فَلِأَنَّ النِّيلَ الْمَاضِيَ يُغَادِرُ نَقَائِعَ وَغُدْرَانًا بَعْضُهَا يَنْضُبُ وَبَعْضُهَا يُطَحْلِبُ وَيَعْطَنُ وَيَأْسِنُ فَإِذَا مَرَّتْ بِهَا أَمْطَارٌ ضَعِيفَةٌ اخْتَلَطَتْ بِهَا وَصَبَّتْهَا إِلَى النِّيلِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنَ الْكَثْرَةِ مَا يَغْلِبُ عَلَى النَّقَائِعِ فَيُصْلِحُهَا بَلِ النَّقَائِعُ تَغْلِبُ عَلَى الْأَمْطَارِ الْمُتَّصِلَةِ بِهَا فَتُحِيلُهَا إِلَى الْفَسَادِ وَيَحُطُّ مِنْهَا مِقْدَارٌ بَعْدَ مِقْدَارٍ وَيَتَوَاصَلُ إِلَيْنَا وَكُلَّمَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ أَضْعَفَ وَأَقَلَّ كَانَتْ أَيَّامُ جِرْيَةِ الْخُضْرَةِ أَطْوَلَ فَإِذَا كَانَتْ أَمْطَارٌ قَوِيَّةٌ غَسَلَتْ تِلْكَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ وَغَلَبَتْ عَلَيْهَا وَحَدَرَتْهَا بِسُرْعَةٍ مَغْمُورَةً بِطِينٍ تُجْرِفُهُ بِقُوَّتِهَا فَيُخْفِي مَنْظَرَهَا وَيُتْعِفُ إِثْرَهَا. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْأَنْهَارَ الْخَارِجَةَ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ تَجْتَمِعُ بِأَخَرَةٍ إِلَى بِرْكَةٍ عَظِيمَةٍ ذَاتِ مِسَاحَةٍ فَسِيحَةٍ وَمِنْ هٰذِهِ الْبِرْكَةِ يَخْرُجُ هٰذَا النِّيلُ وَلَا شَكَّ أَنَّ هٰذِهِ الْبِرْكَةَ مَاؤُهَا دَائِمٌ فَيُطَحْلِبُ وَلَا سِيَّمَا شُطُوطُهَا وَضَحَاضِيحُهَا

www.marefa.org

فَإِذَا وَقَعَ ٱلْوَسْيُ وَجَرَى إِلَيْهَا سُيُولُهُ أَثَارَتْ مَا فِي قَعْرِهَا وَحَرَّكَتْ مَا كَانَ سَاكِنًا فِيهَا وَٱنْكَسَحَ أَيْضًا مَا فِي ٱلشُّطُوطِ إِلَى ٱلْأَوْسَاطِ وَٱنْسَحَبَ إِلَى ٱلْجُرْيَةِ فَٱسْتَصْحَبَتْهُ

وَأَمَّا كَوْنُ ٱلْخُضْرَةِ فِي أَيِبَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلنُّقْصَانِ فَلِأَنَّ أَيِبَ مَظِنَّةُ ٱلزِّيَادَةِ وَغَلَبَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْأَوْشَابِ فَإِذَا بَقِيَ عَلَى خُضْرَتِهِ إِبَّانَ زِيَادَتِهِ أَذَنَ بِقِلَّتِهِ. وَهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءُ ٱلنَّبَاتِيَّةُ ٱلَّتِي تَصْحَبُ ٱلْمَاءَ إِنَّمَا هِيَ حُطَامُ ٱلنَّبَاتِ ٱلْمُتَكَوِّنُ فِي ٱلْمَاءِ وَحَوْلَهُ كَٱلْبَرْدِيِّ وَٱلدَّيْسِ وَٱلسَّمَّارِ وَٱلطَّحْلَبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَتَتَعَفَّنُ فِيهِ وَتَتَصَغَّرُ أَجْزَاؤُهَا وَتَنْبَعِثُ مَعَهُ. وَمِمَّا يُوجِبُ ٱنْبِعَاثَهَا أَيْضًا نُقْصَانُ ٱلْمَاءِ مِنْ تِلْكَ ٱلْبِرْكَةِ فَإِنَّ مَاءَهَا إِذَا ٱتَّصَلَتِ ٱلْجُرْيَةُ بِقَعْرِهَا فَٱنْسَحَبَ كَدَرُهَا وَرَاسِبُهَا وَإِذَا كَانَتْ غَمْرًا كَانَتِ ٱلْجُرْيَةُ مِنْ أَعْلَاهَا وَصَفْوِهَا فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ وَلِهٰذَا لَا تَأْتِي هٰذِهِ ٱلْخُضْرَةُ إِلَّا فِي ٱلسَّنَةِ ٱلَّتِي يَحْتَرِقُ فِيهَا ٱلنِّيلُ وَكُلَّمَا كَانَ ٱحْتِرَاقُهُ أَشَدَّ كَانَ ظُهُورُ ٱلْخُضْرَةِ أَكْثَرَ. وَفِي ٱلسَّنَةِ ٱلَّتِي يَكُونُ نِيلُهَا غَمْرًا لَا يَحْتَرِقُ وَلَا تُرَى ٱلْخُضْرَةُ لِأَنَّ كِثْرَتَهُ لِكِثْرَةِ مَبْدَأَيْهِ وَٱرْتِفَاعِ جِرْيَتِهِ عَنْ مَقَرِّ كُدُورَتِهِ

انتهى المنقول

من كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة بارض مصر

لابي اللطيف

www.marefa.org

مِنْ تُحْفَةِ ٱلنُّظَّارِ
فِي غَرَائِبِ ٱلْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ ٱلْأَسْفَارِ
لِٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱللَّوَاتِي
ٱلْمَعْرُوفِ بِٱبْنِ بَطُوطَةَ

وَصَلْنَا فِي أَوَّلِ جُمَادَى ٱلْأُولَى إِلَى مَدِينَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ حَرَسَهَا ٱللهُ وَهِيَ ٱلثَّغْرُ ٱلْمَحْرُوسُ. وَٱلْقُطْرُ ٱلْمَأْنُوسُ. ٱلْعَجِيبَةُ ٱلشَّأْنِ. ٱلْأَصِيلَةُ ٱلْبُنْيَانِ. بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ تَحْسِينٍ وَتَحْصِينٍ. وَمَآثِرِ دُنْيَا وَدِينٍ. كَرُمَتْ مَغَانِيهَا. وَلَطُفَتْ مَعَانِيهَا. وَجَمَعَتْ بَيْنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْإِحْكَامِ مَبَانِيهَا. فَهِيَ ٱلْفَرِيدَةُ تَجْلَى سَنَاهَا. وَٱلْحَرِيدَةُ تُجْلَى فِي حُلَاهَا. ٱلزَّاهِيَةُ بِجَمَالِهَا ٱلْمُغْرِبِ. ٱلْجَامِعَةُ لِمُفْتَرِقِ ٱلْمَحَاسِنِ لِتَوَسُّطِهَا بَيْنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ. فَكُلُّ بَدِيعَةٍ بِهَا أَجْنَلَاؤُهَا. وَكُلُّ طُرْفَةٍ فَإِلَيْهَا ٱنْتِهَاؤُهَا. وَقَدْ وَصَفَهَا ٱلنَّاسُ فَأَطْنَبُوا. وَصَنَّفُوا فِي عَجَائِبِهَا فَأَغْرَبُوا. وَحَسْبُ ٱلْمُشْرِفِ إِلَى ذٰلِكَ مَا سَطَّرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي كِتَابِ ٱلْمَسَالِكِ

ذِكْرُ أَبْوَابِهَا وَمَرْسَاهَا. وَلِمَدِينَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ. بَابُ ٱلسُّدْرَةِ وَإِلَيْهِ يُشْرَعُ طَرِيقُ ٱلْمَغْرِبِ. وَبَابُ رَشِيدٍ وَبَابُ ٱلْبَحْرِ وَٱلْبَابُ ٱلْأَخْضَرُ وَلَيْسَ يُفْتَحُ إِلَّا يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ فَيَخْرُجُ ٱلنَّاسُ مِنْهُ إِلَى زِيَارَةِ ٱلْقُبُورِ. وَلَهَا ٱلْمَرْسَى ٱلْعَظِيمُ ٱلشَّأْنِ وَلَمْ أَرَ فِي مَرَاسِي ٱلدُّنْيَا مِثْلَهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْسَى كُولَمَ وَقَالِيقُوطَ بِبِلَادِ ٱلْهِنْدِ. وَمَرْسَى سُوَدَاقَ بِبِلَادِ ٱلْأَتْرَاكِ وَمَرْسَى ٱلزَّيْتُونِ بِبِلَادِ ٱلصِّينِ وَسَيَقَعُ ذِكْرُهَا

ذِكْرُ ٱلْمَنَارِ. قَصَدْتُ ٱلْمَنَارَ فِي هٰذِهِ ٱلْوِجْهَةِ فَرَأَيْتُ أَحَدَ جَوَانِبِهِ

www.marefa.org

مُتَهَدِّمًا وَصِفَتُهُ أَنَّهُ بِنَاءٌ مُرَبَّعٌ ذَاهِبٌ فِي الْهَوَاءِ وَبَابُهُ مُرْتَفِعٌ عَلَى الْأَرْضِ. وَإِزَاءَ بَابِهِ بِنَاءٌ بِقَدْرِ ارْتِفَاعِهِ وُضِعَتْ بَيْنَهُمَا أَلْوَاحٌ خَشَبٌ يُعْبَرُ عَلَيْهَا إِلَى بَابِهِ. فَإِذَا أُزِيلَتْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ. وَدَاخِلَ الْبَابِ مَوْضِعٌ لِجُلُوسِ حَارِسِ الْمَنَارِ. وَدَاخِلَ الْمَنَارِ بُيُوتٌ كَثِيرَةٌ. وَعَرْضُ الْمَمَرِّ بِدَاخِلِهِ تِسْعَةُ أَشْبَارٍ. وَعَرْضُ الْحَائِطِ عَشَرَةُ أَشْبَارٍ. وَعَرْضُ الْمَنَارِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ شِبْرًا. وَهُوَ عَلَى تَلٍّ مُرْتَفِعٍ. وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ فَرْسَخٌ وَاحِدٌ فِي بَرٍّ مُسْتَطِيلٍ يُحِيطُ بِهِ الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ الْبَحْرُ بِسُورِ الْبَلَدِ فَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَى الْمَنَارَةِ فِي الْبَرِّ إِلَّا مِنَ الْمَدِينَةِ. وَفِي هَذَا الْبَرِّ الْمُتَّصِلِ بِالْمَنَارِ مَقْبَرَةُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ. وَقَصَدْتُ الْمَنَارَ عِنْدَ عَوْدِي إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَامَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ فَوَجَدْتُهُ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخَرَابُ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ دُخُولُهُ وَلَا الصُّعُودُ إِلَى بَابِهِ. وَكَانَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ رَحِمَهُ اللهُ قَدْ شَرَعَ فِي بِنَاءِ مَنَارٍ مِثْلِهِ بِإِزَائِهِ عَاقَهُ الْمَوْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ

ذِكْرُ عَمُودِ السَّوَارِي. وَمِنْ غَرَائِبِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ عَمُودُ الرُّخَامِ الْهَائِلُ الَّذِي بِخَارِجِهَا الْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِعَمُودِ السَّوَارِي وَهُوَ مُتَوَسِّطٌ فِي غَابَةِ نَخْلٍ. وَقَدِ امْتَازَ عَنْ شَجَرَاتِهَا سُمُوًّا وَارْتِفَاعًا. وَهُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ مُحْكَمَةُ النَّحْتِ قَدْ أُقِيمَ عَلَى قَوَاعِدِ حِجَارَةٍ مُرَبَّعَةٍ أَمْثَالِ الدَّكَاكِينِ الْعَظِيمَةِ وَلَا تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ وَضْعِهِ هُنَالِكَ وَلَا يُحَقَّقُ مَنْ وَضَعَهُ. قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ: أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِي الرَّحَّالِينَ أَنَّ أَحَدَ الرُّمَاةِ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ صَعِدَ إِلَى أَعْلَى ذَلِكَ الْعَمُودِ وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَكِنَانَتُهُ وَاسْتَقَرَّ هُنَالِكَ وَشَاعَ خَبَرُهُ.

www.marefa.org

فَاجْتَمَعَ الْجَمْعُ الْغَفِيرُ لِمُشَاهَدَتِهِ وَطَالَ الْعَجَبُ مِنْهُ وَخَفِيَ عَلَى النَّاسِ وَجْهُ احْتِيَالِهِ وَأَظُنُّهُ كَانَ خَائِفًا أَوْ طَالِبَ حَاجَةٍ. فَأَنْجَحَ لَهُ فِعْلُهُ الْوُصُولَ إِلَى قَصْدِهِ لِغَرَابَةِ مَا أَتَى بِهِ. وَكَيْفِيَّةُ احْتِيَالِهِ فِي صُعُودِهِ أَنَّهُ رَمَى بِنُشَّابَةٍ قَدْ عَقَدَ بِفُوقِهَا خَيْطًا طَوِيلًا. وَعَقَدَ بِطَرَفِ الْخَيْطِ حَبْلًا وَثِيقًا فَتَجَاوَزَتِ النُّشَّابَةُ أَعْلَا الْعَمُودِ مُعْتَرِضَةً عَلَيْهِ. وَوَقَعَتْ مِنَ الْجِهَةِ الْمُوَازِيَةِ لِلرَّامِي فَصَارَ الْخَيْطُ مُعْتَرِضًا عَلَى أَعْلَى الْعَمُودِ فَجَذَبَهُ حَتَّى تَوَسَّطَ الْحَبْلُ عَلَى الْعَمُودِ مَكَانَ الْخَيْطِ فَأَوْثَقَهُ مِنْ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ فِي الْأَرْضِ وَتَعَلَّقَ بِهِ صَاعِدًا مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى وَاسْتَقَرَّ بِأَعْلَاهُ وَجَذَبَ وَاسْتَصْحَبَ مَنِ احْتَمَلَهُ. فَلَمْ يَهْتَدِ النَّاسُ لِحِيلَتِهِ وَتَعَجَّبُوا مِنْ شَأْنِهِ

ثُمَّ سَافَرْتُ فِي أَرْضِ رَمْلَةَ إِلَى مَدِينَةِ دِمْيَاطَ. وَهِيَ مَدِينَةٌ فَسِيحَةُ الْأَقْطَارِ. مُتَنَوِّعَةُ الثِّمَارِ. عَجِيبَةُ التَّرْتِيبِ. أَخَذَتْ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ بِنَصِيبٍ. وَالنَّاسُ يَضْبِطُونَ اسْمَهَا بِإِعْجَامِ الدَّالِ. وَكَذَلِكَ ضَبَطَهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَلِيٍّ الرَّشَاطِيُّ. وَكَانَ شَرَفُ الدِّينِ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ ابْنُ خَلَفٍ الدِّمْيَاطِيُّ إِمَامُ الْمُحَدِّثِينَ يَضْبِطُهَا بِإِهْمَالِ الدَّالِ وَيَتْبَعُ ذَلِكَ بِأَنْ يَقُولَ خِلَافَ الرَّشَاطِيِّ وَغَيْرِهِ وَهُوَ أَعْرَفُ بِضَبْطِ اسْمِ بَلَدِهِ. وَمَدِينَةُ دِمْيَاطَ عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ وَأَهْلُ الدُّورِ الْمُوَالِيَةِ لَهُ يَسْتَقُونَ مِنْهُ الْمَاءَ بِالدِّلَاءِ. وَكَثِيرٌ مِنْ دُورِهَا بِهَا دَرَكَاتٌ يُنْزَلُ فِيهَا إِلَى النِّيلِ. وَشَجَرُ الْمَوْزِ بِهَا كَثِيرٌ يُحْمَلُ ثَمَرُهُ إِلَى مِصْرَ فِي الْمَرَاكِبِ وَغَنَمُهَا سَائِمَةٌ هُمَلًا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَلِهَذَا يُقَالُ فِي دِمْيَاطَ سُورُهَا حَلْوٌ وَكِلَابُهَا غَنَمٌ. وَإِذَا دَخَلَهَا أَحَدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى الْخُرُوجِ

www.marefa.org

عَنْهَا إِلَّا بِطَابِعِ ٱلْوَالِي. فَمَنْ كَانَ مِنَ ٱلنَّاسِ مُعْتَبَرًا طُبِعَ لَهُ فِي قِطْعَةِ كَاغِدٍ يَسْتَظْهِرُ بِهِ لِحُرَّاسِ بَابِهَا وَغَيْرُهُمْ يُطْبَعُ عَلَى ذِرَاعِهِ فَيَسْتَظْهِرُ بِهِ. وَٱلطَّيْرُ ٱلْبَحْرِيُّ بِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ كَثِيرٌ مُتَنَاهِي ٱلسِّمَنِ وَبِهَا ٱلْأَلْبَانُ ٱلْجَامُوسِيَّةُ ٱلَّتِي لَا مَثِيلَ لَهَا فِي عُذُوبَةِ ٱلطَّعْمِ وَطِيبِ ٱلْمَذَاقِ وَبِهَا ٱلْحُوتُ ٱلْبُورِيُّ يُحْمَلُ مِنْهَا إِلَى ٱلشَّامِ وَبِلَادِ ٱلرُّومِ وَمِصْرَ. وَبِخَارِجِهَا جَزِيرَةٌ بَيْنَ ٱلْبَحْرِ وَٱلنِّيلِ تُسَمَّى ٱلْبَرْزَخَ بِهَا مَسْجِدٌ وَزَاوِيَةٌ لَقِيتُ بِهَا شَيْخَهَا ٱلْمَعْرُوفَ بِٱبْنِ قُفْلٍ. وَحَضَرْتُ عِنْدَهُ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْفُقَرَاءِ ٱلْفُضَلَاءِ ٱلْمُتَعَبِّدِينَ ٱلْأَخْيَارِ قَطَعُوا لَيْلَتَهُمْ صَلَوَةً وَقِرَاءَةً وَذِكْرًا. وَدِمْيَاطُ هٰذِهِ حَدِيثَةُ ٱلْبِنَاءِ وَٱلْمَدِينَةُ ٱلْقَدِيمَةُ هِيَ ٱلَّتِي خَرَّبَهَا ٱلْأَفْرَنْجُ عَلَى عَهْدِ ٱلْمَلِكِ صَالِحٍ وَبِهَا زَاوِيَةُ ٱلشَّيْخِ جَمَالِ ٱلدِّينِ ٱلسَّاوِيِّ قُدْوَةِ ٱلطَّائِفَةِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱلْقَرَلَنْدَرِيَّةِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ يَحْلِقُونَ لِحَاهُمْ وَحَوَاجِبَهُمْ وَيَسْكُنُ ٱلزَّاوِيَةَ فِي هٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلشَّيْخُ فَخْرٌ ٱلتَّكْرُورِيُّ

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ كُورَ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى سَاحِلِ ٱلنِّيلِ وَٱلْكَافُ ٱلذِّبِ فِي ٱسْمِهَا مَضْمُومٌ وَنَزَلْتُ بِخَارِجِهَا وَلَحِقَنِي هُنَالِكَ فَارِسٌ وَجَّهَهُ إِلَيَّ ٱلْأَمِيرُ ٱلْمُحْسِنِيُّ فَقَالَ لِي إِنَّ ٱلْأَمِيرَ سَأَلَ عَنْكَ وَعَرَفَ بِسِيرَتِكَ فَبَعَثَ إِلَيْكَ بِهٰذِهِ ٱلنَّفَقَةِ وَدَفَعَ إِلَيَّ جُمْلَةَ دَرَاهِمَ جَزَاهُ ٱللهُ خَيْرًا

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ أَشْمُونِ ٱلرُّمَّانِ وَضَبْطُ ٱسْمِهَا بِفَتْحِ ٱلْهَمْزَةِ وَإِسْكَانِ ٱلشِّينِ ٱلْمُعْجَمَةِ وَنُسِبَتْ إِلَى ٱلرُّمَّانِ لِكَثْرَتِهِ بِهَا وَمِنْهَا يُحْمَلُ إِلَى مِصْرَ. وَهِيَ مَدِينَةٌ عَتِيقَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى خَلِيجٍ مِنْ فُرُوعِ ٱلنِّيلِ وَبِهَا قَنْطَرَةُ خَشَبٍ تَرْسُو ٱلْمَرَاكِبُ عِنْدَهَا فَإِذَا كَانَ ٱلْعَصْرُ رُفِعَتْ تِلْكَ ٱلْخَشَبُ وَجَازَتِ

www.marefa.org

ٱلْمَرَاكِبُ صَاعِدَةً وَمُنْحَدِرَةً وَبِهٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ قَاضِي ٱلْقُضَاةِ وَوَالِي ٱلْوِلَايَةِ. ثُمَّ سَافَرْتُ عَنْهَا إِلَى مَدِينَةِ سَمَنُودَ وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ ٱلنِّيلِ كَثِيرَةُ ٱلْمَرَاكِبِ حَسَنَةُ ٱلْأَسْوَاقِ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْمَحَلَّةِ ٱلْكَبِيرَةِ ثَلَاثَةُ فَرَاسِخَ وَضَبْطُ ٱسْمِهَا بِفَتْحِ ٱلسِّينِ ٱلْمُهْمَلِ وَٱلْمِيمِ وَتَشْدِيدِ ٱلنُّونِ وَضَمِّهَا وَوَاوٍ وَدَالٍ مُهْمَلٍ

مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ رَكِبْتُ ٱلنِّيلَ مُصَعِّدًا إِلَى مِصْرَ مَا بَيْنَ مَدَائِنَ وَقُرًى مُنْتَظِمَةٍ مُتَّصِلٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَلَا يَفْتَقِرُ رَاكِبُ ٱلنِّيلِ إِلَى ٱسْتِصْحَابِ ٱلزَّادِ لِأَنَّهُ مَهْمَا أَرَادَ ٱلنُّزُولَ بِٱلشَّاطِئِ نَزَلَ لِلْوُضُوءِ وَٱلصَّلٰوةِ وَشِرَاءِ ٱلزَّادِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْأَسْوَاقُ مُتَّصِلَةٌ مِنْ مَدِينَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ إِلَى مِصْرَ وَمِنْ مِصْرَ إِلَى مَدِينَةِ أَسْوَانَ مِنَ ٱلصَّعِيدِ. ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى مِصْرَ هِيَ أُمُّ ٱلْبِلَادِ وَقَرَارَةُ فِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ذَاتُ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْعَرِيضَةِ. وَٱلْبِلَادِ ٱلْأَرِيضَةِ. ٱلْمُتَنَاهِيَةُ فِي كَثْرَةِ ٱلْعِمَارَةِ. ٱلْمُتَبَاهِيَةُ بِٱلْحُسْنِ وَٱلنَّضَارَةِ. مَجْمَعُ ٱلْوَارِدِ وَٱلصَّادِرِ. وَمَحَطُّ رَحْلِ ٱلضَّعِيفِ وَٱلْقَادِرِ. وَبِهَا مَا شِئْتَ مِنْ عَالِمٍ وَجَاهِلٍ. وَجَادٍّ وَهَازِلٍ. وَحَلِيمٍ وَسَفِيهٍ. وَوَضِيعٍ وَنَبِيهٍ. وَشَرِيفٍ وَمَشْرُوفٍ. وَمُنْكَرٍ وَمَعْرُوفٍ. تَمُوجُ مَوْجَ ٱلْبَحْرِ بِسُكَّانِهَا. وَتَكَادُ أَنْ تَضِيقَ بِهِمْ عَلَى سَعَةِ مَكَانِهَا وَإِمْكَانِهَا. شَبَابُهَا يَجِدُّ عَلَى طُولِ ٱلْعَهْدِ. وَكَوْكَبُ تَعْدِيلِهَا لَا يَبْرَحُ عَنْ مَنْزِلِ ٱلسَّعْدِ. قَهَرَتْ قَاهِرَتُهَا ٱلْأُمَمَ. وَتَمَلَّكَتْ مُلُوكُهَا نَوَاحِيَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ. وَلَهَا خُصُوصِيَّةُ ٱلنِّيلِ ٱلَّتِي جَلَّ خَطَرُهَا. وَأَغْنَاهَا عَنْ أَنْ يَسْتَمِدَّ ٱلْقَطْرُ قَطْرُهَا. وَأَرْضُهَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِجِدِّ ٱلسَّيْرِ. وَفِيهَا يَقُولُ نَاصِرُ ٱلدِّينِ بْنُ نَاهِضٍ

شَاطِئُ مِصْرَ جَنَّةٌ مَا مِثْلُهَا مِنْ بَلَدِ

www.marefa.org

لَاسِيَّمَا مُذْ زُخْرِفَتْ بِنِيلِهَا ٱلْمُطَّرِدِ
وَلِلرِّيَاحِ فَوْقَهُ سَوَابِغٌ مِنْ زَرَدِ
مَسْرُودَةٌ مَا مَسَّهَا دَاوُدُهَا بِمِبْرَدِ
سَائِلَةٌ هَوَاؤُهَا يُرْعِدُ عَارِي ٱلْجَسَدِ
وَٱلْفُلْكُ كَٱلْأَفْلَاكِ بَيْنَ حَادِرٍ وَمُصْعِدِ

رَجَعَ وَيُقَالُ إِنَّ بِمِصْرَ مِنَ ٱلسَّقَّائِينَ عَلَى ٱلْجِمَالِ ٱثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ سَقَّاءٍ وَإِنَّ بِهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ مُكَارٍ. وَإِنَّ بِنِيلِهَا مِنَ ٱلْمَرَاكِبِ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا لِلسُّلْطَانِ وَٱلرَّعِيَّةِ تَمُرُّ صَاعِدَةً إِلَى ٱلصَّعِيدِ وَمُنْحَدِرَةً إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَدِمْيَاطَ بِأَنْوَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ وَٱلْمَرَافِقِ. وَعَلَى ضَفَّةِ ٱلنِّيلِ مِمَّا يُوَاجِهُ مِصْرَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلرَّوْضَةِ وَهُوَ مَكَانُ ٱلنُّزْهَةِ وَٱلتَّفَرُّجِ. وَبِهِ ٱلْبَسَاتِينُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْحَسَنَةُ. وَأَهْلُ مِصْرَ ذَوُو طَرَبٍ وَسُرُورٍ وَلَهْوٍ شَاهَدْتُ مَرَّةً فُرْجَةً بِسَبَبِ بُرْءِ ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ مِنْ كَسْرٍ أَصَابَ يَدَهُ فَزَيَّنَ كُلُّ أَهْلِ سُوقٍ سُوقَهُمْ وَعَلَّقُوا بِحَوَانِيتِهِمِ ٱلْحُلَلَ وَٱلْحُلَى وَثِيَابَ ٱلْحَرِيرِ وَبَقُوا عَلَى ذَٰلِكَ أَيَّامًا

ذِكْرُ مَسْجِدِ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ وَٱلْمَدَارِسِ وَٱلْمَارِسْتَانِ وَٱلزَّوَايَا

وَمَسْجِدُ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ مَسْجِدٌ شَرِيفٌ كَبِيرُ ٱلْقَدْرِ. شَهِيرُ ٱلذِّكْرِ تُقَامُ فِيهِ ٱلْجُمُعَةُ. وَٱلطَّرِيقُ يَعْتَرِضُهُ مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ. وَبِشَرْقِيِّهِ ٱلزَّاوِيَةُ حَيْثُ كَانَ يُدَرِّسُ ٱلْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلشَّافِعِيُّ. وَأَمَّا ٱلْمَدَارِسُ بِمِصْرَ فَلَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِحَصْرِهَا لِكَثْرَتِهَا. وَأَمَّا ٱلْمَارِسْتَانُ ٱلَّذِي بَيْنَ ٱلْقَصْرَيْنِ عِنْدَ تُرْبَةِ ٱلْمَلِكِ ٱلْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ فَيَعْجِزُ ٱلْوَاصِفُ عَنْ مَحَاسِنِهِ. وَقَدْ أُعِدَّ فِيهِ مِنَ ٱلْمَرَافِقِ وَٱلْأَدْوِيَةِ مَا لَا يُحْصَرُ وَيُذْكَرُ أَنَّ مَجْبَاهُ أَلْفُ دِينَارٍ كُلَّ

www.marefa.org

يَوْمٍ . وَأَمَّا ٱلزَّوَايَا فَكَثِيرَةٌ وَهُمْ يُسَمُّونَهَا ٱلْخَوَانِقَ وَاحِدَتُهَا خَانِقَةٌ وَٱلْأُمَرَاءُ بِمِصْرَ يَتَنَافَسُونَ فِي بِنَاءِ ٱلزَّوَايَا . وَكُلُّ زَاوِيَةٍ بِمِصْرَ مُعَيَّنَةٌ لِطَائِفَةٍ مِنَ ٱلْفُقَرَاءِ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْأَعَاجِمُ وَهُمْ أَهْلُ أَدَبٍ وَمَعْرِفَةٍ بِطَرِيقَةِ ٱلتَّصَوُّفِ

وَلِكُلِّ زَاوِيَةٍ شَيْخٌ وَحَارِسٌ وَتَرْتِيبُ أُمُورِهِمْ عَجِيبٌ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ فِي ٱلطَّعَامِ أَنَّهُ يَأْتِي خَدِمُ ٱلزَّاوِيَةِ إِلَى ٱلْفُقَرَاءِ صَبَاحًا فَيُعَيِّنُ لَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ ٱلطَّعَامِ . فَإِذَا ٱجْتَمَعُوا لِلْأَكْلِ جَعَلُوا لِكُلِّ إِنْسَانٍ خُبْزَهُ وَمَرَقَهُ فِي إِنَاءٍ عَلَى حِدَةٍ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ . وَطَعَامُهُمْ مَرَّتَانِ فِي ٱلْيَوْمِ وَلَهُمْ كِسْوَةُ ٱلشِّتَاءِ وَكِسْوَةُ ٱلصَّيْفِ وَمُرَتَّبٌ شَهْرِيٌّ مِنْ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا لِلْوَاحِدِ فِي ٱلشَّهْرِ إِلَى عِشْرِينَ وَلَهُمُ ٱلْحَلَاوَةُ مِنَ ٱلسُّكَّرِ فِي كُلِّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ وَٱلصَّابُونُ لِغَسْلِ ثِيَابِهِمْ وَٱلْأُجْرَةُ لِدُخُولِ ٱلْحَمَّامِ وَٱلزَّيْتُ لِلِٱسْتِصْبَاحِ وَهُمْ أَعْزَابٌ . وَلِلْمُتَزَوِّجِينَ زَوَايَا عَلَى حِدَةٍ وَمِنَ ٱلْمُشْتَرَطِ عَلَيْهِمْ حُضُورُ ٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ وَٱلْمَبِيتُ بِٱلزَّاوِيَةِ وَأَجْنِحَتُهُمْ بِقُبَّةٍ دَاخِلَ ٱلزَّاوِيَةِ . وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَجْلِسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَجَّادَةٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِ وَإِذَا صَلَّوْا صَلَاةَ ٱلصُّبْحِ قَرَأُوا سُورَةَ ٱلْفَتْحِ وَسُورَةَ ٱلْمُلْكِ وَسُورَةَ عَمَّ . ثُمَّ يُؤْتَى بِنُسَخٍ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مُجَزَّأَةٍ فَيَأْخُذُ كُلُّ فَقِيرٍ جُزْءًا وَيَخْتِمُونَ ٱلْقُرْآنَ وَيَذْكُرُونَ . ثُمَّ يَقْرَأُ ٱلْقُرَّاءُ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ . وَمِثْلَ ذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ . وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ مَعَ ٱلْقَادِمِ أَنَّهُ يَأْتِي بَابَ ٱلزَّاوِيَةِ فَيَقِفُ بِهِ مَشْدُودَ ٱلْوَسَطِ وَعَلَى كَاهِلِهِ سَجَّادَةٌ وَبِيُمْنَاهُ ٱلْعُكَّازُ وَبِيُسْرَاهُ ٱلْإِبْرِيقُ فَيُعْلِمُ ٱلْبَوَّابُ خَدِمَ ٱلزَّاوِيَةِ بِمَكَانِهِ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُهُ مِنْ أَيِّ ٱلْبِلَادِ أَتَى وَأَيَّ ٱلزَّوَايَا نَزَلَ فِي طَرِيقِهِ وَمَنْ شَيْخُهُ . فَإِذَا عَرَفَ صِحَّةَ قَوْلِهِ أَدْخَلَهُ ٱلزَّاوِيَةَ وَفَرَشَ

www.marefa.org

لَهُ سَجَّادَتَهُ فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَأَرَاهُ مَوْضِعَ الطَّهَارَةِ فَيُجَدِّدُ الْوُضُوءَ وَيَأْتِي إِلَى سَجَّادَتِهِ فَيُحِلُّ وَسَطَهُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيُصَافِحُ الشَّيْخَ وَمَنْ حَضَرَ وَيَقْعُدُ مَعَهُمْ . وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ أَخَذَ الْخَادِمُ جَمِيعَ سَجَّاجِيدِهِمْ فَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَيَفْرُشُهَا لَهُمْ هُنَالِكَ وَيَخْرُجُونَ مُجْتَمِعِينَ وَمَعَهُمْ شَيْخُهُمْ فَيَأْتُونَ الْمَسْجِدَ وَيُصَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى سَجَّادَتِهِ فَإِذَا فَرَغُوا مِنَ الصَّلٰوةِ قَرَأُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَادَتِهِمْ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ مُجْتَمِعِينَ إِلَى الزَّاوِيَةِ وَمَعَهُمْ شَيْخُهُمْ

ثُمَّ كَانَ سَفَرِي مِنْ مِصْرَ عَلَى طَرِيقِ الصَّعِيدِ بِرَسْمِ الْحِجَازِ الشَّرِيفِ فَبِتُّ لَيْلَةَ خُرُوجِي بِالرِّبَاطِ الَّذِي بَنَاهُ الصَّاحِبُ تَاجُ الدِّينِ بْنُ حِنَّا بِدَيْرِ الطِّينِ وَهُوَ رِبَاطٌ عَظِيمٌ بَنَاهُ عَلَى مَفَاخِرَ عَظِيمَةٍ وَآثَارٍ كَرِيمَةٍ. ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ الرِّبَاطِ الْمَذْكُورِ وَمَرَرْتُ بِمُنْيَةِ الْفَائِدِ وَهِيَ بَلْدَةٌ صَغِيرَةٌ عَلَى سَاحِلِ النِّيلِ. ثُمَّ سِرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ بُوشَ وَضَبْطُهَا بِضَمِّ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَآخِرُهَا شِينٌ مُعْجَمَةٌ وَهٰذِهِ الْمَدِينَةُ أَكْثَرُ بِلَادِ مِصْرَ كَتَّانًا وَمِنْهَا يُجْلَبُ إِلَى سَائِرِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَإِلَى أَفْرِيقِيَّةَ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ دَلَاصَ وَضَبْطُ اسْمِهَا بِفَتْحِ الدَّالِ الْمُهْمَلِ وَآخِرُهَا صَادٌ مُهْمَلٌ وَهٰذِهِ الْمَدِينَةُ كَثِيرَةُ الْكَتَّانِ أَيْضًا بِمِثْلِ الَّذِي ذَكَرْنَا قَبْلَهَا وَيُحْمَلُ أَيْضًا مِنْهَا إِلَى دِيَارِ مِصْرَ وَأَفْرِيقِيَّةَ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ بِبَا ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ الْبَهْنَسَةِ وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ وَبَسَاتِينُهَا كَثِيرَةٌ وَتُصْنَعُ بِهٰذِهِ الْمَدِينَةِ ثِيَابُ الصُّوفِ الْجَيِّدَةُ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مُنْيَةِ ابْنِ خَصِيبٍ وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ

www.marefa.org

ٱلسَّاحَةِ . مُتَّسِعَةُ ٱلْمَسَاحَةِ . مَبْنِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ ٱلنِّيلِ . وَحَقِيقٌ حَقِيقٌ لَهَا عَلَى بِلَادِ ٱلصَّعِيدِ ٱلتَّفْضِيلُ . بِهَا ٱلْمَدَارِسُ وَٱلْمَشَاهِدُ . وَٱلزَّوَايَا وَٱلْمَسَاجِدُ . وَكَانَتْ فِي ٱلْقَدِيمِ مُنْيَةً لِخَصِيبٍ عَامِلِ مِصْرَ

حِكَايَةُ خَصِيبٍ

يُذْكَرُ أَنَّ أَحَدَ ٱلْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ غَضِبَ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ فَآلَى أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ أَحْقَرَ عَبِيدِهِ وَأَصْغَرَهُمْ شَأْنًا قَصْدًا لِإِرْذَالِهِمْ وَٱلتَّنْكِيلِ . وَكَانَ خَصِيبٌ أَحْقَرَهُمْ إِذْ كَانَ يَتَوَلَّى تَسْخِينَ ٱلْحَمَّامِ . فَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَّرَهُ عَلَى مِصْرَ وَظَنَّهُ إِنَّهُ يَسِيرُ فِيهِمْ سِيرَةَ سُوءٍ وَيَقْصِدُهُمْ بِٱلْإِذَاءِ حَسْبَمَا هُوَ ٱلْمَعْهُودُ مِمَّنْ وَلِيَ عَنْ غَيْرِ عَهْدٍ بِٱلْعِزِّ . فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ خَصِيبٌ بِمِصْرَ سَارَ فِي أَهْلِهَا أَحْسَنَ سِيرَةٍ وَشُهِرَ بِٱلْكَرَمِ وَٱلْإِيثَارِ فَكَانَ أَقَارِبُ ٱلْخُلَفَاءِ وَسِوَاهُمْ يَقْصِدُونَهُ فَيُجْزِلُ ٱلْعَطَاءَ لَهُمْ وَيَعُودُونَ إِلَى بَغْدَادَ شَاكِرِينَ لِمَا أَوْلَاهُمْ . وَإِنَّ ٱلْخَلِيفَةَ ٱفْتَقَدَ بَعْضَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ وَغَابَ عَنْهُ مُدَّةً . ثُمَّ أَتَاهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مَغِيبِهِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَصَدَ خَصِيبًا وَذَكَرَ لَهُ مَا أَعْطَاهُ خَصِيبٌ وَكَانَ عَطَاءً جَزِيلًا . فَغَضِبَ ٱلْخَلِيفَةُ وَأَمَرَ بِسَمْلِ عَيْنَيْ خَصِيبٍ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بَغْدَادَ وَأَنْ يُطْرَحَ فِي أَسْوَاقِهَا . فَلَمَّا وَرَدَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْقَبْضِ عَلَيْهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَنْزِلِهِ . وَكَانَتْ بِيَدِهِ يَاقُوتَةٌ عَظِيمَةُ ٱلشَّأْنِ فَخَبَّأَهَا عِنْدَهُ وَخَاطَهَا فِي ثَوْبٍ لَهُ لَيْلًا وَسُمِلَتْ عَيْنَاهُ وَطُرِحَ فِي أَسْوَاقِ بَغْدَادَ . فَمَرَّ بِهِ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ لَهُ يَا خَصِيبُ إِنِّي كُنْتُ قَصَدْتُ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ مَادِحًا لَكَ بِقَصِيدَةٍ فَوَافَقْتُ ٱنْصِرَافَكَ عَنْهَا وَأُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَهَا . فَقَالَ كَيْفَ بِسَمَاعِهَا وَأَنَا عَلَى مَا

www.marefa.org

تَرَاهُ: فَقَالَ إِنَّمَا قَصْدِي سَمَاعُكَ لَهَا. وَأَمَّا ٱلْعَطَاءُ فَقَدْ أَعْطَيْتَ ٱلنَّاسَ وَأَجْزَلْتَ جَزَاكَ ٱللهُ خَيْرًا: قَالَ فَٱفْعَلْ فَأَنْشَدَهُ

أَنْتَ ٱلْخَصِيبُ وَهٰذِهِ مِصْرُ فَتَدَفَّقَا فَكِلَاكُمَا بَحْرُ

فَلَمَّا أَتَى عَلَى آخِرِهَا قَالَ لَهُ ٱفْتَنَّ هٰذِهِ ٱلْخِيَاطَةَ فَفَعَلَ ذٰلِكَ فَقَالَ لَهُ خُذِ ٱلْيَاقُوتَةَ: فَأَبَى فَأَقْسَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهَا فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ بِهَا إِلَى سُوقِ ٱلْجَوْهَرِيِّينَ. فَلَمَّا عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ قَالُوا لَهُ إِنَّ هٰذِهِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْخَلِيفَةِ. فَرَفَعُوا أَمْرَهَا إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ فَأَمَرَ ٱلْخَلِيفَةُ بِإِحْضَارِ ٱلشَّاعِرِ وَٱسْتَفْهَمَهُ عَنْ شَأْنِ ٱلْيَاقُوتَةِ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهَا. فَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِخَصِيبٍ وَأَمَرَ بِمُثُولِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَجْزَلَ لَهُ ٱلْعَطَاءَ وَحَكَّمَهُ فِيمَا يُرِيدُ فَرَغِبَ أَنْ يُعْطِيَهُ هٰذِهِ ٱلْمُنْيَةَ فَفَعَلَ ذٰلِكَ وَسَكَنَهَا خَصِيبٌ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَأَوْرَثَهَا عَقِبَهُ إِلَى أَنِ ٱنْقَرَضُوا

فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ بَلَبِّيسَ وَضَبْطُ ٱسْمِهَا بِفَتْحِ ٱلْمُوَحَّدَةِ ٱلْأُولَى وَفَتْحِ ٱلثَّانِيَةِ ثُمَّ بَاءٍ آخِرَ ٱلْحُرُوفِ مُسَكَّنَةٍ وَسِينٍ مُهْمَلٍ وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ ذَاتُ بَسَاتِينَ كَثِيرَةٍ وَلَمْ أَلْقَ بِهَا مَنْ يُحِبُّ ذِكْرَهُ. ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى ٱلصَّالِحِيَّةِ وَمِنْهَا دَخَلْنَا ٱلرِّمَالَ وَنَزَلْنَا مَنَازِلَهَا مِثْلَ ٱلسَّوَادَةِ وَٱلْوَرَّادَةِ وَٱلْمُطَيْلِبِ وَٱلْعَرِيشِ وَٱلْحُرُوبَةِ وَبِكُلِّ مَنْزِلٍ مِنْهَا فُنْدُقٌ وَهُمْ يُسَمُّونَهُ ٱلْخَانَ يَنْزِلُهُ ٱلْمُسَافِرُونَ بِدَوَابِّهِمْ. وَبِخَارِجِ كُلِّ خَانٍ سَانِيَةٌ لِلسَّبِيلِ وَحَانُوتٌ يَشْتَرِي مِنْهَا ٱلْمُسَافِرُ مَا يَحْتَاجُهُ لِنَفْسِهِ وَدَابَّتِهِ. وَمِنْ مَنَازِلِهَا قَطْيَا ٱلْمَشْهُورَةُ وَهِيَ بِفَتْحِ ٱلْقَافِ وَسُكُونِ ٱلطَّاءِ وَبَاءٍ آخِرَ ٱلْحُرُوفِ مَفْتُوحَةٍ وَأَلِفٍ وَٱلنَّاسُ يُبْدِلُونَ أَلِفَهَا هَاءَ تَأْنِيثٍ. وَبِهَا تُؤْخَذُ ٱلزَّكَاةُ مِنَ ٱلتُّجَّارِ

www.marefa.org

وَتُفَتِّشُ أَمْتِعَتَهُمْ وَتَبْحَثُ عَمَّا لَدَيْهِمْ أَشَدَّ الْبَحْثِ. وَفِيهَا الدَّوَاوِينُ وَالْعُمَّالُ وَالْكُتَّابُ وَالشُّهُودُ. وَمَجْبَاهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفُ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الشَّامِ إِلَّا بِبَرَاءَةٍ مِنْ مِصْرَ وَلَا إِلَى مِصْرَ إِلَّا بِبَرَاءَةٍ مِنَ الشَّامِ احْتِيَاطًا عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ وَتَوَقِّيًا مِنَ الْجَوَاسِيسِ الْعِرَاقِيِّينَ. وَطَرِيقُهَا فِي ضَمَانِ الْعَرَبِ قَدْ وُكِّلُوا بِحِفْظِهِ. فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ مَسَحُوا عَلَى الرَّمْلِ لَا يَبْقَى بِهِ أَثَرٌ. ثُمَّ يَأْتِي الْأَمِيرُ صَبَاحًا فَيَنْظُرُ إِلَى الرَّمْلِ فَإِنْ وَجَدَ بِهِ أَثَرًا طَلَبَ الْعَرَبَ بِإِحْضَارِ مُؤَثِّرِهِ فَيَذْهَبُونَ فِي طَلَبِهِ فَلَا يَفُوتُهُمْ فَيَأْتُونَ بِهِ الْأَمِيرَ فَيُعَاقِبُهُ بِمَا يَشَاءُ

وَكَانَ بِهَا فِي عَهْدِ وُصُولِي إِلَيْهَا عِزُّ الدِّينِ أُسْتَاذُ الدَّارِ أَقْمَارِيٌّ مِنْ خِيَارِ الْأُمَرَاءِ أَضَافَنِي وَأَكْرَمَنِي وَأَبَاحَ الْجَوَازَ لِمَنْ كَانَ مَعِي. وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَبْدُ الْجَلِيلِ الْمَغْرِبِيُّ الْوَقَّافُ وَهُوَ يَعْرِفُ الْمَغَارِبَةَ وَبِلَادَهُمْ فَيَسْأَلُ مَنْ وَرَدَ مِنْهُمْ مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ هُوَ لِئَلَّا يَلْبِسَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَغَارِبَةَ لَا يُعْتَرَضُونَ فِي جَوَازِهِمْ عَلَى قَطْيَا

ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ غَزَّةَ وَهِيَ أَوَّلُ بِلَادِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي مِصْرَ مُتَّسِعَةُ الْأَقْطَارِ كَثِيرَةُ الْعِمَارَةِ حَسَنَةُ الْأَسْوَاقِ بِهَا الْمَسَاجِدُ الْعَدِيدَةُ وَلَا سُورَ عَلَيْهَا. وَكَانَ بِهَا مَسْجِدٌ جَامِعٌ حَسَنٌ. وَالْمَسْجِدُ الَّذِي تُقَامُ الْآنَ بِهِ الْجُمُعَةُ فِيهَا بَنَاهُ الْأَمِيرُ الْمُعَظَّمُ الْجَاوِلِيُّ وَهُوَ أَنِيقُ الْبِنَاءِ مُحْكَمُ الصَّنْعَةِ وَمِنْبَرُهُ مِنَ الرُّخَامِ الْأَبْيَضِ وَقَاضِي غَزَّةَ بَدْرُ الدِّينِ السَّلَّخِيُّ الْحَوْرَانِيُّ وَمُدَرِّسُهَا عَلَمُ الدِّينِ بْنُ سَالِمٍ. وَبَنُو سَالِمٍ كُبَرَاءُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَمِنْهُمْ شَمْسُ الدِّينِ قَاضِي الْقُدْسِ

www.marefa.org

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ غَزَّةَ إِلَى مَدِينَةِ ٱلْخَلِيلِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا وَهِيَ مَدِينَةٌ صَغِيرَةُ ٱلسَّاحَةِ كَبِيرَةُ ٱلْمِقْدَارِ. مُشْرِقَةُ ٱلْأَنْوَارِ حَسَنَةُ ٱلْمَنْظَرِ. عَجِيبَةُ ٱلْمَخْبَرِ فِي بَطْنِ وَادٍ. وَمَسْجِدُهَا أَنِيقُ ٱلصَّنْعَةِ مُحْكَمُ ٱلْعَمَلِ. بَدِيعُ ٱلْحُسْنِ. سَامِي ٱلِارْتِفَاعِ مَبْنِيٌّ بِٱلصَّخْرِ ٱلْمَنْحُوتِ فِي أَحَدِ أَرْكَانِهِ صَخْرَةٌ أَحَدُ أَقْطَارِهَا سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ شِبْرًا. وَيُقَالُ إِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَمَرَ ٱلْجِنَّ بِبِنَائِهِ. وَفِي دَاخِلِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْغَارُ ٱلْمُكَرَّمُ ٱلْمُقَدَّسُ فِيهِ قَبْرُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ وَيُقَابِلُهَا قُبُورٌ ثَلَاثَةٌ هِيَ قُبُورُ أَزْوَاجِهِمْ وَعَنْ يَمِينِ ٱلْمِنْبَرِ بِلِصْقِ جِدَارِ ٱلْقِبْلَةِ مَوْضِعٌ يُهْبَطُ مِنْهُ عَلَى دَرَجِ رُخَامٍ مُحْكَمَةٍ إِلَى مَسْلَكٍ ضَيِّقٍ يُفْضِي إِلَى سَاحَةٍ مَفْرُوشَةٍ بِٱلرُّخَامِ فِيهَا صُوَرُ ٱلْقُبُورِ ٱلثَّلَاثَةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا مُحَاذِيَةٌ لَهَا. وَكَانَ هُنَالِكَ مَسْلَكٌ إِلَى ٱلْغَارِ ٱلْمُبَارَكِ وَهُوَ ٱلْآنَ مَسْدُودٌ وَقَدْ نَزَلْتُ بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَرَّاتٍ

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ ٱلرَّمْلَةِ وَهِيَ فَلَسْطِينُ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ. كَثِيرَةُ ٱلْخَيْرَاتِ. حَسَنَةُ ٱلْأَسْوَاقِ. وَبِهَا ٱلْجَامِعُ ٱلْأَبْيَضُ وَيُقَالُ إِنَّ فِي قِبْلَتِهِ ثَلَاثَمِائَةٍ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ مَدْفُونِينَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. وَفِيهَا مِنْ كِبَارِ ٱلْفُقَهَاءِ مَجْدُ ٱلدِّينِ ٱلنَّابُلُسِيُّ. ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ نَابُلُسَ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةُ ٱلْأَشْجَارِ. مُطَّرِدَةُ ٱلْأَنْهَارِ. مِنْ أَكْثَرِ بِلَادِ ٱلشَّامِ زَيْتُونًا. وَمِنْهَا يُحْمَلُ ٱلزَّيْتُ إِلَى مِصْرَ وَدِمَشْقَ. وَبِهَا تُصْنَعُ حَلْوَاءُ ٱلْخَرُّوبِ وَتُجْلَبُ إِلَى دِمَشْقَ وَغَيْرِهَا. وَكَيْفِيَّةُ عَمَلِهَا أَنْ يُطْبَخَ ٱلْخَرُّوبُ ثُمَّ يُعْصَرَ وَيُؤْخَذَ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ ٱلرُّبِّ فَتُصْنَعَ مِنْهُ ٱلْحَلْوَاءُ وَيُجْلَبُ ذٰلِكَ ٱلرُّبُّ أَيْضًا إِلَى مِصْرَ وَٱلشَّامِ. وَبِهَا ٱلْبِطِّيخُ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَيْهَا وَهُوَ طَيِّبٌ عَجِيبٌ. وَمَسْجِدُهَا

www.marefa.org

ٱلْجَامِعُ فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱلْإِتْقَانِ وَٱلْحُسْنِ . وَفِي وَسَطِهِ بِرْكَةُ مَاءٍ عَذْبٍ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ عَجْلُونَ وَهِيَ بِفَتْحِ ٱلْعَيْنِ ٱلْمُهْمَلَةِ . وَهِيَ مَدِينَةٌ حَسَنَةٌ لَهَا أَسْوَاقٌ كَثِيرَةٌ . وَقَلْعَةٌ خَطِيرَةٌ وَيَشُقُّهَا نَهْرٌ مَاؤُهُ عَذْبٌ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا بِقَصْدِ ٱللَّاذِقِيَّةِ فَمَرَرْتُ بِٱلْغَوْرِ وَهُوَ وَادٍ بَيْنَ تِلَالٍ بِهِ قَبْرُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ ٱلْجَرَّاحِ أَمِينِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ زُرْنَاهُ وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ فِيهَا ٱلطَّعَامُ لِأَبْنَاءِ ٱلسَّبِيلِ وَبِتْنَا هُنَالِكَ لَيْلَةً ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى ٱلْقُصَيْرِ وَبِهِ قَبْرُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ . تَبَرَّكْتُ أَيْضًا بِزِيَارَتِهِ

ثُمَّ سَافَرْتُ عَلَى ٱلسَّاحِلِ فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ عَكَّةَ وَهِيَ خَرَابٌ . وَكَانَتْ عَكَّةُ قَاعِدَةَ بِلَادِ ٱلْأَفْرَنْجِ بِٱلشَّامِ وَمَرْسَى سُفُنِهِمْ وَتُشْبِهُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ٱلْعُظْمَى وَبِشَرْقِيهَا عَيْنُ مَاءٍ تُعْرَفُ بِعَيْنِ ٱلْبَقَرِ . يُقَالُ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى أَخْرَجَ مِنْهَا ٱلْبَقَرَةَ لِآدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَيَنْزِلُ إِلَيْهَا فِي دَرَجٍ . وَكَانَ عَلَيْهَا مَسْجِدٌ بَقِيَ مِنْهُ مِحْرَابُهُ وَبِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ قَبْرُ صَالِحٍ ع . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ صُورَ وَهِيَ خَرَابٌ وَبِخَارِجِهَا قَرْيَةٌ مَعْمُورَةٌ وَأَكْثَرُ أَهْلِهَا شِيعِيُّونَ وَلَقَدْ نَزَلْتُ بِهَا مَرَّةً عَلَى بَعْضِ ٱلْمِيَاهِ أُرِيدُ ٱلْوُضُوءَ . فَأَتَى بَعْضُ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ لِيَتَوَضَّأَ فَبَدَأَ بِغَسْلِ رِجْلَيْهِ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَلَمْ يَتَمَضْمَضْ وَلَا ٱسْتَنْشَقَ . ثُمَّ مَسَحَ بَعْضَ رَأْسِهِ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ فَقَالَ لِي إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ ٱبْتِدَاؤُهُ مِنَ ٱلْأَسَاسِ . وَمَدِينَةُ صُورَ هِيَ ٱلَّتِي يُضْرَبُ بِهَا ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحَصَانَةِ وَٱلْمَنَعَةِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا وَلَهَا بَابَانِ أَحَدُهُمَا لِلْبَرِّ وَٱلثَّانِي لِلْبَحْرِ . وَلِبَابِهَا ٱلَّذِي يَشْرَعُ لِلْبَرِّ أَرْبَعَةُ فُصْلَانٍ كُلُّهَا فِي سَتَائِرَ مُحِيطَةٍ بِٱلْبَابِ . وَأَمَّا ٱلْبَابُ ٱلَّذِي لِلْبَحْرِ فَهُوَ بَيْنَ بُرْجَيْنِ عَظِيمَيْنِ

www.marefa.org

وَبِنَاؤُهَا لَيْسَ فِي بِلَادِ الدُّنْيَا أَعْجَبَ وَلَا أَغْرَبَ شَأْنًا مِنْهُ لِأَنَّ الْبَحْرَ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا. وَعَلَى الْجِهَةِ الرَّابِعَةِ سُورٌ تَدْخُلُ السُّفُنُ تَحْتَ السُّورِ وَتَرْسُو هُنَالِكَ. وَكَانَ فِيمَا تَقَدَّمَ بَيْنَ الْبُرْجَيْنِ سِلْسِلَةُ حَدِيدٍ مُعْتَرِضَةٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الدَّاخِلِ هُنَالِكَ وَلَا إِلَى الْخَارِجِ إِلَّا بَعْدَ حَطِّهَا وَكَانَ عَلَيْهَا الْحُرَّاسُ وَالْأُمَنَاءُ فَلَا يَدْخُلُ دَاخِلٌ وَلَا يَخْرُجُ خَارِجٌ إِلَّا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ. وَكَانَ لِعَكَّةَ أَيْضًا مِينَا مِثْلُهَا وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَحْمِلُ إِلَّا السُّفُنَ الصِّغَارَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ صَيْدَا وَهِيَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ حَسَنَةٌ كَثِيرَةُ الْفَوَاكِهِ يُحْمَلُ مِنْهَا التِّينُ وَالزَّبِيبُ وَالزَّيْتُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ. نَزَلْتُ عِنْدَ قَاضِيهَا كَمَالِ الدِّينِ الْأَشْمُونِيِّ الْمِصْرِيِّ وَهُوَ حَسَنُ الْأَخْلَاقِ كَرِيمُ النَّفْسِ. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ طَبَرِيَّةَ. وَكَانَتْ فِيمَا مَضَى مَدِينَةً كَبِيرَةً ضَخْمَةً وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا رُسُومٌ تُنْبِئُ عَلَى ضَخَامَتِهَا وَعِظَمِ شَأْنِهَا. وَبِهَا الْحَمَّامَاتُ الْعَجِيبَةُ لَهَا بَيْتَانِ أَحَدُهُمَا لِلرِّجَالِ وَالثَّانِي لِلنِّسَاءِ وَمَاؤُهَا شَدِيدُ الْحَرَارَةِ وَلَهَا الْبُحَيْرَةُ الشَّهِيرَةُ طُولُهَا نَحْوُ سِتَّةِ فَرَاسِخَ وَعَرْضُهَا أَزْيَدُ مِنْ ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ. وَبِطَبَرِيَّةَ مَسْجِدٌ يُعْرَفُ بِمَسْجِدِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ قَبْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِنْتِهِ زَوْجَةِ مُوسَى الْكَلِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَبْرُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَبْرُ يَهُوذَا وَقَبْرُ رُوبِيلَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ. وَقَصَدْنَا مِنْهَا زِيَارَةَ الْجُبِّ الَّذِي أُلْقِيَ فِيهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَهُوَ فِي صَحْنِ مَسْجِدٍ صَغِيرٍ وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ وَالْجُبُّ كَبِيرٌ عَمِيقٌ شَرِبْنَا مِنْ مَائِهِ الْمُجْتَمِعِ مِنْ مَاءِ الْمَطَرِ وَأَخْبَرَنَا فِيهِمْ أَنَّ الْمَاءَ يَنْبَعُ مِنْهُ أَيْضًا

ثُمَّ سِرْنَا إِلَى مَدِينَةِ بَيْرُوتَ وَهِيَ صَغِيرَةٌ حَسَنَةُ الْأَسْوَاقِ. وَجَامِعُهَا بَدِيعٌ

www.marefa.org

ٱلْحُسْنِ وَتُجْلَبُ مِنْهَا إِلَى دِيَارِ مِصْرَ ٱلْفَوَاكِهُ وَٱلْحَدِيدُ. وَقَصَدْنَا مِنْهَا زِيَارَةَ قَبْرِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ ٱلَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ مُلُوكِ ٱلْمَغْرِبِ وَهُوَ بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِكَرْكِ نُوحٍ مِنْ بِقَاعِ ٱلْعَزِيزِ. وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ يُطْعَمُ بِهَا ٱلْوَارِدُ وَٱلصَّادِرُ وَيُقَالُ إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ صَلَاحَ ٱلدِّينِ وَقَفَ عَلَيْهَا ٱلْأَوْقَافَ. وَقِيلَ ٱلسُّلْطَانُ نُورُ ٱلدِّينِ وَكَانَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ وَيُذْكَرُ أَنَّهُ كَانَ يَنْسِجُ ٱلْحُصُرَ وَيَقْتَاتُ بِثَمَنِهَا

حِكَايَةُ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ ٱلْمَذْكُورِ

يُحْكَى أَنَّهُ دَخَلَ مَدِينَةَ دِمَشْقَ فَمَرِضَ بِهَا مَرَضًا شَدِيدًا وَأَقَامَ مَطْرُوحًا بِٱلْأَسْوَاقِ. فَلَمَّا بَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ خَرَجَ إِلَى ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِيَلْتَمِسَ بُسْتَانًا يَكُونُ حَارِسًا لَهُ فَٱسْتَأْجَرَ لِحِرَاسَةِ بُسْتَانٍ لِلْمَلِكِ نُورِ ٱلدِّينِ. وَأَقَامَ فِي حِرَاسَتِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ. فَلَمَّا كَانَ فِي أَوَانِ ٱلْفَاكِهَةِ أَتَى ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْبُسْتَانِ وَأَمَرَ وَكِيلَ ٱلْبُسْتَانِ أَبَا يَعْقُوبَ أَنْ يَأْتِيَ بِرُمَّانٍ يَأْكُلُ مِنْهُ ٱلسُّلْطَانُ. فَأَتَاهُ بِرُمَّانٍ فَوَجَدَهُ حَامِضًا. فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِهِ فَفَعَلَ ذٰلِكَ فَوَجَدَهُ أَيْضًا حَامِضًا. فَقَالَ لَهُ ٱلْوَكِيلُ: أَتَكُونُ فِي حِرَاسَةِ ٱلْبُسْتَانِ مُنْذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ وَلَا تَعْرِفُ ٱلْحُلْوَ مِنَ ٱلْحَامِضِ: فَقَالَ إِنَّمَا ٱسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ٱلْحِرَاسَةِ لَا عَلَى ٱلْأَكْلِ. فَأَتَى ٱلْوَكِيلُ إِلَى ٱلْمَلِكِ فَأَعْلَمَهُ بِذٰلِكَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ ٱلْمَلِكُ وَكَانَ قَدْ رَأَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنَّهُ يَجْتَمِعُ مَعَ أَبِي يَعْقُوبَ وَتَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَائِدَةٌ فَتَفَرَّسَ أَنَّهُ هُوَ فَقَالَ لَهُ. أَنْتَ أَبُو يَعْقُوبَ قَالَ نَعَمْ. فَقَامَ إِلَيْهِ وَعَانَقَهُ وَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ. ثُمَّ ٱحْتَمَلَهُ إِلَى مَجْلِسِهِ. فَأَضَافَهُ بِضِيَافَةٍ مِنَ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُكْتَسَبِ بِكَدِّ يَمِينِهِ وَأَقَامَ عِنْدَهُ أَيَّامًا. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ

www.marefa.org

فَارًّا بِنَفْسِهِ فِي أَوَانِ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ. فَأَتَى قَرْيَةً مِنْ قُرَاهَا وَكَانَ بِهَا رَجُلٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ النُّزُولَ عِنْدَهُ فَفَعَلَ وَصَنَعَ لَهُ مَرَقَةً وَذَبَحَ لَهُ دَجَاجَةً فَأَتَاهُ بِهَا وَبِخُبْزٍ شَعِيرٍ. فَأَكَلَ مِنْ ذٰلِكَ وَدَعَا لِلرَّجُلِ وَكَانَ عِنْدَهُ جُمْلَةُ أَوْلَادٍ مِنْهُمْ بِنْتٌ قَدْ آنَ بِنَاءُ زَوْجِهَا عَلَيْهَا. وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ أَنَّ الْبِنْتَ يُجَهِّزُهَا أَبُوهَا وَيَكُونُ مُعْظَمُ الْجِهَازِ أَوَانِيَ النُّحَاسِ وَبِهِ يَتَفَاخَرُونَ وَبِهِ يَتَبَايَعُونَ. فَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ لِلرَّجُلِ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ مِنَ النُّحَاسِ قَالَ نَعَمْ: قَدِ اشْتَرَيْتُ مِنْهُ لِتَجْهِيزِ هٰذِهِ الْبِنْتِ: قَالَ ائْتِنِي بِهِ: فَأَتَاهُ بِهِ: فَقَالَ لَهُ اسْتَعِرْ مِنْ جِيرَانِكَ مَا أَمْكَنَكَ مِنْهُ: فَفَعَلَ وَأَحْضَرَ ذٰلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَوْقَدَ عَلَيْهِ النِّيرَانَ وَأَخْرَجَ صُرَّةً كَانَتْ عِنْدَهُ فِيهَا الْإِكْسِيرُ فَطَرَحَ مِنْهُ عَلَى النُّحَاسِ فَعَادَ كُلُّهُ ذَهَبًا وَتَرَكَهُ فِي بَيْتٍ مُقْفَلٍ وَكَتَبَ كِتَابًا إِلَى نُورِ الدِّينِ مَلِكِ دِمَشْقَ يُعْلِمُهُ بِذٰلِكَ وَيُنَبِّهُهُ عَلَى بِنَاءِ مَارِسْتَانٍ لِلْمَرْضَى مِنَ الْغُرَبَاءِ وَيُوقِفُ عَلَيْهِ الْأَوْقَافَ وَيَبْنِيَ الزَّوَايَا بِالطُّرُقِ وَيُرْضِيَ أَصْحَابَ النُّحَاسِ وَيُعْطِيَ صَاحِبَ الْبَيْتِ كِفَايَتَهُ: وَقَالَ لَهُ فِي آخِرِ الْكِتَابِ وَإِنْ كَانَ إِبْرٰهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ قَدْ خَرَجَ عَنْ مُلْكِ خُرَاسَانَ فَأَنَا قَدْ خَرَجْتُ مِنْ مُلْكِ الْمَغْرِبِ وَعَنْ هٰذِهِ الصَّنْعَةِ وَالسَّلَامُ. وَفَرَّ مِنْ حِينِهِ وَذَهَبَ صَاحِبُ الْبَيْتِ بِالْكِتَابِ إِلَى الْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ. فَوَصَلَ الْمَلِكُ إِلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ وَاحْتَمَلَ الذَّهَبَ بَعْدَ أَنْ أَرْضَى أَصْحَابَ النُّحَاسِ وَصَاحِبَ الْبَيْتِ وَطَلَبَ أَبَا يَعْقُوبَ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَرًا وَلَا وَقَعَ لَهُ عَلَى خَبَرٍ. فَعَادَ إِلَى دِمَشْقَ وَبَنَى الْمَارِسْتَانَ الْمَعْرُوفَ بِاسْمِهِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَعْمُورِ مِثْلُهُ

ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ وَهِيَ إِحْدَى قَوَاعِدِ الشَّامِ. وَبُلْدَانِهَا

www.marefa.org

ٱلضِّخَامِ. تَخْتَرِقُهَا ٱلْأَنْهَارُ. وَتَحُفُّهَا ٱلْبَسَاتِينُ وَٱلْأَشْجَارُ. وَتُكَنِّفُهَا ٱلْبَحْرُ بِمَرَافِقِهِ ٱلْعَمِيمَةِ. وَٱلْبَرُّ بِخَيْرَاتِهِ ٱلْمُقِيمَةِ. وَلَهَا ٱلْأَسْوَاقُ ٱلْعَجِيبَةُ. وَٱلْمَسَارِحُ ٱلْخَصِيبَةُ. وَٱلْبَحْرُ عَلَى مِيلَيْنِ مِنْهَا وَهِيَ حَدِيثَةُ ٱلْبِنَاءِ. وَأَمَّا طَرَابُلُسُ ٱلْقَدِيمَةُ فَكَانَتْ عَلَى ضَفَّةِ ٱلْبَحْرِ وَتَمَلَّكَهَا ٱلرُّومُ زَمَانًا. فَلَمَّا ٱسْتَرْجَعَهَا ٱلْمَلِكُ ٱلظَّاهِرُ خَرِبَتْ وَٱتَّخَذَتْ هٰذِهِ ٱلْحَدِيثَةُ. وَبِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ نَحْوُ أَرْبَعِينَ مِنْ أُمَرَاءِ ٱلْأَتْرَاكِ وَأَمِيرُهَا طَيْلَانُ ٱلْحَاجِبُ ٱلْمَعْرُوفُ بِمَلِكِ ٱلْأُمَرَاءِ وَمَسْكَنُهُ مِنْهَا بِٱلدَّارِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِدَارِ ٱلسَّعَادَةِ. وَمِنْ عَوَائِدِهِ أَنْ يَرْكَبَ فِي كُلِّ يَوْمِ ٱثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ وَيَرْكَبَ مَعَهُ ٱلْأُمَرَاءُ وَٱلْعَسَاكِرُ وَيَخْرُجَ إِلَى ظَاهِرِ ٱلْمَدِينَةِ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهَا وَقَارَبَ ٱلْوُصُولَ إِلَى مَنْزِلِهِ تَرَجَّلَ ٱلْأُمَرَاءُ وَنَزَلُوا عَنْ دَوَابِّهِمْ وَمَشَوْا بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى يَدْخُلَ مَنْزِلَهُ وَيَنْصَرِفُونَ. وَتُضْرَبُ ٱلطَّبْلَخَانَةُ عِنْدَ دَارِ كُلِّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ بَعْدَ صَلٰوةِ ٱلْمَغْرِبِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ وَتُوقَدُ ٱلْمَشَاعِلُ. وَمِمَّنْ كَانَ بِهَا مِنَ ٱلْأَعْلَامِ كَاتِبُ ٱلسِّرِّ بِهَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ غَانِمٍ أَحَدُ ٱلْفُضَلَاءِ ٱلْحُبَسَاءِ مَعْرُوفٌ بِٱلسَّخَاءِ وَٱلْكَرَمِ. وَأَخُوهُ حُسَامُ ٱلدِّينِ هُوَ شَيْخُ ٱلْقُدْسِ ٱلشَّرِيفِ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَأَخُوهُمَا عَلَاءُ ٱلدِّينِ كَاتِبُ ٱلسِّرِّ بِدِمَشْقَ وَمِنْهُمْ وَكِيلُ بَيْتِ ٱلْمَالِ قِوَامُ ٱلدِّينِ بْنُ مَكِينٍ مِنْ أَكَابِرِ ٱلرِّجَالِ. وَمِنْهُمْ قَاضِي قُضَاتِهَا شَمْسُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلنَّقِيبِ مِنْ أَعْلَامِ عُلَمَاءِ ٱلشَّامِ. وَبِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ حَمَّامَاتٌ حِسَانٌ مِنْهَا حَمَّامُ ٱلْقَاضِي ٱلْفِرْمِيِّ وَحَمَّامُ سَنْدَمُورَ. وَكَانَ سَنْدَمُورُ أَمِيرَ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ وَيُذْكَرُ عَنْهُ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ فِي ٱلشِّدَّةِ عَلَى أَهْلِ ٱلْجِنَايَاتِ مِنْهَا أَنَّ ٱمْرَأَةً شَكَتْ إِلَيْهِ بِأَنَّ أَحَدَ مَمَالِيكِهِ ٱلْخَوَاصِّ تَعَدَّى عَلَيْهَا فِي لَبَنٍ كَانَتْ تَبِيعُهُ فَشَرِبَهُ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا بَيِّنَةٌ. فَأَمَرَ بِهِ فَوُسِّطَ فَخَرَجَ ٱللَّبَنُ مِنْ مَصْرَانِهِ.

www.marefa.org

وَقَدِ اتَّفَقَ مِثْلُ هٰذِهِ الْحِكَايَةِ لِلْعَنْبَرِسِ أَحَدِ أُمَرَاءِ الْمَمَالِكِ النَّاصِرِ أَيَّامَ إِمَارَتِهِ عَلَى عَيْنَتَابَ وَاتَّفَقَ مِثْلُهَا لِلْمَلِكِ كِبَكَ سُلْطَانِ [illegible] سْتَانَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ طَرَابُلُسَ إِلَى حِصْنِ [illegible] دِ وَهُوَ بَلَدٌ صَغِيرٌ كَثِيرُ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ بِأَعْلَى تَلٍّ وَبِهِ زَا[illegible] ُ بِزَاوِيَةِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ نِسْبَةً إِلَى بَعْضِ كُبَرَاءِ الْأُمَرَاءِ وَنَزَلْنَ[illegible] ِ مَاضِيهَا وَلَا أَحَقِّقُ الْآنَ اسْمَهُ. ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ حِمْصَ وَهِيَ مَدِينَةٌ مَلِيحَةٌ. أَرْجَاؤُهَا مُؤْنِقَةٌ. وَأَشْجَارُهَا مُورِقَةٌ. وَأَسْوَاقُهَا فَسِيحَةُ الْبُقَ[illegible] ِ. وَجَامِعُهَا مُتَمَيِّزٌ بِالْحُسْنِ الْجَامِعِ. وَفِي وَسَطِهِ بِرْكَةُ مَاءٍ. وَأَهْلُ حِمْ[illegible] عَرَبٌ لَهُمْ فَضْلٌ وَكَرَمٌ وَبِخَارِجِ هٰذِهِ الْمَدِينَةِ قَبْرُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِي[illegible] وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ وَمَسْجِدٌ وَعَلَى الْقَبْرِ كِسْوَةٌ سَوْدَاءُ. وَقَاضِي هٰذِهِ الْمَدِينَةِ جَمَالُ الدِّينِ [illegible] مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صُورَةً وَأَحْسَنِهِمْ سِيرَةً. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى [illegible] أُمَّهَاتِ الشَّامِ الرَّفِيعَةِ. وَمَدَائِنِهَا الْبَدِيعَةِ. ذَاتُ الْحُسْنِ الرَّائِقِ. وَالْجَمَالِ الْفَائِقِ. تَحُفُّهَا الْبَسَاتِينُ وَالْجَنَّاتُ. عَلَيْهَا النَّوَاعِيرُ كَالْأَفْلَاكِ الدَّائِرَاتِ يَشُقُّهَا النَّهْرُ الْعَظِيمُ الْمُسَمَّى بِالْعَاصِي. وَلَهَا رَبَضٌ سُمِّيَ بِالْمَنْصُورِيَّةِ أَعْظَمُ مِنَ الْمَدِينَةِ فِيهِ الْأَسْوَاقُ الْحَافِلَةُ وَالْحَمَّامَاتُ الْحِسَانُ. وَبِجَبَّانَةِ الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةُ وَمِنْهَا الْمِشْمِشُ اللَّوْزِيُّ إِذَا كُسِرَتْ نَوَاتُهُ وُجِدَتْ فِي دَاخِلِهَا لَوْزَةٌ حُلْوَةٌ

ثُمَّ سِرْنَا إِلَى مَدِينَةِ حَلَبَ الْمَدِينَةِ الْكُبْرَى وَالْقَاعِدَةِ الْعُظْمَى. قَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ ابْنُ جُبَيْرٍ فِي وَصْفِهَا. قَدْرُهَا خَطِيرٌ. وَذِكْرُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ يَطِيرُ. خُطَّابُهَا مِنَ الْمُلُوكِ كَثِيرٌ. وَمَحَلُّهَا مِنَ النُّفُوسِ أَثِيرٌ. فَكَمْ هَاجَتْ

www.marefa.org

مِنْ كِفَاحٍ . وَسُلَّ عَلَيْهَا بِيضُ الصِّفَاحِ . لَهَا قَلْعَةٌ شَهِيرَةُ الِامْتِنَاعِ . بَائِنَةُ الِارْتِفَاعِ . تَنَزَّهَتْ ... أَنْ تُرَامَ أَوْ تُسْتَطَاعَ . مَنْحُوتَةُ الْأَرْجَاءِ . مَوْضُوعَةٌ عَلَى نِسْبَةِ اعْتِدَالٍ وَاسْتِوَاءٍ . قَدْ طَاوَلَتِ الْأَيَّامَ وَالْأَعْوَامَ . وَشَيَّعَتِ الْخَوَاصَّ وَالْعَوَامَّ ... أُمَرَاؤُهَا الْحَمْدَانِيُّونَ وَشُعَرَاؤُهَا . فَنِيَ جَمِيعُهُمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بِنَاؤُهَا ... الْبِلَادِ تَبْقَى وَيَذْهَبُ أَمْلَاكُهَا . وَيَهْلِكُونَ وَلَا يُقْضَى هَلَاكُهَا . وَتُخْ... دُهُمْ فَلَا يَتَعَذَّرُ إِمْلَاكُهَا . وَتُرَامُ فَيَتَيَسَّرُ بِأَهْوَنِ شَيْءٍ إِدْرَاكُهَا ... حَلَبُ كَمْ أَدْخَلَتْ مُلُوكَهَا فِي خَبَرِ كَانَ . وَنَسَخَتْ صَرْفَ الزَّمَانِ بِالْمَكَانِ . أُنِّثَ اسْمُهَا فَتَحَلَّتْ بِحِلْيَةِ الْغَوَانِ . وَدَانَتْ بِالْغَدْرِ فِيمَنْ دَانَ . وَتَجَلَّتْ عَرُوسًا بَعْدَ سَيْفِ دَوْلَتِهَا ابْنِ ... دَانَ . هَيْهَاتَ ... شَبَابُهَا . وَيُعْدَمُ خُطَّابُهَا . وَيُسْرِعُ فِيهَا بَعْدَ حِينٍ خَرَابُهَا ... الشُّهْبَاءَ . وَبِدَاخِلِهَا جُبَّانِ يَنْبُعُ مِنْهُمَا الْمَاءُ . فَلَا ... وَيُطِيفُ بِهَا سُورَانِ . وَعَلَيْهَا خَنْدَقٌ عَظِيمٌ يَنْبُعُ مِنْهُ الْمَاءُ . وَسُورُهَا مُتَدَانِي الْأَبْرَاجِ . وَقَدِ انْتَظَمَتْ بِهَا الْعَلَالِي الْعَجِيبَةُ الْمُفَتَّحَةُ الطِّيقَانِ . وَكُلُّ بُرْجٍ مِنْهَا مَسْكُونٌ وَالطَّعَامُ لَا يَتَغَيَّرُ بِهَذِهِ الْقَلْعَةِ عَلَى طُولِ الْعَهْدِ . وَبِهَا مَشْهَدٌ يَقْصِدُهُ بَعْضُ النَّاسِ . يُقَالُ إِنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَتَعَبَّدُ بِهِ . وَهَذِهِ الْقَلْعَةُ تُشْبِهُ قَلْعَةَ رَحْبَةِ مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ الَّتِي عَلَى الْفُرَاتِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ . وَلَمَّا قَصَدَ قَازَانُ طَاغِيَةُ التَّتَرِ مَدِينَةَ حَلَبَ حَاصَرَ هَذِهِ الْقَلْعَةَ أَيَّامًا وَنَكَصَ عَنْهَا خَائِبًا . قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ وَفِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ يَقُولُ الْخَالِدِيُّ شَاعِرُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ

وَخَرْقَاءَ قَدْ قَامَتْ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا ... بِمَرْقَبِهَا الْعَالِي وَجَانِبِهَا الصَّعْبِ

www.marefa.org

يَمُرُّ عَلَيْهَا ٱلْجُوْجَبَ غَمَامِهِ وَيُلْبِسُهَا عِقْدًا بِأَنْجُمِهِ ٱلشُّهْبِ
إِذَا مَا سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ كَمَا لَاحَتِ ٱلْعَذْرَآءُ مِنْ خِلَلِ ٱلسُّحْبِ
فَكَمْ مِنْ جُنُودٍ قَدْ أَمَاتَتْ بِغُصَّةٍ وَذِي سَطَوَاتٍ قَدْ أَبَانَتْ عَلَى عَقْبِ

رَجَعَ وَيُقَالُ فِي مَدِينَةِ حَلَبَ حَلَبَ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ ٱلْخَلِيلَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ كَانَ يَسْكُنُهَا وَكَانَتْ لَهُ ٱلْغَنَمُ ٱلْكَثِيرَةُ فَكَانَ يَسْقِي ٱلْفُقَرَآءَ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْوَارِدَ وَٱلصَّادِرَ مِنْ أَبْنَائِهَا. فَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ وَيَسْأَلُونَ حَلَبَ إِبْرَاهِيمَ فَسُمِّيَتْ بِذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَعَزِّ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِي حُسْنِ ٱلْوَضْعِ وَإِتْقَانِ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱتِّسَاعِ ٱلْأَسْوَاقِ وَٱنْتِظَامِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ. وَأَسْوَاقُهَا مُسَقَّفَةٌ بِٱلْخَشَبِ. فَأَهْلُهَا دَائِمًا فِي ظِلٍّ مَمْدُودٍ. وَقَيْسَارِيَّتُهَا لَا تُمَاثِلُ حُسْنًا وَكِبَرًا وَهِيَ تُحِيطُ بِمَسْجِدِهَا. وَكُلُّ سِمَاطٍ مِنْهَا مُحَاذٍ لِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْمَسْجِدِ. وَمَسْجِدُهَا ٱلْجَامِعُ مِنْ أَجْمَلِ ٱلْمَسَاجِدِ. فِي صَحْنِهِ بِرْكَةُ مَآءٍ وَيُطِيفُ بِهِ بَلَاطٌ عَظِيمُ ٱلِٱتِّسَاعِ. وَمِنْبَرُهَا بَدِيعُ ٱلْعَمَلِ. مُرَصَّعٌ بِٱلْعَاجِ وَٱلْأَبْنُوسِ. وَبِقُرْبِ جَامِعِهَا مَدْرَسَةٌ مُنَاسِبَةٌ لَهُ فِي حُسْنِ ٱلْوَضْعِ وَإِتْقَانِ ٱلصَّنْعَةِ تُنْسَبُ لِأُمَرَآءِ بَنِي حَمْدَانَ. وَبِٱلْبَلَدِ سِوَاهَا ثَلَاثُ مَدَارِسَ وَبِهَا مَارِسْتَانٌ. وَأَمَّا خَارِجُ ٱلْمَدِينَةِ فَهُوَ بَسِيطٌ أَفْيَحُ عَرِيضٌ بِهِ ٱلْمَزَارِعُ ٱلْعَظِيمَةُ وَشَجَرَاتُ ٱلْأَعْنَابِ مُنْتَظِمَةٌ بِهِ. وَٱلْبَسَاتِينُ عَلَى شَاطِئِ نَهْرِهَا. وَهُوَ ٱلنَّهْرُ ٱلَّذِي يَمُرُّ بِحَمَاةَ وَيُسَمَّى ٱلْعَاصِيَ. وَقِيلَ إِنَّهُ سُمِّيَ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ يُخَيَّلُ لِنَاظِرِهِ أَنَّ جَرَيَانَهُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَى عُلْوٍ. وَٱلنَّفْسُ تَجِدُ فِي خَارِجِ مَدِينَةِ حَلَبَ ٱنْشِرَاحًا وَسُرُورًا وَنَشَاطًا لَا يَكُونُ فِي سِوَاهَا وَهِيَ مِنَ ٱلْمُدُنِ ٱلَّتِي تَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ. قَالَ ٱبْنُ جُزَيٍّ أَطْنَبَتِ ٱلشُّعَرَآءُ فِي وَصْفِ

www.marefa.org

محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها. وفيها يقول أبو عبادة البحتري

يا برق أسفر عن فويق مطالبي حلب فأعلى القصر من بطباس
عن منبت الورد المعصفر صبغه في كل ضاحية ومجنى الآس
أرض إذا استوحشتكم بتذكر حشدت علي فأكثرت إيناسي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري

سقى حلب المزن مغنى حلب فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ بها إذ بها العيش لم يستطب
إذا نشر الزهر أعلامه بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة تروق وأوساطه من ذهب

ثم سافرت إلى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا. فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة. ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

حكاية

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال: كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد. فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها: فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يؤبه به. إني كنت عند صلوة العصر بمتعبد إبراهيم بن أدهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم إليه لقدرتم

www.marefa.org

عَلَيْهِ وَشَوَيْتُمْ لَحْمَهُ فِي هٰذِهِ ٱلنَّارِ. قَالَ فَقُمْنَا إِلَيْهِ فِي خَمْسَةِ رِجَالٍ فَأَلْفَيْنَاهُ كَمَا وَصَفَ إِلَيْنَا. فَقَبَضْنَاهُ وَأَتَيْنَا بِهِ أَصْحَابَنَا وَذَبَحْنَاهُ وَأَشْوَيْنَا لَحْمَهُ فِي تِلْكَ ٱلنَّارِ وَطَلَبْنَا ٱلْفَقِيرَ ٱلَّذِي نُبِّهَ عَلَيْهِ فَلَمْ نَجِدْهُ وَلَا وَقَعْنَا لَهُ عَلَى أَثَرٍ فَطَالَ عَجَبُنَا مِنْهُ

ثُمَّ وَصَلْنَا مِنْ جَبَلِ لُبْنَانَ إِلَى مَدِينَةِ بَعْلَبَكَّ. وَهِيَ حَسَنَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ أَطْيَبِ مُدُنِ ٱلشَّامِ. تُحْدِقُ بِهَا ٱلْبَسَاتِينُ ٱلشَّرِيفَةُ. وَٱلْجَنَّاتُ ٱلْمُنِيفَةُ. وَتَخْتَرِقُ أَرْضَهَا ٱلْأَنْهَارُ ٱلْجَارِيَةُ. وَتُضَاهِي دِمَشْقَ فِي خَيْرَاتِهَا ٱلْمُتَنَاهِيَةِ. وَبِهَا مِنْ حَبِّ ٱلْمُلُوكِ مَا لَيْسَ فِي سِوَاهَا. وَبِهَا يُصْنَعُ ٱلدِّبْسُ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَيْهَا وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلرُّبِّ يَصْنَعُونَهُ مِنَ ٱلْعِنَبِ. وَلَهُمْ تُرْبَةٌ يَضَعُونَهَا فِيهِ فَيَجْمُدُ وَتُكْسَرُ ٱلْقَلْعَةُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا فَيَبْقَى قِطْعَةً وَاحِدَةً وَتُصْنَعُ مِنْهُ ٱلْحَلْوَاءُ وَيُجْعَلُ فِيهَا ٱلْفُسْتُقُ وَٱللَّوْزُ وَيُسَمُّونَ حَلْوَاءَهُ بِٱلْمُلَبَّنِ. وَهِيَ كَثِيرَةُ ٱلْأَلْبَانِ وَتُجْلَبُ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلْمُجِدِّ. وَأَمَّا ٱلرِّفَاقُ فَيَخْرُجُونَ مِنْ بَعْلَبَكَّ فَيَبِيتُونَ بِبَلَدٍ صَغِيرٍ تُعْرَفُ بِٱلزَّبَدَانِيِّ كَثِيرَةِ ٱلْفَوَاكِهِ وَيَغْدُونَ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ. وَيُصْنَعُ بِبَعْلَبَكَّ ٱلثِّيَابُ ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْإِحْرَامِ وَغَيْرِهِ وَيُصْنَعُ بِهَا أَوَانِي ٱلْخَشَبِ وَمَلَاعِقُهُ ٱلَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِي ٱلْبِلَادِ وَهُمْ يُسَمُّونَ ٱلصِّحَافَ بِٱلدُّسُوتِ وَرُبَّمَا صَنَعُوا ٱلصَّحْفَةَ وَصَنَعُوا صَحْفَةً أُخْرَى تَسَعُ فِي جَوْفِهَا وَأُخْرَى فِي جَوْفِهَا إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا ٱلْعَشَرَةَ يُخَيَّلُ لِرَائِيهَا أَنَّهَا صَحْفَةٌ وَاحِدَةٌ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمَلَاعِقُ يَصْنَعُونَ مِنْهَا عَشَرَةً وَاحِدَةً فِي جَوْفِ وَاحِدَةٍ وَيَصْنَعُونَ لَهَا غِشَاءً مِنْ جِلْدٍ وَيُمْسِكُهَا ٱلرَّجُلُ فِي حِزَامِهِ. وَإِذَا حَضَرَ طَعَامًا مَعَ أَصْحَابِهِ أَخْرَجَ ذٰلِكَ فَيَظُنُّ رَائِيهِ أَنَّهَا

www.marefa.org

بِلُعَقَةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْ جَوْفِهَا نِسْعًا

وَكَانَ دُخُولِي لِبَعْلَبَكَّ عَشِيَّةَ النَّهَارِ وَخَرَجْتُ مِنْهَا بِالْغَدْوِ لِفَرْطِ اشْتِيَاقِي إِلَى دِمَشْقَ وَوَصَلْتُ يَوْمَ الْخَمِيسِ التَّاسِعَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَامَ سِتٍّ وَعِشْرِينَ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ الشَّامِ . فَنَزَلْتُ مِنْهَا بِمَدْرَسَةِ الْمَالِكِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالشَّرَابِشِيَّةِ . وَدِمَشْقُ هِيَ الَّتِي تَفْضُلُ جَمِيعَ الْبِلَادِ حُسْنًا وَتَتَقَدَّمُهَا جَمَالًا وَكُلُّ وَصْفٍ وَإِنْ طَالَ فَهُوَ قَاصِرٌ عَنْ مَحَاسِنِهَا . وَلَا أَبْدَعَ مِمَّا قَالَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي ذِكْرِهَا قَالَ . وَأَمَّا دِمَشْقُ فَهِيَ جَنَّةُ الْمَشْرِقِ . وَمَطْلَعُ نُورِهَا الْمُشْرِقُ . وَخَاتِمَةُ بِلَادِ الْإِسْلَامِ الَّتِي اسْتَفْرَيْنَاهَا . وَعَرُوسُ الْمُدُنِ الَّتِي اجْتَلَيْنَاهَا . قَدْ تَحَلَّتْ بِأَزَاهِيرِ الرِّيَاحِينِ . وَتَجَلَّتْ فِي حُلَلٍ سُنْدُسِيَّةٍ مِنَ الْبَسَاتِينِ . وَحَلَّتْ مِنْ مَوْضِعِ الْحُسْنِ بِالْمَكَانِ الْمَكِينِ . وَتَزَيَّنَتْ فِي مَنَصَّتِهَا أَجْمَلَ تَزْيِينٍ . وَتَشَرَّفَتْ بِأَنْ أَوَى الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمُّهُ مِنْهَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ . ظِلٌّ ظَلِيلٌ . وَمَاءٌ سَلْسَبِيلٌ . تَنْسَابُ مَذَانِبُهُ انْسِيَابَ الْأَرَاقِمِ بِكُلِّ سَبِيلٍ . وَرِيَاضٌ تُحْيِي النُّفُوسَ نَسِيمُهَا الْعَلِيلُ . وَقَدْ سَبَتْ أَرْضُهَا كَثْرَةَ الْمَاءِ حَتَّى اشْتَاقَتْ إِلَى الظَّمَاءِ . فَتَكَادُ تُنَادِيكَ بِهَا الصُّمُّ الصِّلَابُ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَقَدْ أَحْدَقَتِ الْبَسَاتِينُ بِهَا إِحْدَاقَ الْهَالَةِ بِالْقَمَرِ . وَالْأَكْمَامِ بِالثَّمَرِ . وَامْتَدَّتْ بِشَرْقِيِّهَا غُوطَتُهَا الْخَضْرَاءُ امْتِدَادَ الْبَصَرِ . وَكُلُّ مَوْضِعٍ لَحَظَتْ بِجِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ نَضْرَتُهُ الْبَانِعَةُ قَيْدُ النَّظَرِ . وَلِلَّهِ صِدْقُ الْقَائِلِينَ عَنْهَا . إِنْ كَانَتِ الْجَنَّةُ فِي الْأَرْضِ فَدِمَشْقُ لَا شَكَّ فِيهَا . وَإِنْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ تُسَامِيهَا وَتُحَاذِيهَا . قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ

www.marefa.org

وَقَدْ نَظَمَ بَعْضُ شُعَرَائِهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ ٱلْخُلُودِ بِأَرْضٍ ... فَدِمَشْقٌ وَلَا تَكُونُ سِوَاهَا

إِنْ تَكُنْ فِي ٱلسَّمَاءِ فَهِيَ عَلَيْهَا ... قَدْ أَبَدَّتْ هَوَاهَا وَهَوَاهَا

وَذَكَرَهَا شَيْخُنَا ٱلْمُحَدِّثُ ٱلرَّحَّالُ شَمْسُ ٱلدِّينِ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَابِرِ بْنِ حَسَّانَ ٱلْقَيْسِيُّ ٱلْوَادِيَاشِيُّ نَزِيلُ تُونُسَ وَنَصَّ كَلَامَ ٱبْنِ جُبَيْرٍ. ثُمَّ قَالَ وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِيمَا وَصَفَ مِنْهَا وَأَجَادَ. وَتَوَّقَ ٱلْأَنْفُسَ لِلتَّطَلُّعِ عَلَى صُورَتِهَا بِمَا أَفَادَ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بِهَا إِقَامَةٌ. فَبِعَرِيبُ عَنْهَا بِحَقِيقَةِ عَلَّامَةٍ. وَلَا وَصَفَ ذَهَبِيَّاتِ أَصِيلِهَا. وَقَدْ حَانَ مِنَ ٱلشَّمْسِ غُرُوبُهَا. وَلَا أَزْمَانَ جُفُولِهَا ٱلْمَنُوَّعَاتِ. وَلَا أَوْقَاتَ سُرُورِهَا ٱلْمُنَبِّهَاتِ. وَقَدِ ٱخْتَصَّ مَنْ قَالَ أَلْفَيْتُهَا كَمَا تَصِفُ ٱلْأَلْسُنُ. وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ. قَالَ ٱبْنُ جُزَيٍّ وَٱلَّذِي قَالَتْهُ ٱلشُّعَرَاءُ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِ دِمَشْقَ لَا يُحْصَرُ كَثْرَةً. وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ ٱللهُ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ فِي وَصْفِهَا هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ وَهِيَ لِشَرَفِ ٱلدِّينِ بْنِ مُحْسِنٍ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى

دِمَشْقُ بِي شَوْقٌ إِلَيْهَا مُبَرِّحٌ ... وَإِنْ لَجَّ وَاشٍ أَوْ أَلَحَّ عَذُولُ

بِلَادٌ بِهَا ٱلْحُصْبَاءُ دُرٌّ وَتُرْبُهَا ... عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ ٱلشَّمَالِ شَمُولُ

تَسَلْسَلَ فِيهَا مَاؤُهَا وَهْوَ مُطْلَقٌ ... وَصَحَّ نَسِيمُ ٱلرَّوْضِ وَهْوَ عَلِيلُ

وَهٰذَا مِنَ ٱلنَّمَطِ ٱلْعَالِي مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَقَالَ فِيهَا عَرْقَلَةُ ٱلدِّمَشْقِيُّ ٱلْكَلْبِيُّ

ٱلشَّامُ شَامَةُ وَجْنَةِ ٱلدُّنْيَا كَمَا ... إِنْسَانُ مُقْلَتِهَا ٱلْغَضِيضَةِ جِلِّقُ

مِنْ أَجْلِهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقَضِي ... وَمِنَ ٱلشَّقِيقِ جَهَنَّمٌ لَا تُحْرِقُ

وَلَهُ فِيهَا أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ سِوَى ذٰلِكَ. وَقَالَ فِيهَا أَبُو ٱلْوَحْشِ سَبُعُ بْنُ

www.marefa.org

خَلْقِ ٱلْأَسَدِيُّ

سَقَى دِمَشْقَ ٱللهُ غَيْثًا مُحْسِنًا مِنْ مُسْتَهِلٍّ دِيمَةٍ دِهَاقِهَا
مَدِينَةٌ لَيْسَ يُضَاهِي حُسْنُهَا فِي سَائِرِ ٱلدُّنْيَا وَلَا آفَاقِهَا
تَوَدُّ زَوْرَاءُ ٱلْعِرَاقِ أَنَّهَا مِنْهَا وَلَا نُعْزَى إِلَى عِرَاقِهَا
فَأَرْضُهَا مِثْلُ ٱلسَّمَاءِ بَهْجَةً وَزَهْرُهَا كَٱلزُّهْرِ فِي إِشْرَاقِهَا
نَسِيمُ رَوْضِهَا مَتَى مَا قَدْ سَرَى فَكَّ أَخَا ٱلْهُمُومِ مِنْ وَثَاقِهَا
قَدْ رَتَعَ ٱلرَّبِيعُ فِي رُبُوعِهَا وَسِيقَتِ ٱلدُّنْيَا إِلَى أَسْوَاقِهَا
لَا تَسْأَمُ ٱلْعُيُونُ وَٱلْأُنُوفُ مِنْ رُؤْيَتِهَا يَوْمًا وَلَا ٱسْتِنْشَاقِهَا

انتهى المنقول من ابن بطوطة

www.marefa.org

مِنْ كِتَابِ
عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ الْمَوْجُودَاتِ لِلشَّيْخِ الْإِمَامِ
مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَزْوِينِيِّ

اَلنَّظَرُ فِي الْكَائِنَاتِ وَهِيَ الْأَجْسَامُ الْمُتَوَلِّدَةُ مِنَ الْأُمَّهَاتِ

فَنَقُولُ الْأَجْسَامُ الْمُتَوَلِّدَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَامِيَةً أَوْ غَيْرَ نَامِيَةٍ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَامِيَةً فَهِيَ الْمَعْدِنِيَّاتُ وَإِنْ كَانَتْ نَامِيَةً فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ لَهَا قُوَّةُ الْحِسِّ وَالْحَرَكَةِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَهِيَ النَّبَاتُ وَإِنْ كَانَتْ فَهِيَ الْحَيَوَانَاتُ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَا تَسْتَحِيلُ إِلَيْهِ الْأَرْكَانُ الْأَبْخِرَةُ وَالْعُصَارَاتُ وَالْبُخَارُ مَا يَصْعَدُ مِنْ لَطَائِفِ مِيَاهِ الْبَحْرِ وَالْآجَامِ وَالْأَنْهَارِ مِنْ تَسْخِينِ الشَّمْسِ وَالْعُصَارَاتُ مَا يَنْجَلِبُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ مِنْ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ وَتَخْتَلِطُ بِالْأَجْزَاءِ الْأَرْضِيَّةِ وَتَغْلُظُ وَتُنْضِجُهَا الْحَرَارَةُ الْمُسْتَبْطَنَةُ فِي عُمْقِ الْأَرْضِ فَتُصَيِّرُهَا مَادَّةً لِلْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَأَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِالْبَعْضِ بِتَرْتِيبٍ عَجِيبٍ وَنِظَامٍ بَدِيعٍ تَعَالَى صَانِعُهَا عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ تُرَابٌ وَآخِرُهَا نَفْسٌ مَلَكِيَّةٌ طَاهِرَةٌ فَإِنَّ الْمَعَادِنَ مُتَّصِلَةٌ أَوَّلُهَا بِالتُّرَابِ أَوِ الْمَاءِ وَآخِرُهَا بِالنَّبَاتِ. وَالنَّبَاتُ مُتَّصِلٌ أَوَّلُهُ بِالْمَعَادِنِ وَآخِرُهُ بِالْحَيَوَانِ. وَالْحَيَوَانُ مُتَّصِلٌ أَوَّلُهُ بِالنَّبَاتِ وَآخِرُهُ بِالْإِنْسَانِ. وَالنُّفُوسُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَّصِلَةٌ

www.marefa.org

أَوَّلَهَا بِالْحَيَوَانِ وَآخِرَهَا بِالنُّفُوسِ الْمَلَكِيَّةِ وَاللهُ أَعْلَمُ

النَّظَرُ الْأَوَّلُ فِي الْمَعْدِنِيَّاتِ

الْمَعْدِنِيَّاتُ هِيَ أَجْسَامٌ مُتَوَلِّدَةٌ مِنَ الْأَبْخِرَةِ وَالْأَدْخِنَةِ تَحْتَ الْأَرْضِ إِذَا اخْتَلَطَتْ عَلَى ضُرُوبٍ مِنَ الْاخْتِلَاطَاتِ مُخْتَلِفَةٍ فِي الْكَمِّ وَالْكَيْفِ وَهِيَ إِمَّا قَوِيَّةُ التَّرْكِيبِ أَوْ ضَعِيفَةُ التَّرْكِيبِ. وَقَوِيَّةُ التَّرْكِيبِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَطَرِّقَةً أَوْ لَمْ تَكُنْ وَالْمُتَطَرِّقَةُ هِيَ الْأَجْسَادُ السَّبْعَةُ. أَعْنِي الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالنُّحَاسَ وَالرَّصَاصَ وَالْحَدِيدَ وَالْأُسْرُبَ وَالْخَارَصِينِيَّ. وَالَّتِي لَا تَكُونُ مُتَطَرِّقَةً فَقَدْ تَكُونُ فِي غَايَةِ اللِّينِ كَالزِّئْبَقِ وَقَدْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الصَّلَابَةِ كَالْيَاقُوتِ. وَضَعِيفَةُ التَّرْكِيبِ قَدْ تَنْحَلُّ بِالرُّطُوبَاتِ وَهِيَ الْأَجْسَامُ الْمِلْحِيَّةُ كَالزَّاجِ وَالنُّوشَادِرِ وَقَدْ لَا تَنْحَلُّ بِهَا وَهِيَ الْأَجْسَامُ الدُّهْنِيَّةُ كَالزِّرْنِيخِ وَالْكِبْرِيتِ

وَالْأَجْسَادُ السَّبْعَةُ إِنَّمَا تَتَوَلَّدُ مِنِ اخْتِلَاطِ الزِّئْبَقِ بِالْكِبْرِيتِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي الْكَمِّ وَالْكَيْفِ. وَالزِّئْبَقُ يَتَوَلَّدُ مِنْ أَجْزَاءٍ مَائِيَّةٍ اخْتَلَطَتْ بِأَجْزَاءٍ أَرْضِيَّةٍ لَطِيفَةٍ كِبْرِيتِيَّةٍ. وَالْكِبْرِيتُ لَطِيفٌ يَتَوَلَّدُ مِنْ أَجْزَاءٍ مَائِيَّةٍ وَهَوَائِيَّةٍ وَأَرْضِيَّةٍ تُنْضِجُهَا حَرَارَةٌ قَوِيَّةٌ حَتَّى صَارَ مِثْلَ الدُّهْنِ. وَأَمَّا الْأَجْسَادُ الصُّلْبَةُ الشَّفَّافَةُ فَتَتَوَلَّدُ مِنْ مِيَاهٍ عَذْبَةٍ وَقَعَتْ فِي مَعَادِنِهَا الْحِجَارَةُ الصُّلْدَةُ زَمَانًا طَوِيلًا حَتَّى غَلُظَتْ وَصَفَتْ وَأَنْضَجَتْهَا حَرَارَةُ الْمَعْدِنِ بِطُولِ وُقُوفِهَا. وَأَمَّا غَيْرُ الشَّفَّافَةِ فَمِنِ امْتِزَاجِ الْمَاءِ بِالطِّينِ إِذَا كَانَتْ فِيهِ لُزُوجَةٌ وَأَثَّرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الشَّمْسِ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ. وَأَمَّا الْأَجْسَامُ الَّتِي تَنْحَلُّ بِالرُّطُوبَاتِ فَمِنْ مَاءٍ مُخْتَلِطٍ بِأَجْزَاءٍ أَرْضِيَّةٍ مُخْتَرِقَةٍ يَابِسَةٍ

www.marefa.org

ٱخْتِلَاطًا شَدِيدًا. وَأَمَّا ٱلْأَجْسَامُ ٱلدُّهْنِيَّةُ فَمِنَ ٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْمُحْتَقِنَةِ فِي بَاطِنِ ٱلْأَرْضِ إِذَا ٱحْتَوَتْ عَلَيْهَا حَرَارَةُ ٱلْمَعْدِنِ حَتَّى تَحَلَّلَتْ وَلَطُفَتْ وَٱخْتَلَطَتْ بِتُرْبَةِ ٱلْقَاعِ وَحَرَارَةُ ٱلْمَعْدِنِ دَائِمًا فِي نُضْجِهَا وَطَبْخِهَا حَتَّى تَزْدَادَ غِلَظًا وَصَارَتْ مِثْلَ ٱلدُّهْنِ

ٱلنَّظَرُ ٱلثَّانِي فِي ٱلنَّبَاتِ

ٱلنَّبَاتُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ ٱلْمَعَادِنِ وَٱلْحَيَوَانِ بِمَعْنَى أَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ نُقْصَانِ ٱلْجَمَادِيَّةِ ٱلصِّرْفَةِ ٱلَّتِي لِلْمَعَادِنِ وَغَيْرُ وَاصِلٍ إِلَى كَمَالِ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ ٱللَّتَيْنِ ٱخْتَصَّ بِهِمَا ٱلْحَيَوَانُ. لَكِنَّهُ يُشَارِكُ ٱلْحَيَوَانَ فِي بَعْضِ ٱلْأُمُورِ لِأَنَّ ٱلْبَارِئَ تَعَالَى يَخْلُقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْآلَاتِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي بَقَاءِ ذَاتِهِ وَنَوْعِهِ وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ يَكُونُ ثِقْلًا وَكَلًّا عَلَيْهِ لَا يَخْلُقُهُ وَلَا حَاجَةَ لِلنَّبَاتِ إِلَى ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ بِخِلَافِ ٱلْحَيَوَانِ

وَمِنْ عَجِيبِ صُنْعِ ٱلْبَارِئِ تَعَالَى أَنَّ ٱلْحَبَّ وَٱلنَّوَى إِذَا حَصَلَ فِي تُرْبَةٍ نَدِيَّةٍ وَأَصَابَهُمَا حَرُّ ٱلشَّمْسِ ٱنْشَقَّا وَجَذَبَا بِقُوَّةٍ خَلَقَ ٱللهُ تَعَالَى فِيهِمَا ٱلْأَجْزَاءَ ٱللَّطِيفَةَ ٱلْأَرْضِيَّةَ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَائِيَّةَ مِنَ ٱلْمَاءِ. ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ ٱلْأَجْزَاءَ يَتَرَاكَمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِوَاسِطَةِ قُوًى خَلَقَ ٱللهُ تَعَالَى فِيهَا حَتَّى يَصِيرَ ٱلْحَبُّ نَجْمًا بَالِغًا ذَا عُرُوقٍ وَقُضْبَانٍ وَأَوْرَاقٍ وَأَزْهَارٍ وَحَبُّ ٱلنَّوَى شَجَرًا عَظِيمًا ذَا عُرُوقٍ وَسَاقٍ وَأَغْصَانٍ وَأَوْرَاقٍ وَثَمَرٍ. وَٱلنَّبَاتُ قِسْمَانِ شَجَرٌ وَنَجْمٌ

www.marefa.org

القسم الأول
الشجر

الشجر هو كل ما له ساق من النبات والأشجار العظام بمثابة الحيوانات العظام والنجوم بمثابة الحيوانات الصغار والأشجار العظام لا تمر لها كالساج والدلب والعرعر لأن المادة كلها صرفت إلى نفس الشجرة ولا كذلك الأشجار المثمرة فإن مادتها صرفت إلى الشجرة والثمرة. ويشبه حالها حال الذكور والإناث من الحيوان فإن الذكران أعظم بدنا من الإناث لأن بعض مواد الإناث يصرف إلى الأجنة

ومن عجيب صنع الباري تعالى خلق الأوراق على الأشجار زينة لها ووقاية لثمارها من نكاية الشمس والهواء. ثم إنه تعالى خلقها مرتفعة عن الثمار متفرقة بعض التفرق لا متكاثفة عليها ولا بعيدة عنها لتأخذ الثمار من النسيم تارة ومن الشمس تارة أخرى. فلو تكاثفت عليها حتى منعتها إصابة النسيم وشعاع الشمس لبقيت على فجاجتها غليظة الجلد قليلة المائية. وإذا سقط عنها بعض الورق أصابتها الشمس وأحرقتها كما ترى في الرمانة التي احترق منها أحد الجوانب. ثم إذا فرغت الثمرة تناثرت الأوراق حتى لا تجذب مائية الشجرة فتضعف قوتها كما ترى في الحيوان فإن الأم تضعف من إرضاع أولادها

ولنذكر بعض ما يتعلق بواحد واحد من الأشجار مرتبة على المعجم إن شاء الله تعالى

دلب. من أعظم الأشجار وأعلاها وأبقاها فإذا طالت مدتها تشتت

www.marefa.org

جَوْفُهَا وَيَبْقَى سَافُهَا مُحَرَّقًا وَوَرَقُهَا تَهْرُبُ مِنْهُ ٱلْخَنَافِسُ وَبَعْضُ ٱلطُّيُورِ تَجْعَلُهَا فِي أَوْكَارِهَا لِدَفْعِ ٱلْخَنَافِسِ فَإِنَّهَا تَمُوتُ مِنْهَا وَإِذَا غُسِلَ وَطُبِخَ وَضُمِّدَ بِهِ حَبَسَ ٱلنَّوَازِلَ عَنِ ٱلْعَيْنِ. قِشْرُهَا مَطْبُوخًا بِٱلْخَلِّ يَنْفَعُ مِنْ حَرْقِ ٱلنَّارِ وَوَجَعِ ٱلْأَسْنَانِ. ثَمَرَتُهَا يُقَالُ لَهَا جَوْزُ ٱلسِّرِّ وَمَعَ ٱلشَّمِّ ضِمَادٌ جَيِّدٌ لِنَهْشِ ٱلْهَوَامِّ

فُلْفُلٌ. شَجَرَةٌ تَنْبُتُ بِٱلْهِنْدِ بِنَاحِيَةٍ مِنْهَا تُسَمَّى مَلِيَارَ وَهِيَ شَجَرَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَزُولُ ٱلْمَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَإِذَا هَبَّتِ ٱلرِّيَاحُ تَسَاقَطَتْ حُبُوبُهَا عَلَى وَجْهِ ٱلْمَاءِ فَتُجْمَعُ مِنْهُ وَلِذَلِكَ فُسْحَةٌ وَهِيَ شَجَرَةٌ حُرَّةٌ لَا مُلْكَ لِأَحَدٍ فِيهَا وَحَمْلُهَا عَلَيْهَا شِتَاءً وَصَيْفًا وَهُوَ عَنَاقِيدُ. فَإِذَا حَمِيَتِ ٱلشَّمْسُ عَلَيْهَا ٱنْطَبَقَتْ عَلَى عَنْقُودٍ مِنْهَا أَوْرَاقٌ حَتَّى لَا يَحْتَرِقَ بِٱلشَّمْسِ فَإِذَا زَالَتِ ٱلشَّمْسُ عَنْهَا زَالَتِ ٱلْأَوْرَاقُ عَنِ ٱلْعَنَاقِيدِ لِتَنَالَ ٱلنَّسِيمَ. وَذَكَرَ مَنْ رَآهَا أَنَّ شَجَرَتَهَا مِثْلُ شَجَرَةِ ٱلرُّمَّانِ وَبَيْنَ ٱلْوَرَقَتَيْنِ شِمْرَاخَانِ مَنْظُومَانِ بِٱلْفُلْفُلِ وَشِمْرَاخُهُ فِي طُولِ ٱلْإِصْبَعِ. قَالَ جَالِينُوسُ أَوَّلُ مَا تَطْلُعُ ثَمَرَتُهَا تَكُونُ دَارَ فُلْفُلٍ ثُمَّ تَنْفَصِلُ عَنْ حَبٍّ يَكُونُ هُوَ ٱلْفُلْفُلَ

قَرَنْفُلٌ. شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي بَعْضِ جَزَائِرِ ٱلْهِنْدِ ثَمَرَتُهَا كَٱلْيَاسَمِينِ إِلَّا أَنَّهَا أَشَدُّ سَوَادًا. وَذَكَرُوا أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ لَا يُخْرِجُونَهَا إِلَّا مَطْبُوخَةً لِئَلَّا تَنْبُتَ فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْبِلَادِ

نَارَجِيلٌ. هُوَ ٱلْجَوْزُ ٱلْهِنْدِيُّ زَعَمَ أَهْلُ ٱلْحِجَازِ أَنَّ شَجَرَةَ ٱلنَّارَجِيلِ هِيَ ٱلْمُقْلُ لَكِنَّهَا أَثْمَرَتْ نَارَجِيلًا لِطِبَاعِ ٱلتُّرْبَةِ وَٱلْأَهْوِيَةِ. عَلَى ثَمَرَتِهَا لِيفٌ يُتَّخَذُ مِنْهُ ٱلْحِبَالُ تُسْتَعْمَلُ فِي سُفُنِ ٱلْبَحْرِ تَصْبِرُ عَلَى ٱلْمَاءِ طَوِيلًا لَا تَتَعَفَّنُ.

www.marefa.org

لَبَنُهَا لَذِيذٌ كَثِيرُ ٱلْحَلَاوَةِ إِذَا كَانَ رَطْبًا

نَخْلٌ. شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ لَا تُوجَدُ إِلَّا بِبِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ قَالَ عَمِّكُمُ ٱلنَّخْلَةُ وَإِنَّمَا سَمَّاهَا عَمَّتَنَا لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينِ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَهِيَ تُشْبِهُ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ ٱسْتِقَامَةِ قَدِّهَا وَطُولِهَا وَٱمْتِيَازِ ذَكَرِهَا عَنْ أُنْثَاهَا وَٱخْتِصَاصِهَا بِٱللِّقَاحِ. وَلَوْ قُطِعَ رَأْسُهَا هَلَكَتْ. لِطَلْعِهَا غِلَافٌ كَٱلْمَشِيمَةِ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْوَلَدُ فِيهَا. وَٱلْجُمَّارُ ٱلَّذِي عَلَى رَأْسِهَا لَوْ أَصَابَهُ آفَةٌ هَلَكَتِ ٱلنَّخْلَةُ كَهَيْئَةِ مُخِّ ٱلْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَهُ آفَةٌ. وَإِذَا قُطِعَ مِنْهَا غُصْنٌ لَا يَرْجِعُ بَدَلُهُ كَعُضْوِ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَيْهَا لِيفٌ كَشَعْرٍ يَكُونُ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْفَلَاحَةِ إِذَا لَمْ يُثْمِرْ شَيْءٌ مِنَ ٱلنَّخْلِ يَأْخُذُ رَجُلٌ فَأْسًا وَيَقْرُبُ مِنْهَا وَيَقُولُ لِغَيْرِهِ إِنِّي أُرِيدُ قَطْعَ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ لِأَنَّهَا لَا تُثْمِرُ. فَيَقُولُ ٱلْآخَرُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهَا تُثْمِرُ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ فَيَقُولُ ٱلرَّجُلُ إِنَّهَا لَا تَفْعَلُ شَيْئًا وَبِضَرْبِهَا ضَرْبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً فَيُمْسِكُهُ ٱلْآخَرُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهَا شَجَرَةٌ حَسَنَةٌ وَٱصْبِرْ عَلَيْهَا هٰذِهِ ٱلسَّنَةَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَٱفْعَلْ مَا بَدَا لَكَ. قَالَ فَإِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلشَّجَرَةَ تُثْمِرُ ثَمَرًا كَثِيرًا وَكَذٰلِكَ غَيْرُ ٱلنَّخْلِ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ إِذَا فُعِلَ بِهِ هٰذَا فَإِنَّهُ يُثْمِرُ. قَالَ أَيْضًا إِذَا قَارَبَتْ بَيْنَ ذُكْرَانِ ٱلنَّخْلِ وَإِنَاثِهَا فَإِنَّهَا تُكْثِرُ حَمْلَهَا لِأَنَّهَا تَسْتَأْنِسُ بِٱلْمُجَاوَرَةِ وَرُبَّمَا قُطِعَ إِلْفُهَا مِنَ ٱلذُّكْرَانِ فَلَا تَحْمِلُ شَيْئًا لِفِرَاقِهِ. وَإِذَا غَرَسْتَ ٱلذُّكْرَانَ وَسَطَ ٱلْإِنَاثِ وَهَبَّتِ ٱلرِّيحُ فَخَالَطَتِ ٱلْإِنَاثَ رَائِحَةُ طَلْعِ ٱلذُّكْرَانِ حَمَلَتْ مِنْ تِلْكَ ٱلرَّائِحَةِ كُلُّ أُنْثَى حَوْلَهُ

www.marefa.org

القسم الثاني من النبات

النجوم

النجم كل نبات ليس له ساق صلب مرتفع مثل الزروع والبقول والرياحين والحشائش البرية ..... ومن الأمور العجيبة القوة التي خلقها الله في نفس الحب فإنها إذا وقعت في الأرض جذبت بواسطة تلك القوة الرطوبة من نفس الأرض مما حواليها كما تجذب شعلة النار في السراج تلك الرطوبة فتعمل فيها القوى الطبيعية بإرادة الله تعالى حتى تبلغ كمالها كما أراد الله تعالى. والنجوم في النبات كالحيوان الصغير في الحيوان الكبير فكما أن عند شدة البرد لا يبقى من الحيوانات التي لا عظم لها شيء فكذلك لا يبقى من النبات التي ليس لها خشب صلب شيء

واعلم أن عقول العقلاء متحيرة في أمر الحشائش وعجائبها وأفهام الأذكياء قاصرة عن ضبط خواصها وفوائدها وكيف لا مع ما يشاهد من اختلاف صور قضبانها واختلاف أشكالها وألوانها وعجيب صور أوراقها وأزهارها. وكل لون منها ينقسم إلى أقسام كالحمرة مثلا فإنها وردي وأرجواني وسوسني وشقائقي وأذريوني وإلى غير ذلك مع اشتراك كلها في الحمرة. ثم عجائب روائحها ومخالفة بعضها بعضا مع اشتراك الكل في الطيب. ثم عجائب أشكال حبوبها فإن لكل واحد شكل وورق وعرق وزهر ولون وطعم ورائحة وخاصية بل خاصيات لا يعرفها إلا الله تعالى والتي عرفها الإنسان بالنسبة إلى ما لم يعرفه

www.marefa.org

كَقَطْرَةٍ مِنْ بَحْرٍ. وَلْنَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ خَوَاصِّهَا مُرَتَّبَةً عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

بِيشٌ. نَبَاتٌ يَنْبُتُ بِأَرْضِ ٱلْهِنْدِ نِصْفُ دِرْهَمٍ مِنْهُ سَمٌّ قَاتِلٌ وَعَلَامَتُهُ أَنَّهُ يَعْرِضُ لِمَنْ سُقِيَ مِنْهُ جُحُوظُ ٱلْعَيْنِ وَوَرَمُ ٱلشَّفَتَيْنِ وَٱللِّسَانِ وَٱلدُّوَارُ وَٱلْغَشْيُ. وَٱلسِّمَانَى يَعْتَلِفُ مِنْهُ وَلَا يَضُرُّهُ شَيْئًا وَكَذٰلِكَ فَأْرَةُ ٱلْبِيشِ وَهُوَ حَيَوَانٌ يَسْكُنُ فِي أَصْلِهِ وَيَأْكُلُ مِنْهُ. قَالَ ٱبْنُ سِينَا إِنَّهُ يُذْهِبُ ٱلْبَرَصَ طِلَاءً وَشُرْبًا وَيَنْفَعُ مِنَ ٱلْجُذَامِ وَهُوَ سَمٌّ قَاتِلٌ يُقْتَلُ مِنْهُ نِصْفُ دِرْهَمٍ وَتِرْيَاقُهُ فَأْرَةُ ٱلْبِيشِ

دِفْلَى. مِنْهُ بَرِّيٌّ وَنَهْرِيٌّ فَٱلْبَرِّيُّ وَرَقُهُ كَوَرَقِ ٱلْحِمَّى بَلْ أَدَقُّ وَقِضْبَانُهُ طِوَالٌ مُنْبَسِطَةٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ يَنْبُتُ فِي ٱلْخَرَابَاتِ. وَٱلنَّهْرِيُّ عَلَى شُطُوطِ ٱلْأَنْهَارِ وَتَنْهَضُ قِضْبَانُهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَشَوْكُهُ خَفِيٌّ وَوَرَقُهُ كَوَرَقِ ٱلْخِلَافِ وَأَعْلَى سَاقِهِ أَغْلَظُ مِنْ أَسْفَلِهِ وَفُقَّاحُهُ كَٱلْوَرْدِ ٱلْأَحْمَرِ وَثَمَرَتُهُ صُلْبَةٌ مَحْشُوَّةٌ شَيْئًا كَٱلصُّوفِ. قَالَ ٱبْنُ سِينَا وَرَقُهُ تَهْرُبُ مِنْهُ ٱلْبَرَاغِيثُ وَأَكْلُهُ يَقْتُلُ آكِلَهُ مِنْ جَمِيعِ بَنِي آدَمَ وَسَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ

قَالَ بَلْيَاسُ عَلِمَ بَعْضُ ٱلْمُلُوكِ بِعَدُوٍّ قَصَدَهُ فِي عَسْكَرٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ فَأَخَذَ مِنَ ٱلشَّعِيرِ وَطَبَخَهُ بِٱلدِّفْلَى وَتَرَكَهُ حَتَّى جَفَّ وَأَخَذَ ٱلشَّعِيرَ مَعَهُ وَخَرَجَ إِلَى وَجْهِ ٱلْعَدُوِّ. فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ تَنَحَّى عَنْهُ وَتَرَكَ ٱلْأَثْقَالَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلشَّعِيرَ. فَوَرَدَ عَسْكَرُ ٱلْعَدُوِّ وَأَطْلَقُوا دَوَابَّهُمْ فِي ٱلشَّعِيرِ فَهَلَكَتْ كُلُّهَا فَكَرَّ عَلَيْهِمْ وَأَسَرَهُمْ

فِثَّاءُ. قَالَ صَاحِبُ ٱلْفَلَاحَةِ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ ٱلْفِثَّاءُ عَلَى صُورَةِ

www.marefa.org

شَيْءٍ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ فَخُذْ قَالَبًا لِلصُّورَةِ ٱلَّتِي أَرَدْتَ وَٱجْعَلْهَا فِيهِ وَهِيَ صَغِيرَةٌ وَٱسْتَوْثِقْ مِنْهَا رَبْطًا بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ ٱلْقَالِبَ رِيحٌ وَلَا غُبَارٌ فَإِنَّهَا إِذَا عَظُمَتْ فِيهَا كَانَتْ عَلَى صُورَةِ ٱلْقَالِبِ ٱلَّذِي جَعَلْتَهَا فِيهِ

ٱلنَّظَرُ ٱلثَّالِثُ

فِي ٱلْحَيَوَانِ

أَمَّا ٱلْحَيَوَانُ فَفِي ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلثَّالِثَةِ مِنَ ٱلْكَائِنَاتِ وَأَبْعَدُ ٱلْمَوْلُودَاتِ عَنِ ٱلْأُمَّهَاتِ لِأَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْأُولَى لِلْمَعَادِنِ وَهِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى ٱلْجَمَادِيَّةِ لِقُرْبِهَا مِنَ ٱلْبَسَائِطِ. وَٱلْمَرْتَبَةَ ٱلثَّانِيَةَ لِلنَّبَاتِ فَإِنَّهَا مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ ٱلْمَعَادِنِ لِحُصُولِ ٱلنَّشْءِ وَٱلنُّمُوِّ وَقُوَاتِ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ. وَٱلْمَرْتَبَةَ ٱلثَّالِثَةَ لِلْحَيَوَانِ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ ٱلنَّشْءِ وَٱلنُّمُوِّ وَٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ. وَهٰذِهِ قُوًى مَوْجُودَةٌ فِي جَمِيعِ أَفْرَادِ ٱلْحَيَوَانِ حَتَّى فِي ٱلذُّبَابِ وَٱلْبَعُوضِ

وَأَمَّا ٱلْحِسُّ فَلِأَنَّ ٱللهَ تَعَالَى لَمَّا قَضَى لِكُلِّ حَيَوَانٍ أَمَدًا مَعْلُومًا. وَأَبْدَانُ ٱلْحَيَوَانِ مُتَعَرِّضَةٌ لِلْآفَاتِ ٱلْمُفْسِدَةِ لَهَا ٱلْمُهْلِكَةِ لِإِيَّاهَا فَٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ لَهَا ٱلْقُوَّةَ ٱلْإِحْسَاسِيَّةَ لِتَشْعُرَ بِوَاسِطَتِهَا بِٱلْمُنَافِي فَتَدْفَعَهُ عَنْ نَفْسِهَا إِذَا أَحَسَّتْ بِأَلَمِهِ. فَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ لَمَا أَحَسَّ ٱلْحَيَوَانُ بِٱلْجُوعِ إِلَى أَنْ مَاتَ بَغْتَةً فَجْأَةً مِنْ عَدَمِ ٱلْغِذَاءِ وَلَكَانَ إِذَا نَامَ فَأَصَابَ يَدَهُ أَوْ رِجْلَهُ نَارٌ لَمْ يَكُنْ يُحِسُّ بِهِ حَتَّى يَنْتَبِهَ مِنْ نَوْمِهِ فَإِذَا هُوَ بِلَا يَدٍ أَوْ رِجْلٍ. وَأَمَّا ٱلْحَرَكَةُ فَلِأَنَّ ٱلْحَيَوَانَ لَمَّا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ٱلْغِذَاءِ وَلَمْ يَكُنْ غِذَاؤُهُ بِجَنْبِهِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ ٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ لَهُ آلَاتِ ٱلْحَرَكَةِ لِيَتَحَرَّكَ بِهَا إِلَى ٱلْغِذَاءِ. وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ وَٱحْتِيَاجُ ٱلْحَيَوَانِ إِلَى ٱلْغِذَاءِ وَلَمْ

www.marefa.org

يَقْدِرْ عَلَى ٱلْمَشْيِ إِلَيْهِ فَمَاتَ جُوعًا كَشَجَرَةٍ لَا تَجِدُ ٱلْمَاءَ حَتَّى تَجِفَّ وَلَكَانَ إِذَا أَصَابَهُ آفَةٌ مِنْ حَرَقٍ أَوْ غَرَقٍ بَقِيَ عَلَى مَكَانِهِ حَتَّى أَدْرَكَهُ ٱلْحَرَقُ أَوْ ٱلْغَرَقُ

وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْحَيَوَانَاتُ بَعْضُهَا عَدُوًّا لِبَعْضٍ ٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ لِكُلِّ حَيَوَانٍ آلَةً يَحْفَظُ بِهَا نَفْسَهُ مِنْ عَدُوِّهِ. فَمِنْهَا مَا يَدْفَعُ ٱلْعَدُوَّ بِٱلْقُوَّةِ وَٱلْمُقَاوَمَةِ كَٱلْفِيلِ وَٱلْجَامُوسِ وَٱلْأَسَدِ. وَمِنْهَا مَا يَسْلَمُ مِنْ عَدُوِّهِ بِٱلْفِرَارِ فَأُعْطِيَ آلَةَ ٱلْفِرَارِ كَٱلظِّبَاءِ وَٱلْأَرَانِبِ وَٱلطُّيُورِ. وَمِنْهَا مَا يَحْفَظُ نَفْسَهُ بِسِلَاحٍ كَٱلْقُنْفُذِ وَٱلشِّيهَمِ وَٱلسُّلَحْفَاةِ. وَمِنْهَا يَحْفَظُ نَفْسَهُ بِحِصْنٍ كَٱلْفَأْرِ وَٱلْحَيَّةِ وَٱلْهَوَامِّ. وَمِنْ مُقْتَضَى ٱلْحِكْمَةِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ أَنْ خُلِقَ لِكُلِّ حَيَوَانٍ مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ بَقَاءُ ذَاتِهِ وَنَوْعِهِ لَا زَائِدًا وَلَا نَاقِصًا.

لِذٰلِكَ ٱخْتَلَفَتْ أَشْكَالُهَا وَأَعْضَاؤُهَا وَتَنَوَّعَتْ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً

وَلْنَذْكُرِ ٱلْآنَ بَعْضَ أَنْوَاعِ ٱلْحَيَوَانِ وَعَجَائِبَهَا وَخَوَاصَّهَا

إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

ٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ

ٱلْإِنْسَانُ

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُجْمَلٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلْبَدَنِ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَخُلَاصَةُ ٱلْمَخْلُوقَاتِ. رَكَّبَهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ رُوحًا وَبَدَنًا وَخَصَّصَهُ بِٱلنُّطْقِ وَٱلْعَقْلِ سِرًّا وَعَلَنًا وَزَيَّنَ ظَاهِرَهُ بِٱلْحَوَاسِّ وَٱلْحُظِّ ٱلْأَوْفَى وَبَاطِنَهُ بِٱلْقُوَى مَا هُوَ أَدْرَفُ وَأَقْوَى وَهَيَّأَ لِلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ ٱلدِّمَاغَ وَأَسْكَنَهُ أَعْلَى مَحَلٍّ وَأَوْفَقَ [illegible] بِٱلْفِكْرِ وَٱلذِّكْرِ

www.marefa.org

وَٱلْحِفْظِ وَسَلَّطَ عَلَيْهِ ٱلْجَوَاهِرَ ٱلْعَقْلِيَّةَ لِتَكُونَ ٱلنَّفْسُ أَمِيرًا وَٱلْعَقْلُ وَزِيرَهُ وَٱلْقُوَى جُنُودَهُ وَٱلْحِسُّ ٱلْمُشْتَرِكُ بَرِيدَهُ وَٱلْأَعْضَاءَ خَدَمَهُ وَٱلْبَدَنُ مَحَلَّ مَمْلَكَتِهِ. وَٱلْحَوَاسُّ يُسَافِرُونَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ فِي عَالَمِهِمْ وَيَلْتَقِطُونَ ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُوَافِقَةَ وَٱلْمُخَالِفَةَ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى ٱلْحِسِّ ٱلْمُشْتَرِكِ ٱلَّذِي هُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلْحَوَاسِّ عَلَى بَابِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ يَعْرِضُهَا عَلَى ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ تَخْتَارُ مَا يُوَافِقُ وَتَطْرَحُ مَا لَا يُوَافِقُ

فَمِنْ هٰذَا ٱلْوَجْهِ قَالُوا ٱلْإِنْسَانُ عَالَمٌ صَغِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ يَتَغَذَّى وَيَنْمُو قَالُوا نَبَاتٌ وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ يَحِسُّ وَيَتَحَرَّكُ قَالُوا حَيَوَانٌ وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَعْلَمُ حَقَائِقَ ٱلْأَشْيَاءِ قَالُوا مَلَكٌ فَصَارَ مَجْمَعًا لِهٰذِهِ ٱلْمَعَانِي. فَإِذَا صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى جِهَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَاتِ بَلْتَحِقُ بِهَا. وَإِنْ كَانَ قَدْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى جِهَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَيَكُونُ رَضِيًّا مِنْ دُنْيَاهُ بِٱلتَّغَذِّي وَتَنْقِيَةِ ٱلْفُضُولِ. وَإِنْ كَانَ إِلَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَيَكُونُ إِمَّا غَضُوبًا كَسَبُعٍ أَوْ شَبِقًا كَتَيْسٍ أَوْ أَكُولًا كَثَوْرٍ أَوْ شَرِهًا كَخِنْزِيرٍ أَوْ ضَرِعًا كَكَلْبٍ أَوْ حَقُودًا كَجَمَلٍ أَوْ مُتَكَبِّرًا كَنَمِرٍ أَوْ ذَا رَوَغَانٍ كَثَعْلَبٍ أَوْ يَجْمَعُ هٰذَا كُلَّهُ فَيَكُونُ شَيْطَانًا مَرِيدًا. وَإِنْ كَانَ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلْجِهَةِ ٱلْمَلَكِيَّةِ فَيَكُونُ مُتَوَجِّهًا إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْأَعْلَى وَلَا يَرْضَى بِٱلْمَنْزِلِ ٱلْأَسْفَلِ وَٱلْمَرْبَعِ ٱلْأَدْنَى

ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْقُوَى

ٱلْقُوَى صِنْفٌ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ خَلَقَهَا ٱللهُ تَعَالَى لِتَدْبِيرِ ٱلْأَبْدَانِ وَقِوَامِ مَنَافِعِ أَعْضَائِهَا مِنَ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ فَتُشْبِهُ أَفْعَالُهَا فِيهَا أَفْعَالَ صُنَّاعِ ٱلْبِلَادِ وَسُكَّانِهَا. فَإِنَّ حَالَ ٱلْبَدَنِ مَعَ ٱلرُّوحِ وَهٰذِهِ ٱلْقُوَى تُشْبِهُ

www.marefa.org

مَدِينَةً عَامِرَةً بِآلَايِهَا مَأْنُوسَةً بِسُكَّانِهَا مَفْتُوحَةَ ٱلْأَسْوَاقِ مَسْلُوكَةَ ٱلطُّرُقَاتِ مُشْتَغِلَةَ ٱلصُّنَّاعِ وَحَالَهُ عِنْدَ ٱلنَّوْمِ وَهَدْوِ ٱلْحَوَاسِّ وَسُكُونِ ٱلْحَرَكَاتِ تُشْبِهُ حَالَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱللَّيْلِ إِذَا غُلِقَتْ أَبْوَابُهَا وَتَعَطَّلَتْ صُنَّاعُهَا وَنَامَ أَهْلُهَا

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ ٱلْبَدَنَ كَبَيْتٍ مُنَقَّشٍ بِنُقُوشٍ غَرِيبَةٍ وَصُوَرٍ عَجِيبَةٍ وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَٱلْقُوَى تِلْكَ ٱلنُّقُوشُ وَٱلصُّوَرُ وَٱلنَّفْسُ كَٱلسِّرَاجِ ٱلَّذِي يُدَارُ فِي أَطْرَافِ ٱلْبَيْتِ وَبِسَبَبِ وُصُولِ ضَوْئِهِ إِلَى أَجْزَاءِ ٱلْبَيْتِ يُرَى فِي سَقْفِهِ وَحِيطَانِهِ وَفَرْشِهِ عَجَائِبُ تَبْهَرُ فِيهَا بَلْ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا مِثْلُ ٱلْحِسِّ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْفَهْمِ وَٱلْقُوَى ٱلظَّاهِرَةِ وَٱلْبَاطِنَةِ وَٱلْجَمَالِ وَغَيْرِهَا. فَإِذَا فَارَقَ ٱلنَّفْسُ بَطَلَتْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي كُلُّهَا كَمَا أَنَّ ٱلْبَيْتَ عِنْدَ ٱنْطِفَاءِ ٱلسِّرَاجِ لَا يُرَى لِتِلْكَ ٱلصُّوَرِ وَٱلنُّقُوشِ أَثَرٌ. وَعَجَائِبُ ٱلْقُوَى خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْفَهْمِ لٰكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَذْكُرَ بَعْضَ مَا أَدْرَكَهُ أَذْكِيَاءُ ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ ٱلْمَوْدُوعَةِ فِي ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْأَرْبَعَةِ مِنَ ٱلْقُوَى

ٱلْقُوَى ٱلظَّاهِرَةُ وَهِيَ ٱلْحَوَاسُّ ٱلْخَمْسُ

ٱلْأَوَّلُ حَاسَّةُ ٱللَّمْسِ وَهِيَ قُوَّةٌ مُنْبَثَّةٌ فِي جَمِيعِ جِلْدِ ٱلْبَدَنِ يُدْرِكُ بِهَا مَا يُلَاقِيهِ وَيُؤَثِّرُ فِيهِ. فَإِنَّهَا أَوَّلُ حَاسَّةٍ خُلِقَتْ لِلْحَيَوَانِ حَتَّى إِذَا مَسَّتْهُ نَارٌ أَوْ حَدِيدٌ جَارِحٌ يُحِسُّ بِهِ فَيَهْرُبُ مِنْهُ وَلَا يُتَصَوَّرُ حَيَوَانٌ إِلَّا وَلَهُ هٰذَا ٱلْحِسُّ حَتَّى ٱلدُّودَةُ ٱلَّتِي فِي ٱلطِّينِ فَإِنَّهَا إِذَا غُرِزَ فِيهَا إِبْرَةٌ ٱنْقَبَضَتْ

ٱلثَّانِيَةُ ٱلشَّمُّ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي مُقَدَّمِ ٱلدِّمَاغِ تُدْرِكُ ٱلرَّوَائِحَ ٱلَّتِي يُؤَدِّيهَا

www.marefa.org

ٱلْهَوَآءُ ٱلْمُتَكَيِّفُ بِتِلْكَ ٱلْكَيْفِيَّةِ

ٱلثَّالِثَةُ ٱلْبَصَرُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُرَتَّبَةٌ فِي عَصَبَةٍ مُجَوَّفَةٍ فِي ٱلْعَيْنِ تُدْرِكُ بِحُصُولِ ٱلْأَشْيَاءِ ذَوَاتِ ٱلصُّوَرِ وَٱلْأَلْوَانِ. فَإِنَّ ٱلضَّوْءَ إِذَا سَرَى فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ وَحَمَلَ مَعَهُ أَلْوَانَ ٱلْأَجْسَامِ وَٱتَّصَلَ بِحَدَقَةِ ٱلْحَيَوَانِ وَسَرَى فِيهَا كَمَا يَسْرِي فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ ٱنْصَبَغَتِ ٱلْحَدَقَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَلْوَانِ كَمَا يَنْصَبِغُ ٱلْهَوَاءُ بِٱلضِّيَاءِ فَعِنْدَ ذٰلِكَ يُحِسُّ بِٱلْقُوَّةِ ٱلْبَاصِرَةِ

ٱلرَّابِعَةُ ٱلشَّمُّ وَهِيَ قُوَّةٌ مُرَتَّبَةٌ فِي عَصَبٍ دَاخِلَ ٱلصِّمَاخِ تُدْرِكُ ٱلصَّوْتَ ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ ٱلْهَوَاءُ بِٱلتَّمَوُّجِ وَحَالُهُ تُشْبِهُ بِتَمَوُّجِ ٱلْمَاءِ فَإِنَّ ٱلْهَوَاءَ أَشَدُّ لَطَافَةً مِنَ ٱلْمَاءِ. فَإِذَا وَقَعَ شَيْءٌ فِي ٱلْمَاءِ تَحْدُثُ مِنْ وُقُوعِهِ دَوَائِرُ فَكُلَّمَا ٱتَّسَعَ ذٰلِكَ ٱلشَّكْلُ ضَعُفَتْ حَرَكَتُهُ وَتَمَوُّجُهُ إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ. فَكَذٰلِكَ يَحْصُلُ مِنْ قَرْعِ ٱلصَّوْتِ ٱلْهَوَاءُ تَمَوُّجٌ فَأَيُّ سَامِعٍ حَصَلَ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْجِ دَخَلَ أُذُنَهُ فَتُحِسُّ بِهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلسَّامِعَةُ

ٱلْخَامِسَةُ ٱلذَّوْقُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُنْبَثَّةٌ فِي جِرْمِ ٱللِّسَانِ يُدْرِكُ بِهَا مَا يُمَاسُّهُ مِنَ ٱلْمَطْعُومِ بِوَاسِطَةِ ٱلرُّطُوبَةِ ٱلْعَذْبَةِ ٱلَّتِي تَحْتَ ٱللِّسَانِ. فَإِنَّ تِلْكَ ٱلرُّطُوبَةَ تُخَالِفُ ٱلْجِسْمَ ٱلَّذِي فِيهِ كَيْفِيَّةُ ٱلطَّعْمِ فَتَتَكَيَّفُ بِتِلْكَ ٱلْكَيْفِيَّةِ فَيَحْصُلُ ٱلْإِحْسَاسُ بِٱلطَّعْمِ

www.marefa.org

فَصْلٌ فِي ٱلدَّوَابِّ

وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ أَحْسَنُ ٱلْبَهَائِمِ صُورَةً وَأَكْثَرُهَا نَفْعًا. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ لَطِيفَ ٱلْبَدَنِ بَطِيءَ ٱلْمَشْيِ كَثِيرَ ٱلْعَدُوِّ مِنْ جِنْسِهِ وَتَحْتَ جِنْسِهِ وَحَرَكَاتُهُ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلْوَفَاءِ بِمَقَاصِدِهِ مِنَ ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ ٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ خَلْقَ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَهَدَاهُ إِلَى تَذْلِيلِهَا وَتَصْرِيفِهَا تَحْتَهُ فِي أَنْحَاءِ مَقَاصِدِهِ لِتَقُومَ لَهُ مَقَامَ ٱلْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ وَٱلْقَوَائِمِ لِلْبَهَائِمِ وَٱلدَّوَابِّ. وَزَعَمُوا أَنَّ آذَانَهَا إِنَّمَا خُلِقَتْ فَوْقَ رُءُوسِهَا ذَاتَ حَرَكَاتٍ شَتَّى لِيُحَاذِيَ ٱلثَّقْبُ جِهَاتِ شَتَّى وَتَرِدَ ٱلْهَوَاءُ إِلَيْهِ فَتَكُونَ فَائِدَةُ ٱلسَّمْعِ أَكْثَرَ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْفَرَسُ أَذْكَى حِسًّا مِنَ ٱلْحِمَارِ خُلِقَتْ أُذُنُهُ أَصْغَرَ مِنْ أُذُنِ ٱلْحِمَارِ وَذَنَبُهُ أَطْوَلَ مِنْ ذَنَبِ ٱلْحِمَارِ لِأَنَّ ٱلْفَرَسَ يَكْفِيهِ مِنْ قَرْعِ ٱلْهَوَامِّ دُونَ مَا يَكْفِي ٱلْحِمَارَ لِصَفَاءِ حِسِّ ٱلْفَرَسِ وَكُدُورَةِ حِسِّ ٱلْحِمَارِ وَكَذٰلِكَ طُولُ ذَنَبِهِ لِأَنَّ إِحْسَاسَهُ بِلَدْغِ ٱلْهَوَامِّ فَوْقَ إِحْسَاسِ ٱلْحِمَارِ فَجُعِلَ طَاقَاتُ ذَنَبِهِ طَوِيلَةً لِيَطْرُدَ بِهَا ٱلْهَوَامَّ عَنْ بَدَنِهِ

وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنَ ٱلدَّوَابِّ ٱلسَّيْرَ صُلِبَتْ حَوَافِرُهَا لِيُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ ٱلْكَثِيرُ عَلَيْهَا وَلِتَكُونَ سِلَاحًا دَافِعًا لِلْعَدُوِّ. فَإِنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ لَهُ حَافِرٌ لَا قَرْنَ لَهُ لِأَنَّ ٱلْمَادَّةَ لَا تَفِي بِهِمَا جَمِيعًا وَكُلُّ حَيَوَانٍ لَهُ قَرْنٌ لَا حَافِرَ لَهُ بَلْ لَهُ ظِلْفٌ فَإِنَّ ٱلْمَادَّةَ تَفِي بِهِمَا جَمِيعًا فَتَتِمُّ آلَةُ ٱلْمَشْيِ وَٱلسِّلَاحِ فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ دُونَ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلنُّقْصَانِ

www.marefa.org

فَصْلٌ فِي ٱلنَّعَمِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرُ ٱلْفَائِدَةِ شَدِيدُ ٱلِٱنْقِيَادِ لَيْسَ لَهُ شَرَاسَةُ ٱلدَّوَابِّ وَلَا نَفْرَةُ ٱلسِّبَاعِ وَلِشِدَّةِ حَاجَةِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهَا لَمْ يَخْلُقْ لَهَا سِلَاحٌ شَدِيدٌ كَأَنْيَابِ ٱلسِّبَاعِ وَبَرَاثِنِهَا وَأَنْيَابِ ٱلْحَشَرَاتِ وَإِبَرِهَا. شَأْنُهَا ٱلثَّبَاتُ وَٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلتَّعَبِ وَٱلْجُوعِ وَٱلْعَطَشِ وَخُلِقَتْ ذَلُولًا. وَخُلِقَ ٱلْقَرْنُ سِلَاحًا لَهَا لِيَتَدَارَكَ تَقْصِيرَ ٱلْحَافِرِ وَجُعِلَ لَهَا بَدَلَ ٱلْحَافِرِ ظِلْفٌ لِقُصُورِ ٱلْمَادَّةِ عَنِ ٱلْحَافِرِ وَٱلْقَرْنِ. وَرُبَّمَا صُرِفَتِ ٱلْمَادَّةُ فِي جِهَةٍ أَنْفَعَ وَتُرِكَتِ ٱلْجِهَةُ ٱلَّتِي هِيَ أَقَلُّ نَفْعًا كَتَرْكِ ٱلْفَكِّ ٱلْأَعْلَى لِلْبَقَرِ بِلَا سِنٍّ وَصَرْفِ مَادَّتِهَا إِلَى ٱلْقَرْنِ

وَٱلْقُوَّةُ ٱلْمُدَبِّرَةُ بِإِذْنِ ٱللهِ تَعَالَى تُؤَيِّدُ ٱلْحَيَوَانَ إِمَّا بِسِلَاحٍ أَوْ جُنَّةٍ أَوْ هَرَبٍ وَأَيُّ هٰذِهِ فُقِدَتْ مَادَّتُهُ دُبِّرَتْ بِمَادَّةٍ أُخْرَى حَتَّى يَكُونَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَقَاءِ شَخْصِهِ وَنَوْعِهِ

ثُمَّ إِنَّ ٱلنَّعَمَ لَمَّا كَانَ أَكْلُهَا ٱلْحَشِيشَ ٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ لَهَا أَفْوَاهًا وَاسِعَةً وَأَسْنَانًا حِدَادًا وَأَضْرَاسًا صِلَابًا لِتَطْحَنَ بِهَا ٱلصُّلْبَ مِنَ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَى. وَلَمَّا ٱفْتَقَرَتْ إِلَى زِيَادَةِ قُوَّةٍ لِتَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلْعَمَلِ ٱلْمَطْلُوبِ مِنْهَا خُلِقَ لَهَا كَرِشٌ وَاسِعٌ لِتَحْمِلَ فِيهِ مِنَ ٱلْعَلَفِ شَيْئًا كَثِيرًا يَفِي بِغِذَائِهَا وَإِذَا رَجَعَتْ إِلَى أَمَاكِنِهَا تَجْعَلُهُ بِٱلِٱجْتِرَارِ مُنْهَيِّئًا لِلنُّضْجِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ تُمَيِّزُ طَبِيعَتُهَا لَطِيفَهُ مِنْ ثَقِيلِهِ فَتَجْعَلُ ٱللَّبَنَ ٱلْيَابِسَ لَحْمًا وَدَمًا. وَمِنَ ٱلْعَجَبِ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي خَلَقَهَا ٱللهُ تَعَالَى فِي أَضْرَاسِهَا فَإِنَّهَا بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ فِي ٱلطَّحْنِ لَا تَفْتُرُ إِلَّا قَلِيلًا فَلَوْ كَانَتْ مِنَ ٱلْحَدِيدِ ٱلذَّكَرِ لَانْخَسَفَتْ وَتَفَتَّتَتْ

www.marefa.org

وَلْنَذْكُرْ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ

زَرَافَةٌ. رَأْسُهَا كَرَأْسِ ٱلْإِبِلِ وَقَرْنُهَا كَقَرْنِ ٱلْبَقَرِ وَجِلْدُهَا كَجِلْدِ ٱلنَّمِرِ وَفَوَائِمُهَا كَمَا لِلْبَعِيرِ وَأَظْلَافُهَا كَمَا لِلْبَقَرِ. طَوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ جِدًّا طَوِيلَةُ ٱلْيَدَيْنِ قَصِيرَةُ ٱلرِّجْلَيْنِ وَصُورَتُهَا بِٱلْبَعِيرِ أَقْرَبُ وَجِلْدُهَا بِٱلْبَقَرِ أَشْبَهُ وَذَنَبُهَا كَذَنَبِ ٱلظِّبَاءِ. قَالُوا ٱلزَّرَافَةُ مُتَوَلِّدَةٌ مِنْ نَاقَةِ ٱلْحَبَشَةِ وَٱلْبَقَرَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَٱلضِّبْعَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلضِّبْعَانَ بِبِلَادِ ٱلْحَبَشَةِ يَسْفِدُ ٱلنَّاقَةَ فَتَجِيءُ بِوَلَدٍ بَيْنَ خِلْقَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلضِّبْعَانِ. فَإِنْ كَانَ وَلَدُ تِلْكَ ٱلنَّاقَةِ ذَكَرًا وَلَحِقَ بِٱلْمَهَاةِ أَتَتْ بِٱلزَّرَافَةِ

وَحَكَى طِيمَاثُ ٱلْحَكِيمُ أَنَّ بِجَانِبِ ٱلْجَنُوبِ بِقُرْبِ خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ بِٱلصَّيْفِ تَجْتَمِعُ حَيَوَانَاتٌ مُخْتَلِفَةُ ٱلْأَنْوَاعِ عَلَى مَصَانِعِ ٱلْمَاءِ مِنْ شِدَّةِ ٱلْعَطَشِ فَرُبَّمَا سَافَدَتْ غَيْرَ أَنْوَاعِهَا فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِثْلُ ٱلزَّرَافَةِ وَٱلسَّمْعِ وَٱلسِّبَارِ وَأَمْثَالِهَا. وَٱلزَّرَافَةُ مِنَ ٱلْخَلْقِ ٱلْعَجِيبِ لَيْسَ عِنْدَهَا إِلَّا ظَرَافَةُ ٱلصُّورَةِ وَغَرَابَةُ ٱلتَّاجِ

ظِبَاءُ ٱلْمِسْكِ. فَإِنَّهَا كَظِبَاءِ بِلَادِنَا إِلَّا أَنَّ لَهَا نَابَيْنِ مُعْقَفَيْنِ خَارِجَيْنِ مِنَ ٱلْفَمِ كَمَا لِلْفِيلِ. فَرُبَّمَا ٱصْطِيدَتْ وَٱلْمِسْكُ فِي سُرَّتِهَا غَيْرُ نَضِيجٍ تَكُونُ فِيهِ زُهُوكَةٌ وَسَبِيلُهُ سَبِيلُ ٱلثِّمَارِ إِذَا قُطِفَتْ قَبْلَ إِدْرَاكِهَا فَإِنَّهَا تَكُونُ نَاقِصَةَ ٱلطَّعْمِ وَٱلرَّائِحَةِ. وَأَجْوَدُ ٱلْمِسْكِ مَا أَلْقَاهُ ٱلْغَزَالُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ تَدْفَعُ مَوَادَّ ٱلدَّمِ إِلَى سُرَّتِهِ فَإِذَا ٱسْتَحْكَمَ ٱلدَّمُ فِيهَا وَنَضِجَ يَجِدُ مِنْ ذٰلِكَ أَذِيَّةً وَحِكَّةً فِي سُرَّتِهِ فَيَفْزَعُ حِينَئِذٍ إِلَى صَخْرَةٍ حَادَّةٍ فَيَحُكُّ فِيهَا مُلْتَذًّا بِذٰلِكَ فَتَنْفَجِرُ ٱلْمَادَّةُ حِينَئِذٍ وَتَسِيلُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْحَجَرِ كَٱنْفِجَارِ

www.marefa.org

ٱلْخَرَاجِ وَٱلدَّمَامِيلِ إِذَا نَضِجَتْ فَيَجِدُ ٱلْغَزَالُ بِخُرُوجِهَا لَذَّةً . وَٱلنَّاسُ يَتْبَعُونَ مَرَاعِيَهَا فِي ٱلْجِبَالِ فَيَجِدُونَ ذٰلِكَ ٱلدَّمَ قَدْ جَمَدَ عَلَى تِلْكَ ٱلصُّخُورِ فَيَحُكُّونَهُ وَيَدَّعُونَهُ فِي نَوَافِجَ مَعَهُمْ مُعَدَّةٍ لِذٰلِكَ. فَذٰلِكَ أَفْضَلُ ٱلْمِسْكِ تَسْتَعْمِلُهُ مُلُوكُهُمْ وَيَتَهَادَوْنَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ

فَصْلٌ فِي ٱلسِّبَاعِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ

دُبٌّ. حَيَوَانٌ جَسِيمٌ يُحِبُّ ٱلْعُزْلَةَ فَإِذَا جَاءَ ٱلشِّتَاءُ يَدْخُلُ وِجَارَهُ ٱلَّذِي ٱتَّخَذَهُ فِي ٱلْغِيرَانِ وَلَا يَخْرُجُ حَتَّى يَطِيبَ ٱلْهَوَاءُ إِذَا جَاعَ يَمُصُّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَدْفَعُ بِذٰلِكَ جُوعَهُ وَيَخْرُجُ مِنْ وِجَارِهِ فَصْلَ ٱلرَّبِيعِ أَسْمَنَ مِمَّا كَانَ. وَيُخَاصِمُهُ ٱلْبَقَرُ فَإِذَا نَطَحَهُ ٱلْبَقَرُ ٱسْتَلْقَى وَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ قَرْنَيْهِ وَيَعَضُّهُ عَضًّا شَدِيدًا يَقْهَرُ

وَٱلدُّبَّةُ إِذَا وَلَدَتْ يَكُونُ وَلَدُهَا كَقِطْعَةِ لَحْمٍ نَخَافُ عَلَيْهَا مِنَ ٱلنَّمْلِ فَتَنْقُلُهَا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ فَإِذَا صَلُبَ بَدَنُ ٱلْوَلَدِ أَقَرَّتْهُ فِي مَوْضِعٍ. وَرُبَّمَا تَتْرُكُ أَوْلَادَهَا وَتُرْضِعُ وَلَدَ ٱلضَّبُعِ. وَلِهٰذَا تَقُولُ ٱلْعَرَبُ فُلَانٌ أَحْمَقُ مِنْ جَهِيزَةَ وَهِيَ ٱلْأُنْثَى مِنَ ٱلدُّبِّ

فَصْلٌ فِي ٱلطُّيُورِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلسَّادِسُ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ مُخْتَصٌّ بِخِفَّةِ ٱلْبَدَنِ وَفَقْدِ أَعْضَاءَ كَثِيرَةٍ وَجِدَتْ فِي غَيْرِهِ. وَٱلْحِكْمَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ ٱلْحَيَوَانَ وَجَعَلَ بَعْضَهَا عَدُوًّا لِبَعْضٍ أَعْطَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِمَّا قُوَّةً وَسِلَاحًا يَدْفَعُ بِهَا عَدُوَّهُ كَمَا لِلدَّوَابِّ وَٱلسِّبَاعِ أَوْ آلَةً يَهْرُبُ بِهَا كَمَا لِلْوُحُوشِ وَٱلطُّيُورِ. وَأَمَّا ٱلْوُحُوشُ فَلِأَنَّهَا قَوَائِمُهَا وَأَمَّا ٱلطُّيُورُ فَلِأَنَّهَا أَجْنِحَتُهَا.

www.marefa.org

ثُمَّ إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآلَةَ ٱقْتَضَتْ خِفَّةَ ٱلْجُثَّةِ إِذْ لَوْ كَانَتِ ٱلْجُثَّةُ كَبِيرَةً ٱقْتَضَتْ كِبَرَ ٱلْجَنَاحِ وَٱلْجَنَاحُ ٱلْكَبِيرُ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ سُرْعَةُ ٱلطَّيَرَانِ بَلْ يَكُونُ طَيَرَانُهُ بَطِيًّا لَا يَزِيدُ عَلَى سُرْعَةِ ٱلْمَشْيِ فَلَا يَحْصُلُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ

وَمِنَ ٱلْعَجَائِبِ طَيَرَانُ ٱلطَّيْرِ فِي ٱلْهَوَاءِ وَعَدَمُ سُقُوطِهِ وَٱلْهَوَاءُ أَخَفُّ مِنْهُ وَهُوَ أَثْقَلُ مِنْهَا. فَلَمَّا ٱقْتَضَى هٰذِهِ ٱلْآلَةُ خِفَّةَ ٱلْجُثَّةِ نَقَصَ مِنْهَا أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلَّتِي تَلِدُ وَتُرْضِعُ لِيَسْهُلَ عَلَيْهَا ٱلنُّهُوضُ وَيَسْهُلَ ٱلطَّيَرَانُ كَٱلْأَسْنَانِ وَٱلْآذَانِ وَٱلْكَرِشِ وَٱلْمَثَانَةِ وَخَرَزَاتِ ٱلظَّهْرِ وَٱلْجِلْدِ ٱلثَّخِينِ. وَإِذَا تَأَمَّلْتَ خِلْقَةَ ٱلطَّيْرِ وَجَدْتَ نِسْبَةَ قُدَّامِهِ إِلَى أَسْفَلِهِ كَنِسْبَةِ يَمِينِهِ إِلَى شِمَالِهِ فَإِنْ كَانَ طَوِيلَ ٱلرَّقَبَةِ تَطُولُ أَيْضًا رِجْلَاهُ وَلَمَّا قَصَرَتْ رَقَبَتُهُ قَصَرَتْ رِجْلَاهُ. وَلَوْ نَتَفَ ذَنَبَ ٱلطَّيْرِ لَمَالَ إِلَى قُدَّامٍ كَٱلسَّفِينَةِ ٱلَّتِي خَفَّ مُؤَخَّرُهَا. قَالَ ٱلْجَاحِظُ كُلُّ طَائِرٍ جَيِّدِ ٱلْجَنَاحِ يَكُونُ ضَعِيفَ ٱلرِّجْلَيْنِ كَٱلزَّرَازِيرِ وَٱلْعَصَافِيرِ وَإِذَا قُطِعَتْ رِجْلَاهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلطَّيَرَانِ كَمَا إِذَا قُطِعَتْ يَدُ ٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْعَدْوِ. وَكُلُّ طَائِرٍ يَعُبُّ ٱلْمَاءَ يَزُقُّ فَرْخَهُ. وَمِنَ ٱلطُّيُورِ مَا أُعْطِيَ ٱلْعَجَبَ فِي لَوْنِهِ كَٱلطَّاوُسِ وَٱلْبَبَّغَا وَأَبِي بَرَاقِشَ. وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي حَلْقِهِ كَٱلْحَمَامِ. وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي حَنْجَرَتِهِ كَٱلْبَلَابِلِ وَٱلْقَنَابِرِ. وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ ٱلْعَجَبَ فِي تَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ كَٱلْقَطَا وَٱلْكَرَاكِيِّ وَٱلنَّعَامِ. وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي صَنْعَتِهِ كَٱلْخُطَّافِ وَٱلتَّنُّوطِ وَٱلْقُنْبَرَةِ. وَسَنَذْكُرُ بَعْضَهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ ٱلْعَجَبِ وَتَرْتِيبَ أَسْمَائِهَا عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ

بُلْبُلٌ يُقَالُ لَهُ بِٱلْفَارِسِيَّةِ هَزَارْدَسْتَانُ طَائِرٌ صَغِيرُ ٱلْجُثَّةِ سَرِيعُ ٱلْحَرَكَةِ

فَصِيحُ ٱللِّسَانِ كَثِيرُ ٱلْأَلْحَانِ يَسْكُنُ ٱلْبَسَاتِينَ وَلَهُ شَغَبٌ وَيُوجَدُ أَيَّامَ ٱلْوَرْدِ. يَقُولُونَ إِنَّهُ يُحِبُّ ٱلْوَرْدَ فَإِذَا رَأَى مَنْ يَقْطِفُهُ يُكَثِّرُ صِيَاحَهُ. لَا يَصْبِرُ عَنِ ٱلْمَاءِ سَاعَةً لِفَرْطِ حَرَارَتِهِ وَلَا يَتَزَاوَجُ إِلَّا فِي ٱلْبَسَاتِينِ وَٱلرِّيحُ تَعْصِفُ بِهِ مِنْ صِغَرِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ ذٰلِكَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلرِّيحِ لَمْ يَخْرُجْ أَصْلًا

حُبَارَى. طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ بِٱلْفَارِسِيَّةِ جَرَزٌ قَالُوا مَا فِي ٱلطُّيُورِ أَشَدُّ بَلَهًا مِنْهَا لِأَنَّهَا تَتْرُكُ بَيْضَهَا وَتَحْضُنُ بَيْضَ غَيْرِهَا وَفِي ٱلْمَثَلِ كُلُّ شَيْءٍ يُحِبُّ وَلَدَهُ حَتَّى ٱلْحُبَارَى. وَإِذَا وَقَعَ ذَرْقُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلطُّيُورِ يَعْمَلُ عَمَلَ ٱلدِّبْقِ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ ٱلْحُبَارَى سِلَاحُهُ سُلَاحُهُ. وَإِذَا قَصَدَهُ ٱلصَّقْرُ لَا يَزَالُ يَعْلُو وَيَنْزِلُ مَعَ ٱلصَّقْرِ حَتَّى يَجِدَ فُرْصَةً فَرَمَاهُ بِذَرْقِهِ يَبْقَى ٱلصَّقْرُ مُقَيَّدًا مِثْلَ ٱلْمَكْتُوفِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ٱلْحُبَارَيَاتُ وَتَنْتِفُ رِيشَهُ وَفِي ذٰلِكَ هَلَاكُ ٱلصَّقْرِ. وَٱلْحُبَارَى إِذَا تَحَسَّرَ وَتَحَسَّرَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلطُّيُورِ فَيَنْبُتُ رِيشُ صَاحِبِهِ قَبْلَهُ فَيَمُوتُ كَمَدًا يُقَالُ فِي ٱلْمَثَلِ مَاتَ كَمَدَ ٱلْحُبَارَى

خُطَّافٌ. طَائِرٌ لَا يَزَالُ يَنْتَقِلُ مِنَ ٱلصُّرُودِ إِلَى ٱلْجُرُومِ وَيَتْبَعُ ٱلرَّبِيعَ. إِذَا عَرَفَ ٱسْتِقْبَالَ ٱلصَّيْفِ يَأْخُذُ فِرَاخَهُ وَيَمْشِي بِهَا إِلَى ٱلْوَكْرِ ٱلَّذِي تَرَكَهُ فِي ٱلْبِلَادِ ٱلْأُخَرِ وَلَا يَبْقَى مِنْهَا وَاحِدٌ إِلَّا رَجَعَ إِلَى وَكْرِهِ ٱلْقَدِيمِ. وَيَتَّخِذُ ٱلْوَكْرَ مِنَ ٱلطِّينِ ٱلْمَخْلُوطِ بِٱلشَّعْرِ لِيَبْقَى بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَقْوَى كَطِينِ ٱلْحِكْمَةِ. وَمِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَعْمَلَ بَعْضَهُ وَيَتْرُكَهُ حَتَّى يَجِفَّ ثُمَّ يَعْمَلَ ٱلْبَعْضَ ٱلْآخَرَ. فَلَوْ عَمِلَهُ كُلَّهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً لَتَثَاقَلَ وَسَقَطَ

www.marefa.org

وَإِذَا أَرَادَ اتِّخَاذَ الْوَكْرِ عَاوَنَتْهُ الْخُطَّافُ فَإِذَا فَرَغَتْ تَأْتِي بِالْمَاءِ فِي أَفْوَاهِهَا وَتُسَوِّي بِهِ بَاطِنَ الْوَكْرِ وَتُمَلِّسُهُ وَتُزِيلُ خُشُونَتَهُ . وَتَضَعُ السِّنْدَابَ فِي أَوْكَارِهَا لِدَفْعِ الْحَيَّاتِ وَالذُّبَابِ وَالْبَعُوضِ . وَمِنَ الْمَشْهُورِ أَنَّ عُشَّ الْخُطَّافِ يُحَلُّ فِي الْمَاءِ وَيَسْقِي صَاحِبَةَ الطَّلْقِ فَتَضَعُ بِسُهُولَةٍ

خُفَّاشٌ . طَائِرٌ مَشْهُورٌ ضَوْءُ بَصَرِهِ ضَعِيفٌ يَسْتُرُهُ شُعَاعُ الشَّمْسِ لَا يَخْرُجُ إِلَّا بَيْنَ الظَّلَامِ وَالضِّيَاءِ . شَبِيهٌ بِالْفَأْرِ جَنَاحُهُ جِلْدَةٌ رَقِيقَةٌ وَلَهُ أَسْنَانٌ وَالْأُنْثَى لَهَا ثَدْيٌ كَمَا لِلْفَأْرِ تُرْضِعُ أَوْلَادَهَا ..... تَصِيدُ الذُّبَابَ وَالْبَقَّ وَأَمْثَالَهَا . وَرُبَّمَا تَأْخُذُ وَلَدَهَا فِي فَمِهَا وَتَطِيرُ وَتُرْضِعُ وَلَدَهَا . وَتَأْكُلُ الرُّمَّانَ عَلَى الشَّجَرَةِ وَتَتْرُكُهَا فِشْرًا مُجَوَّفًا . وَتَهْرُبُ عَنْ وَرَقِ الدُّلْبِ إِذَا نَزَلَ فِي مَكَانِهَا وَإِذَا عُلِّقَتْ خُفَّاشَةٌ فِي شَجَرَةِ قِرْيَةٍ جَاوَزَ الْجَرَادُ عَنْهَا

غَوَّاصٌ . طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ مَاهِي خَوَارْ . يُوجَدُ بِالْبَصْرَةِ عَلَى طَرَفِ الْأَنْهَارِ يَغُوصُ فِي الْمَاءِ مَعْكُوسًا بِقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ وَيَلْبَثُ تَحْتَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ لَا يُعْلِيهِ مَعَ خِفَّةِ بَدَنِهِ . حَكَى بَعْضُهُمْ قَالَ رَأَيْتُ غَوَّاصًا غَاصَ وَطَلَعَ بِسَمَكَةٍ فَغَلَبَهُ الْغُرَابُ وَأَخَذَ السَّمَكَةَ مِنْهُ فَغَاصَ مَرَّةً أُخْرَى وَطَلَعَ بِسَمَكَةٍ أُخْرَى وَقَرَّبَهَا مِنَ الْغُرَابِ وَاشْتَغَلَ الْغُرَابُ بِأَخْذِهَا فَوَثَبَ الْغَوَّاصُ وَأَخَذَ بِرِجْلِ الْغُرَابِ وَغَاصَ بِهِ وَوَقَفَ تَحْتَ الْمَاءِ حَتَّى اخْتَنَقَ الْغُرَابُ وَخَرَجَ الْغَوَّاصُ سَالِمًا

قَطًا . طَائِرٌ مَعْرُوفٌ سُمِّيَ بِصَوْتِهِ يُقَالُ فُلَانٌ أَصْدَقُ مِنَ الْقَطَا . تَبِيضُ فِي الْبَرَارِي وَتَغِيبُ عَنْهَا أَيَّامًا وَتَعُودُ إِلَيْهَا يُقَالُ فُلَانٌ أَهْدَى مِنَ

www.marefa.org

ٱلْقِطَا وَلَا يَنَامُ ٱللَّيَالِيَ وَيَأْتِي ٱلْجَادَّةَ لِيَكُونَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمَارِّينَ خَبَرٌ وَلَهُ أُخْصُوصَةٌ عَجِيبَةٌ فِي وَسْطِ ٱلْحَشِيشِ مِثْلَ بِهَا ٱلْقَائِلُ مَنْ بَنَى لِلّٰهِ مَسْجِدًا وَلَوْ مِثْلَ مَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى ٱللّٰهُ لَهُ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ

فَصْلٌ فِي ٱلْهَوَامِّ وَٱلْحَشَرَاتِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلسَّابِعُ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يُمْكِنُ ضَبْطُ أَوْصَافِهِ وَأَصْنَافِهِ لِكَثْرَتِهَا. قَالَ بَعْضُ ٱلْمُفَسِّرِينَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ تَحْقِيقَ قَوْلِ مَنْ قَالَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَلْيُوقِدْ نَارًا فِي وَسْطِ غَيْضَةٍ بِٱللَّيْلِ ثُمَّ لِيَنْظُرْ مَا يَغْشَى تِلْكَ ٱلنَّارَ مِنَ ٱلْحَشَرَاتِ فَإِنَّهُ يَرَى صُوَرًا عَجِيبَةً وَأَشْكَالًا غَرِيبَةً لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى خَلَقَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّ ٱلْخَلْقَ ٱلَّذِي يَغْشَى نَارَهُ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ مَوَاضِعِ ٱلْغِيَاضِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلسُّهُولِ وَٱلْبَرَارِيِّ. فَإِنَّ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبِقَاعِ أَلْوَانًا مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ مُخَالِفَةً لِمَا فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْأُخْرَى. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ أَسِفْتُ فَائِدَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْهَوَامِّ مَعَ كَثْرَةِ ضَرَرِهَا وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى يُرَاعِي ٱلْمَصَالِحَ ٱلْكُلِّيَّةَ كَإِرْسَالِ ٱلْمَطَرِ فَإِنَّ فِيهِ مَصَالِحَ ٱلْبِلَادِ وَٱلْعِبَادِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ خَرَابُ بَيْتِ ٱلْعَجُوزِ

فَهٰكَذَا خَلْقُ هٰذِهِ ٱلْحَشَرَاتِ مِنَ ٱلْمَوَادِّ ٱلْفَاسِدَةِ وَٱلْعُفُونَاتِ ٱلْكَائِنَةِ لِتَصْفُوَ ٱلْهَوَاءُ مِنْهَا وَلَا يَعْرِضَ لَهَا ٱلْفَسَادُ ٱلَّذِي هُوَ سَبَبُ ٱلْوَبَاءِ وَهَلَاكِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَإِنْ كَانَ يَتَضَمَّنُ لَسْعَ ٱلْبَقِّ. وَٱلَّذِي يُحَقِّقُ ذٰلِكَ أَنَّا نَرَى ٱلذُّبَابَ وَٱلدِّيدَانَ وَٱلْخَنَافِسَ فِي دُكَّانِ ٱلْقَصَّابِ وَٱلدَّبَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا نَرَى

(١) ان الحشرات لم تكن عن المواد الفاسدة العفنية بل عن زرعها الخاص بها فوالحالة هذه تتناسل نظير كل حيوان على ما علمته العلوم الصحيحة المبنية على الاصول الصادقة

www.marefa.org

فِي دُكَّانِ ٱلْبَزَّازِ وَٱلْحَدَّادِ. فَٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ صَرْفَ ٱلْعُفُونَاتِ إِلَيْهَا لِتَصْفُوَ ٱلْهَوَاءُ مِنْهَا وَتَسْلَمَ مِنَ ٱلْوَبَاءِ. ثُمَّ جَعَلَ صِغَارَهَا مَأْكُولًا لِكِبَارِهَا وَإِلَّا ٱمْتَلَأَ وَجْهُ ٱلْأَرْضِ مِنْهَا. فَلَيْسَ فِي مَلَكُوتِهِ ذَرَّةٌ إِلَّا وَفِيهَا مِنَ ٱلْحِكَمِ مَا لَا يُحْصَى. وَأَعْجَبُ مِنْ هٰذَا أَنَّ كُلَّ مَا جُعِلَ سَمًّا سَبَبًا لِهَلَاكِ حَيَوَانٍ جُعِلَ لَحْمُهُ سَبَبًا لِدَفْعِ ذٰلِكَ ٱلسَّمِّ. فَإِنَّ ٱلْأَطِبَّاءَ ٱلْأَقْدَمِينَ وَجَدُوا فِي لَحْمِ ٱلْحَيَّةِ قُوَّةً تُقَاوِمُ سَمَّهَا فَأَدْخَلُوا لَحْمَهَا فِي ٱلتِّرْيَاقِ. وَٱلتَّجْرِبَةُ تَشْهَدُ أَنَّ مَنْ لَسَعَتْهُ ٱلْعَقْرَبُ يَلْطَخُ ٱلْمَوْضِعَ بِرُطُوبَةِ ٱلْعَقْرَبِ يُسَكِّنُ أَلَمَهَا فِي ٱلْحَالِ

ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ يَخْتَلِفُ حَالُهَا عِنْدَ ٱلشِّتَاءِ. فَمِنْهَا مَا يَمُوتُ مِنْ بَرْدِ ٱلْهَوَاءِ كَٱلذِّبَّانِ وَٱلْبَقِّ وَٱلْبَرَاغِيثِ. وَمِنْهَا مَا يَكْمُنُ فِي ٱلشِّتَاءِ وَلَا يَأْكُلُ شَيْئًا كَٱلْحَيَّاتِ وَٱلْعَقَارِبِ. وَمِنْهَا مَا يَدَّخِرُ مَا يَكْفِيهَا لِشِتَائِهَا كَٱلنَّحْلِ فَإِنَّهَا لَا تَعِيشُ بِلَا طُعْمٍ. وَلْنَذْكُرْ بَعْضَهَا مُرَتَّبًا عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

بُرْغُوثٌ. هُوَ أَسْوَدُ أَحْدَبُ ضَامِرٌ إِذَا وَقَعَ نَظَرُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَيْهِ أَحَسَّ بِهِ فَيَشُبُّ تَارَةً إِلَى ٱلْيَمِينِ وَتَارَةً إِلَى ٱلشِّمَالِ حَتَّى يَغِيبَ عَنْ نَظَرِ ٱلْإِنْسَانِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ إِنَّهَا تَبِيضُ وَتُفَرِّخُ. قَالُوا عُمْرُهُ خَمْسَةُ أَيَّامٍ. زَعَمُوا أَنَّ ٱلْبَرَاغِيثَ مِنَ ٱلْخَلْقِ ٱلَّذِي يَعْرِضُ لَهُ ٱلطَّيَرَانُ فَيَصِيرُ بَقًّا كَمَا يَعْرِضُ لِلدَّعَامِيصِ ٱلطَّيَرَانُ فَتَصِيرُ فَرَاشًا. وَزَعَمُوا أَنَّ ٱلْبُرْغُوثَ يَأْكُلُ ٱلْقَمْلَ ٱلَّذِي فِي ٱلثِّيَابِ وَيَمُوتُ مِنْ رَائِحَةِ وَرَقِ ٱلدِّفْلَى

بُعُوضٌ. هُوَ حَيَوَانٌ فِي غَايَةِ ٱلصِّغَرِ عَلَى صُورَةِ ٱلْفِيلِ وَكُلُّ عُضْوٍ خُلِقَ

www.marefa.org

لِلْفِيلِ فَلِلْبَعُوضِ مِثْلُهُ مَعَ زِيَادَةِ جَنَاحَيْنِ. فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَّمَ لَهُ ٱلْأَعْضَاءَ ٱلظَّاهِرَةَ وَٱلْبَاطِنَةَ وَٱلْقُوَى كَذٰلِكَ كَمَا لِلْحَيَوَانِ ٱلْكَبِيرِ. أُنْظُرْ إِلَى صِغَرِ جِسْمِهِ فَإِنَّ ٱلطَّرْفَ بِٱلشِّدَّةِ يُدْرِكُهُ لِصِغَرِهِ. ثُمَّ إِلَى رَأْسِهِ فَإِنَّ رَأْسَهُ كَمْ يَكُونُ مِنْ جِسْمِهِ وَفِيهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلْبَاصِرَةُ وَٱلسَّامِعَةُ. ثُمَّ إِلَى دِمَاغِهِ وَٱنْظُرْ كَمْ يَكُونُ دِمَاغُهُ مِنْ رَأْسِهِ فَإِنَّ فِيهِ ٱلْقُوَى ٱلْبَاطِنَةَ ٱلْخَمْسَ[1]. فِيهَا ٱلْحِسُّ ٱلْمُشْتَرِكُ لِأَنَّهَا تَرَى ٱلْحَيَوَانَ تَمْشِي إِلَيْهِ. وَفِيهَا ٱلْخَيَالُ لِأَنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ عَلَى ٱلْحَيَوَانِ نَفْسُ خُرْطُومِهَا وَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى ٱلْحَائِطِ لَا تَفْعَلُ ذٰلِكَ. وَفِيهَا ٱلْوَهْمُ لِأَنَّهَا تَفْرُقُ بَيْنَ مَنْ يَقْصِدُهَا فَتَهْرُبُ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَقْصِدُهَا فَتَبْقَى. وَفِيهَا ٱلْحَافِظَةُ لِأَنَّهَا إِذَا ٱجْتَذَبَتِ ٱلدَّمَ تَهْرُبُ فِي ٱلْحَالِ لِعِلْمِهَا بِأَنَّهَا أَوْجَعَتْ فَتَأْتِيهَا صَدْمَةُ ٱلْمُتَأَلِّمِ. وَفِيهَا ٱلْمُتَفَكِّرَةُ لِأَنَّهَا إِذَا أَحَسَّتْ بِحَرَكَةِ يَدِ ٱلْإِنْسَانِ تَهْرُبُ لِعِلْمِهَا أَنَّهَا مُهْلِكَةٌ وَإِذَا سَكَنَ يَدُهُ عَادَتْ إِلَى مَكَانِهَا لِعِلْمِهَا أَنَّ ٱلْمَنَافِيَ ذَهَبَ وَأَنَّ مَحَلَّ ٱلْغِذَاءِ خَلَا. وَلَهَا خُرْطُومٌ أَدَقُّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ وَمَعَ دِقَّتِهِ مُجَوَّفٌ حَتَّى يَجْرِي فِيهِ ٱلدَّمُ ٱلرَّقِيقُ وَخُلِقَ فِي رَأْسِ ذٰلِكَ ٱلْخُرْطُومِ قُوَّةٌ تَضْرِبُ بِهَا جِلْدَ ٱلْفِيلِ وَٱلْجَامُوسِ تُنْفِذُهُ فِيهِمَا وَٱلْفِيلُ وَٱلْجَامُوسُ يَهْرُبَانِ مِنَ ٱلْبَعُوضِ فِي ٱلْمَاءِ

دُودُ ٱلْقَزِّ. دُوَيْبَّةٌ إِذَا شَبِعَتْ مِنَ ٱلْمَرْعَى طَلَبَتْ مَوَاضِعَهَا مِنَ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلشَّوْكِ وَمَدَّتْ مِنْ لُعَابِهَا خُيُوطًا دِقَاقًا وَنَسَجَتْ عَلَى نَفْسِهَا كُبَّةً

(١) قد قسم الفزويني القوى الباطنة في الحيوان الى قسمين الى مدركة والى عقلية فنسب المدركة الى الحيوان المحض وقد نشأت عن ميله الغريزي. اما العقلية فقد اخصها بالحيوان الناطق وهو الانسان لا غير

www.marefa.org

مِثْلَ كِيسٍ لِيَكُونَ سِرْبًا لَهَا مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَٱلرِّيَاحِ وَٱلْأَمْطَارِ وَنَامَتْ إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ بِإِلْهَامِ ٱللهِ تَعَالَى

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ ٱقْتِنَائِهَا فَمِنْ عَجَائِبِ ٱلدُّنْيَا وَهِيَ أَنَّهُمْ أَوَّلَ ٱلرَّبِيعِ يَأْخُذُونَ ٱلْبَزْرَ وَيَشُدُّونَهُ فِي خِرْقَةٍ وَيَجْعَلُ تَحْتَ نَدْيِ ٱمْرَأَةٍ لِتَصِلَ إِلَيْهِ حَرَارَةُ ٱلْبَدَنِ إِلَى أُسْبُوعٍ. ثُمَّ يُنْثَرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ وَرَقِ ٱلتُّوتِ ٱلْمَقْصُوصِ بِٱلْمِقْرَاضِ فَيَتَحَرَّكُ ٱلدُّودُ وَيَأْكُلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَرَقِ ثُمَّ لَا يَأْكُلُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي ٱلنَّوْمَةِ ٱلْأُولَى. ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَكْلِ فَتَأْكُلُ أُسْبُوعًا ثُمَّ تَتْرُكُ ٱلْأَكْلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي ٱلنَّوْمَةِ ٱلثَّانِيَةِ. وَهٰكَذَا فِي ٱلْمَرَّةِ ٱلْأُخْرَى وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي ٱلنَّوْمَةِ ٱلثَّالِثَةِ. وَبَعْدَ ٱلنَّوْمَاتِ يُطْلَقُ لَهَا مِنَ ٱلْعَلَفِ لِتَأْكُلَ كَثِيرًا وَتَشْرَعُ فِي عَمَلِ ٱلْفِيلَجَةِ. فَيَظْهَرُ عِنْدَ ذٰلِكَ عَلَى ظَهْرِهَا شَيْءٌ مِثْلُ نَسْجِ ٱلْعَنْكَبُوتِ وَيَزْدَادُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَإِذَا مَطَرَ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ مَطَرٌ يُلَيِّنُ ٱلْفِيلَجَةَ بِرُطُوبَةِ ٱلنَّدَاوَةِ وَتَنْقُبُهَا ٱلدُّودَةُ وَتَخْرُجُ مِنْهَا وَقَدْ نَبَتَ لَهَا جَنَاحَانِ فَتَطِيرُ وَلَا يَحْصُلُ شَيْءٌ مِنَ ٱلْإِبْرِيسَمِ. وَإِذَا فَرَغَتِ ٱلدُّودَةُ مِنَ ٱلْفِيلَجَةِ عُرِضَتْ عَلَى ٱلشَّمْسِ لِتَمُوتَ ٱلدُّودَةُ فِيهَا وَيَحْصُلَ مِنَ ٱلْفِيلَجَةِ ٱلْإِبْرِيسَمُ. وَيُتْرَكُ بَعْضُ ٱلْفِيلَجَاتِ لِتَنْقُبَهَا ٱلدُّودُ وَتَخْرُجَ وَتَبِيضَ وَبَيْضُهَا يُحْفَظُ لِلسَّنَةِ ٱلْآتِيَةِ فِي ظَرْفٍ نَقِيٍّ مِنَ ٱلْخَزَفِ أَوِ ٱلزُّجَاجِ. وَٱلثِّيَابُ ٱلْإِبْرِيسَمِيَّةُ تَنْفَعُ مِنَ ٱلْحِكَّةِ وَٱلْجَرَبِ وَلَا يَتَوَلَّدُ فِيهَا ٱلْقَمْلُ

عَنْكَبُوتٌ. أَصْنَافُهُ كَثِيرَةٌ لِكُلِّ صِنْفٍ فِعْلٌ عَجِيبٌ مِنْهَا ٱلطَّوِيلُ ٱلْأَرْجُلِ فَإِنَّهَا لَمَّا عَرَفَتْ ضَعْفَ قَوَائِمِهَا وَأَنَّهَا تَعْجِزُ عَنِ ٱلصَّيْدِ أَعَدَّ

www.marefa.org

لِلصَّيْدِ مَصَابِدَ وَحَبَائِلَ مِنَ ٱلْخُيُوطِ فَعَمَدَتْ إِلَى فُرْجَةٍ بَيْنَ حَائِطَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ ، وَبُلِّقِي لُعَابَهُ ٱلَّذِي هُوَ خَيْطُهُ إِلَى جَانِبٍ لِيَلْصَقَ بِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ وَهٰكَذَا ثَانِيًا وَثَالِثًا وَهٰذَا هُوَ ٱلسَّدَى . ثُمَّ يُحْكِمُ لُحْمَتَهُ حَتَّى يُتِمَّ ٱلنَّسْجَ وَكُلُّ ذٰلِكَ عَلَى تَنَاسُبٍ هَنْدَسِيٍّ حَتَّى يَصِحَّ ٱلنَّسْجُ . ثُمَّ يَقْعُدُ فِي زَاوِيَةٍ مُتَرَصِّدًا وُقُوعَ ٱلصَّيْدِ فَإِذَا وَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلذُّبَابِ أَوِ ٱلْبَقِّ بَادَرَ إِلَى أَخْذِهِ

وَمِنْهَا صِنْفٌ آخَرُ قَصِيرُ ٱلرِّجْلِ يُسَمَّى ٱلْفَهْدَ فَإِنَّهُ يَصِيدُ ٱلذُّبَابَ عَلَى شِبْهِ صَيْدِ ٱلْفَهْدِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَتَمَكَّنُ فِي زَاوِيَةٍ فَإِذَا طَارَتْ ذُبَابَةٌ بِقُرْبِهِ وَثَبَ إِلَيْهَا . وَرُبَّمَا مَدَّ خَيْطًا مِنَ ٱلسَّقْفِ وَعَلَّقَ نَفْسَهُ فِيهِ مُنَكِّسًا فَإِذَا طَارَ ذُبَابٌ بِقُرْبِهِ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ وَأَخَذَهُ . وَمِنْهَا صِنْفٌ آخَرُ يُقَالُ لَهُ ٱللَّيْثُ وَلَهُ سِتُّ عُيُونٍ فَإِذَا رَأَى ٱلذُّبَابَ لَطَى إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ وَثَبَ فَلَمْ يُخْطِ وَثْبَتَهُ وَهُوَ آفَةُ ٱلذُّبَابِ . وَمِنْهَا صِنْفٌ يُقَالُ لَهُ ٱلرَّتِيلَا إِذَا مَشَى عَلَى ٱلْإِنْسَانِ يَمُوتُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ لُعَابِهِ . وَيُسَمَّى عَقْرَبَ ٱلثُّعْبَانِ لِأَنَّهُ يَقْتُلُ ٱلثُّعْبَانَ . وَمِنْهَا صِنْفٌ دَقِيقُ ٱلصَّنْعَةِ يُهَيِّئُ نَسْجَهُ وَيَصْعَدُ بَيْتَهُ فَإِذَا وَقَعَتْ فِي مَصِيدَتِهِ ذُبَابَةٌ تَضْطَرِبُ فِيهَا فَيَمْشِي إِلَيْهَا وَيَمُصُّ رُطُوبَتَهَا وَٱلذُّبَابَةُ تَظُنُّ مِنَ ٱلْأَلَمِ إِلَى أَنْ تَمُوتَ وَيَحْمِلُهَا إِلَى خِزَانَتِهِ لِلذَّخِيرَةِ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي مَصِيدَتِهِ عِنْدَ غَيْبُوبَةِ ٱلشَّمْسِ

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ٱلْعَنَاكِبَ ٱلْإِنَاثَ هِيَ ٱلْعَوَامِلُ وَٱلذُّكُورَ خُرْقٌ تَعْمَلُ شَيْئًا . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ ٱلسَّدَى مِنَ ٱلْإِنَاثِ وَٱللُّحْمَةَ مِنَ ٱلذُّكُورِ لِأَنَّ ٱللُّحْمَةَ أَقْوَى مِنَ ٱلسَّدَى وَهُمَا كَٱلشَّرِيكَيْنِ فِي ٱلْعَمَلِ أَوْ

www.marefa.org

كَالْأُسْتَاذِ مَعَ التِّلْمِيذِ

فَرَاشٌ. هُوَ الْحَيَوَانُ الَّذِي يَتَهَافَتُ عَلَى السِّرَاجِ وَيَحْتَرِقُ. ذَكَرَ خَفِيفُ السَّمَرْقَنْدِيُّ صَاحِبُ الْمُعْتَضِدِ أَنَّهُ كَثُرَ الْفَرَاشُ عَلَى الشَّمْعِ بِحَضْرَةِ الْمُعْتَضِدِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فَجَمَعْنَاهَا فَكَانَتْ مَكُّوكًا ثُمَّ مُيِّزَ فَكَانَ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ شَكْلًا. زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْفَرَاشَ دُعْمُوصٌ نَبَتَ جَنَاحُهَا. وَسَبَبُ وُقُوعِهَا عَلَى النَّارِ مَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا إِذَا رَأَتِ السِّرَاجَ بِاللَّيْلِ تَظُنُّ أَنَّهَا فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَأَنَّ السِّرَاجَ كُوَّةٌ مِنَ الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ إِلَى الْمَكَانِ الْمُضِيءِ فَلَا تَزَالُ تَطْلُبُ الضَّوْءَ وَتَرْمِي نَفْسَهَا فِيهَا إِلَى أَنْ تَحْتَرِقَ

نَحْلٌ. حَيَوَانٌ ذُو هَيْئَةٍ لَطِيفَةٍ وَخِلْقَةٍ ظَرِيفَةٍ وَبُنْيَةٍ نَحِيفَةٍ وَسَطُ بَدَنِهِ مُرَبَّعٌ مُكَعَّبٌ وَرَأْسُهُ مُدَوَّرٌ مَبْسُوطٌ وَمُؤَخَّرُهُ مَخْرُوطٌ. وَرُكِّبَ فِي وَسَطِ بَدَنِهِ أَرْبَعَةُ أَرْجُلٍ وَيَدَانِ مُتَنَاسِبَةُ الْمَقَادِيرِ كَأَضْلَاعِ الشَّكْلِ الْمُسَدَّسِ وَقَدْ جُعِلَ فِيهَا مُلْكٌ وَيَتَوَارَثُ الْمُلْكَ أَوْلَادُهَا عَنْ آبَائِهَا. فَإِنَّ الْيَعَاسِيبَ لَا تَلِدُ إِلَّا الْيَعَاسِيبَ. وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْيَعْسُوبَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْكُورِ لِأَنَّهُ إِنْ خَرَجَ خَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ النَّحْلِ فَيَقِفُ الْعَمَلُ وَإِنْ هَلَكَ الْيَعْسُوبُ وَقَفَتِ النَّحْلُ لَا تَعْمَلُ شَيْئًا فَتَهْلِكُ عَاجِلًا. وَالْيَعْسُوبُ تَكُونُ جُثَّتُهُ كَجُثَّةِ نَحْلَتَيْنِ وَهُوَ يُوَزِّعُ الْعَمَلَ عَلَى النَّحْلِ حَتَّى تَرَى بَعْضَهَا يُمَهِّدُ الْأَسَاسَ وَبَعْضَهَا يَعْمَلُ الْبَيْتَ وَبَعْضَهَا يَعْمَلُ الْعَسَلَ. وَمَنْ لَا يُحْسِنُ الْعَمَلَ لَا يُخَلِّيهَا فِي وَسَطِ النَّحْلِ بَلْ يُخْرِجُهَا وَيَنْصِبُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ الْخَلِيَّةِ لِئَلَّا يَدْخُلَ إِلَيْهَا مَنْ وَقَعَ عَلَى النَّجَاسَاتِ فَإِنْ وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ النَّحْلِ عَلَى النَّجَاسَاتِ مَنَعَهَا الدُّخُولَ

www.marefa.org

وَٱتِّخَاذُ بُيُوتِهَا مُسَدَّسَةً مِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْغَرَضُ مِنَ ٱلْمُسَدَّسَاتِ ٱلْمُتَسَاوِيَاتِ ٱلْأَضْلَاعِ لِخَاصِّيَّةٍ يَقْصُرُ فَهْمُ ٱلْمُهَنْدِسِ عَنْ إِدْرَاكِهَا لَا تُوجَدُ تِلْكَ ٱلْخَاصِّيَّةُ فِي ٱلْمُرَبَّعِ وَلَا فِي ٱلْمُخَمَّسِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَدِيرِ، وَهِيَ أَنَّ أَوْسَعَ ٱلْأَشْكَالِ وَأَجْوَدَهَا ٱلْمُسْتَدِيرُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَمَّا ٱلْمُرَبَّعُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ زَوَايَا ضَائِعَةٌ. وَشَكْلُ ٱلنَّحْلِ مُسْتَدِيرٌ مُسْتَطِيلٌ فَتَرَكَ ٱلْمُرَبَّعَ حَتَّى لَا تَضِيعَ ٱلزَّوَايَا فَتَبْقَى خَالِيَةً وَلَوْ بَنَاهَا مُسْتَدِيرَةً لَبَقِيَ خَارِجَ ٱلْبُيُوتِ فُرَجٌ ضَائِعَةٌ. فَإِنَّ ٱلْأَشْكَالَ ٱلْمُسْتَدِيرَةَ إِذَا جُمِعَتْ لَا تَجْتَمِعُ مُتَرَاصَّةً وَلَا شَكْلَ فِي ٱلْأَشْكَالِ ذَوَاتِ ٱلزَّوَايَا يَقْرُبُ فِي ٱلِٱحْتِوَاءِ مِنَ ٱلْمُسْتَدِيرِ ثُمَّ يَتَرَاصُّ ٱلْجُمْلَةُ مِنْهُ بِحَيْثُ لَا يَبْقَى بَعْدَ ٱجْتِمَاعِهَا فُرْجَةٌ إِلَّا ٱلْمُسَدَّسُ فَٱنْظُرْ كَيْفَ أَلْهَمَهَا ٱللهُ تَعَالَى ذٰلِكَ

وَتَعْمَلُ فَصْلَيْنِ فِي ٱلرَّبِيعِ وَٱلْخَرِيفِ فَتَجْمَعُ بِٱلْأَيْدِي وَٱلْأَرْجُلِ مِنْ وَرَقِ ٱلْأَشْجَارِ وَزَهْرِ ٱلثِّمَارِ ٱلرُّطُوبَاتِ ٱلدُّهْنِيَّةَ ٱلَّتِي تَبْنِي بِهَا مَنَازِلَهَا وَلَهَا مِشْفَرَانِ حَادَّانِ تَجْمَعُ بِهِمَا مِنْ ثَمَرِ ٱلْأَشْجَارِ رُطُوبَاتٍ لَطِيفَةً عَجَزَتْ عُقُولُ ٱلْأَكْثَرِينَ عَنْ مَعْرِفَتِهَا عَلَى طَبَائِعَ. وَخُلِقَ فِي جَوْفِهَا قُوَّةٌ طَابِخَةٌ تُصَيِّرُ تِلْكَ ٱلرُّطُوبَاتِ عَسَلًا حُلْوًا لَذِيذًا غِذَاءً لَهَا وَلِأَوْلَادِهَا وَمَا فَضَلَ عَنْ غِذَائِهَا تَجْعَلُهُ مَخْزُونًا فِي بَعْضِ ٱلْبُيُوتِ وَتُغَطِّي رَأْسَهَا بِغِطَاءٍ رَقِيقٍ مِنَ ٱلشَّمْعِ حَتَّى يَكُونَ ٱلشَّمْعُ مُحِيطًا بِهَا مِنْ جَمِيعِ ٱلْجَوَانِبِ كَأَنَّهَا رَأْسُ ٱلْبَرَانِيِّ مَسْدُودَةٌ بِٱلْقَرَاطِيسِ وَتَدَّخِرُ ذٰلِكَ لِأَجْلِ ٱلشِّتَاءِ وَتَبِيضُ فِي بَعْضِ ٱلْبُيُوتِ وَتَحْضُنُ وَتُفْرِخُ وَتَأْوِي إِلَى بَعْضِ ٱلْبُيُوتِ وَتَنَامُ فِيهَا أَيَّامَ ٱلشِّتَاءِ وَيَوْمَ ٱلْبَرْدِ وَٱلرِّيَاحِ وَٱلْأَمْطَارِ وَتَتَقَوَّتُ مِنْ ذٰلِكَ

www.marefa.org

ٱلْعَسَلِ ٱلْمَخْزُونِ فِي وَأَوْلَادُهَا لَا إِسْرَافًا وَلَا تَقْتِيرًا إِلَى أَنْ تَأْتِيَ أَيَّامُ ٱلرَّبِيعِ وَتَخْرُجَ ٱلْأَزْهَارُ وَٱلْأَنْوَارُ فَتَرْعَى كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ فِي ٱلْعَامِ ٱلْمَاضِي وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا دَأْبُهَا بِإِلْهَامٍ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى. وَمِنْ عَجَائِبِ ٱلنَّحْلِ أَنَّهَا إِذَا عَرَفَتْ أَخْذَ ٱلْعَسَلِ وَأَحَسَّتْ بِٱلدُّخَانِ جَعَلَتْ تَأْكُلُ مِنْهُ أَكْلًا ذَرِيعًا

حَكَى بَعْضُهُمْ أَنَّ خَلِيَّةً مِنْ خَلَايَا ٱلْعَسَلِ مَرِضَ نَحْلُهَا فَجَاءَ نَحْلُ خَلِيَّةٍ أُخْرَى يُقَاتِلُهَا عَلَى ٱلْعَسَلِ ٱلَّذِي فِي بُيُوتِهَا يُرِيدُ إِخْرَاجَهَا مِنَ ٱلْخَلِيَّةِ لِيَسْتَوْلِيَ عَلَى عَسَلِهَا فَأَقْبَلَ قَيِّمُ ٱلْخَلَايَا يُعَاوِنُ ٱلنَّحْلَ ٱلضَّعِيفَ ٱلْمَرِيضَ وَكَانَ يَلْسَعُهُ ٱلنَّحْلُ ٱلْغَرِيبُ دُونَ ٱلْمَرِيضِ كَأَنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْهَا.

وَأَمَّا ٱلْعَسَلُ فَذَكَرُوا أَنَّ ٱلْأَبْيَضَ عَمَلُ شُبَّانِهَا وَٱلْأَصْفَرَ عَمَلُ كُهُولِهَا وَٱلْأَحْمَرَ عَمَلُ شِيبِهَا

محمد آلتونجي

من كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات

للقزويني

www.marefa.org

فهرس

وجه

من كتاب العبر وديوان المبتدأ في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر لعبد الرحمان بن خلدون الحضرمي

المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاطلاع على ما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيء من اسبابها ٣

من كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب تاليف العلامة المقري

في وصف الاندلس ١٥

في القاء الاندلس للمسلمين بانقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ٢٦

من كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر لابي البركات عبد اللطيف

المقالة الاولى وهي ستة فصول

الفصل الاول . في خواص مصر العامة لها ٣٠

الفصل الثاني . فيما تختص به من النبات ٣٤

الفصل الثالث . فيما تختص به من الحيوان " ٣٧

الفصل الرابع . في اقتصاص ما شوهد من اثارها القديمة ٤٠

الفصل الخامس . فيما شوهد بها من غرائب الالسنة والسفن ٥٥

المقالة الثانية

النيل وكيفية زيادته واعطاء علل ذلك وقوانينه ٥٧

من تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار لابي عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة ٦٣

حكاية خصيب ٧٠

حكاية ابي يعقوب يوسف ٧٦

من كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للشيخ الامام محمد بن محمد القزويني

النظر في الكائنات وهي الاجسام المتولدة من الامهات ٨٧

النظر الاول . في المعدنيات ٨٨

www.marefa.org

النظر الثاني . في النبات
القسم الاول . الشجر
القسم الثاني من النبات . النجوم
النظر الثالث . في الحيوان
النوع الاول . الانسان
النظر في القوى
القوى الظاهرة وهي الحواس الخمس
فصلٌ في الدواب
فصلٌ في النعم
فصلٌ في السباع
فصلٌ في الطيور
فصلٌ في الهوام والحشرات

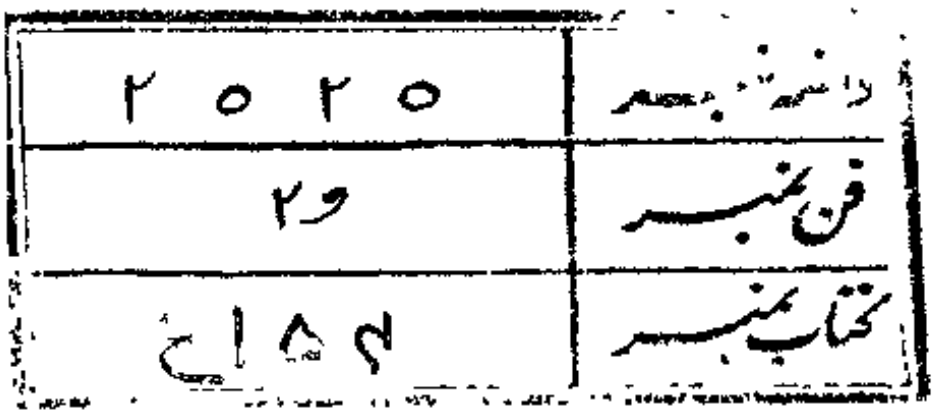
رقم نمبر ٢٠٢٥
فن نمبر ٢٧
كتاب نمبر ٨٥٢ ح

www.marefa.org

www.marefa.org